الناصية

مجلة فصلية تُعنى بقضايا الفكر والثقافة

العدد: (الثالث) □ يونيو 2023 □ السنة الثانية

تصدر مؤقتاً كل ستة أشهر عن مؤسسة (أمجد) الثقافية والحقوقية

حوطة لحج :
حكاية مدينة سبقت زمانها
هشام العطيري
متعب عوض

قول السقاف في المواطنة والمجتمع المدني
قاسم عبده المحبشي

اشكالية بناء وإدارة الدولة الحديثة في اليمن
عبد الجبار عبدالله سعيد

الدولة الفدرالية- مقاربة قانونية
يحيى قاسم سهل

استعارة رأس
عبده التاج

إبشر ياسالم الحال سالم
محمد عوض باكر

المفكر أبوبكر السقاف

يموت واقفاً كالشجر

الناصية

مجلة فصلية، تُعنى بقضايا الفكر والثقافة "تصدر مؤقتاً كل ستة أشهر" عن مؤسسة أمجد الثقافية والحقوقية

العدد: (الثالث) - يونيو 2023م _ السنة الثانية

رئيس التحرير/
أ.د. يحيى قاسم سهل

مدير التحرير/
محمد عبد الرحمن سيف

سكرتير التحرير/
ماجد الشعيبي

المراجعة اللغوية/
د.عباس حسن الزامكي

الإخراج الفني
مراد محمد سعيد

مجلة الفكر والثقافة

تأسست في عدن عام 2021 م

عنوان المجلة : اليمن عدن- كريتر
009672260082
00967777808724
00967771812087
00967713807501
الاشتراكات:
يتفق بشأنها مع هيئة التحرير
ثمن النسخة : 2000 ريال يمني
رقم الإيداع لدى المكتبة الوطنية عدن:
1309/16/5/2023
المطبعة: النبراس للطباعة والنشر، عدن،
المنصورة، جوار جامع الرضا
هاتف: 02-353989 - 777901296

امسح QR
وتابعنا على مدونة المجلة

ماينشر في المجلة من مواضيع تعبر عن آراء كتابها، ولا تعكس بالضرورة وجهة نظر هيئة تحرير ها أو المؤسسة الصادرة عنها..

03 إهداء
05 الافتتاحية

ادب وفن

_ظاهرة الاغتراب في الشعر اليمني- الشعراء الشباب... أنموذجا (1) 126 عباس حسن الزامكي
الليل والنار 139 وضاح اليمن الحريري
مرأة: البحيرة الساذجة قبالة الصيغة الأنثوية لنرسيس 140 آدم الحسامي
هذيان 142 هاني الفحام
العدم 144 عبد العزيز الدغيش
نصوص من سنوات الحرب الممتدة 146 محمد ابراهيم على الله
ابشر ياسالم الحال سالم 149 محمد عوض باكر
استعارة رأس 151 عبده التاج

دراسات، بحوث، مقالات.

■ الحداثة ومنظومة القيم الاجتماعية عبدالله عوبل (6)
■ إشكالية بناء وإدارة الدولة الحديثة في اليمن، وسبل معالجتها. عبد الجبار عبدالله سعيد (32)
■ الدولة الفدرالية-مقاربة قانونية. يحيى قاسم سهل.. (60)
■ المعوقات البنيوية أمام تحقيق المواطنة المتساوية في اليمن... عيبان محمد عبد الرحمن.. (75)

ملف العدد "ملف خاص"

100 ◀ أبوبكر السقاف: التنوير مكابدة شاقة وانحياز لصوت المقهورين محمد عبدالوهاب الشيباني
104 ◀ قول السقاف في المواطنة المتساوية والمجتمع المدني. قاسم عبده المحبشي
115 ◀ فكر السقاف:" من أجل وطن حر وشعب سعيد" احمد عبدالله الصعدي
120 ◀ السقاف: في جدل الفلسفة والواقع قادري احمد حيدر

فكر سياسي

إشكالية مفهوم المواطنة في الثقافة السياسية العربية (٢)
سماح أبو الليل 85

مجتمع مدني

دور الشباب في بناء السلام في اليمن (٢)
ماجد الخليدي وآخرون 172

181 اصدارات
184 محددات وقواعد النشر
185 تعريف مؤجز عن المؤسسة

إهداء ..

في الثالث عشر من ديسمبر/كانون أول، 2022، والعدد الثاني من مجلتنا "الناصية" ماثل للطبع صعقنا بخبر مؤلم عن توقف قلب المفكر والفيلسوف والمكافح التنويري اليمني والعالمي أ. د. أبوبكر السقاف عن الخفقان "النبضان"، وتوقف عقله المتوهج الوقاد عن التفكير.

بعد ثمانين عاما وأكثر من التعب الهادف والنضال المتميّز والكفاح المجيد، خبر (رحيل الرجل الذي كانت حياته فلسفة وحكمة، وكانت سيرته استقامة وشجاعة وقدوة وقناديل تنير العقول والأفهام.

رحيل المفكر الحر، والكاتب الشجاع، والمدافع الصلب عن الحقوق والحريات، وأحد أبرز رموز الحركة الوطنية ودعاة الوحدة اليمنية التي لا يخالطها ضم ولا إلحاق ولا استبداد ولا علو في الأرض ولا تغول على الناس ولا فساد.

رحيل الرجل الذي أثرى واقعنا اليمني بالمثال الحي للفكر والكتابة المهمومة بالتنوير وبالسلام الاجتماعي والدولة المدنية التي كان يسميها "الفريضة الغائبة.

رحيل المبشر الأكبر بدولة المواطنة وبقيم المساواة والعدالة الاجتماعية والسلوك المدني، والمقارع المقدام للقمع والتسلط). (نقلاً عن بيان اللجنة المركزية للحزب الاشتراكي اليمني).

وتحت وقع هذه الفاجعة الرهيبة لم نتمكن من إصدار بيان نعي لهذا المفكر والتنويري العظيم، أو حتى تعزية باسم المجلة وهيئة تحريرها، والمؤسسة الصادرة عنها.

لذلك فقد قطعنا على أنفسنا عهداً بأن نهدي العدد الثالث لمجلتنا "هذا العدد" لروحه الطاهرة، وأن نكرِّس ملف خاص عنه، وها نحن نفي بعهدنا ونهدي هذا العدد لروحه وننشر ملف خاص عنه تضمن أربعة مواضيع عن فكره وكفاحه لكلا من :[أ. محمد الشيباني، د. قاسم المحبشي، د أحمد الصعدي، أ. قادري احمد حيدر] "أنظر الملف الخاص."

ومع ذلك فقد ارتأينا أن الإهداء أو تكريس ملف في عدد واحد ... أو حتى عدد كامل من المجلة لهذا المفكر والفيلسوف العظيم لن يكون كافيا، ولا يليق بهذه القامة الفكرية والكفاحية التنويرية الباسقة، ولهذا نجدد العهد أن نستمر في تخصيص مساحة كافية له في الأعداد القادمة من المجلة.

(هيئة التحرير)

الافتتاحية

رئيس التحرير

شرعت بكتابة الافتتاحية وإذا بخبر رئيس فرنسا الاسبق (ساركوزي) يصدر عن محكمة الاستئناف الباريسية بحبسه لمدة ثلاث سنوات...الخ !

واستوقفني الخبر ليس بوصفه خبر غريب، بل لأن ذلك هو الذي كان الشهيد (أمجد) ورفاقه يناضلون من أجله (دولة القانون) بمفهومها الدستوري - حيث تتحقق المواطنة كمفهوم وممارسة، وهذا أيضاً الذي جاءت من أجله.. مؤسسة أمجد، ومجلة الناصية، إحياء لذكرى أمجد الذي تصادف هذه الأيام ذكرى استشهاده "السادسة" لروحه السلام.

أما بشأن العدد الثالث الذي بين يدي القارئ الكريم، فهو يأتي وعدن تشهد حواراً جنوبياً-جنوبياً، نأمل له التوفيق والنجاح بما يخدم القضية الجنوبية بحق.

وبالمقابل تشهد عدن صيفاً حارا لا يطاق، وخدمة الكهرباء منقطعة لساعات طويلة، على غير المألوف أو الذي تبرمجنا عليها، بل صارت خمس وست ساعات .! والسؤال أين الجهات المسؤولة وأولها السلطة المحلية ورئيسها الذي أقسم أنه لن يبقَ في الكرسي وعدن دون كهرباء؟

وعلى صعيد المشهد الثقافي فباستثناء بعض الأنشطة الثقافية والفنية المحدودة التي شهدتها مدينة عدن مؤخراً ، وانتظام صدور عدد محدود من الدوريات... كمجلتنا "الناصية" ومجلتي (فنار عدن الثقافية، ومن تراثنا) الصادرتان عن اتحاد أُدباء وكتاب الجنوب، وبعض الإصدارات الأدبية والقانونية والثقافية هنا وهناك... وهي على قلتها إلا أن الغالب هو استمرار حالة الركود لهذا المشهد الثقافي ...

هذا وعدن وراء القصد...

الحداثة ومنظومة القيم الاجتماعية

دراسة مقارنة في تغيرات القيم الشرقية

د. عبدالله عوبل
أستاذ علم الاجتماع المساعد
كلية الآداب جامعة عدن

إن دراسة النظم القيمية هي من الموضوعات الجديدة في علم الاجتماع، والعلوم الانسانية المعاصرة، بالنظر إلى أهمية القيم ليس فقط كمعايير وميزان للسلوك الفردي والجماعي، وإنما كموجهات عامة ترافق أو تتبع كل تغير اجتماعي في كل مرحلة من مراحل التطور الاجتماعي.

ويُعدُّ موضوع القيم الاجتماعية من المواضيع التي اهتم بها العلماء بمختلف تخصصاتهم وتوجهاتهم، خاصة علماء علم الاجتماع فقد تناولوا موضوع القيم حتى أصبح فرعا من فروع علم الاجتماع. أن دراسة القيم الاجتماعية تقتضي دراسة التغير الثقافي، ولفهم هذا الموضوع لابد من دراسة التغير الاجتماعي في المجتمع لتفسير آلية تغير المنظومة القيمية في المجتمع.

إن دور القيم الاجتماعية في عملية التغير الاجتماعي مهم جدا، فهي عامل في التغيير تؤثر فيه وتتأثر به؛ إنها علاقة جدلية، فاستيعاب القيم الجديدة والاقتناع بأهميتها في تحقيق سعادة الانسان وكرامته ورفاهيته تكون دافعا لتوجيه سلوك الافراد والجماعات نحو التغيير، كما أن التغير يؤدي إلى اعادة ترتيب البناء الاجتماعي على خلفية منظومة قيم تقوم على أنقاض القيم السلبية المعرقلة للتطور الاجتماعي.

إن شعوبا شرقية محافظة اسلامية وغير اسلامية استطاعت أن تحقق تقدما اقتصاديا وتكنولوجيا عاليا، وتنخرط في العولمة وتساهم فيها مساهمة جدية مثل اليابان، الصين، ماليزيا كوريا، وغيرها، دون أن تتخلى عن قيمها الثقافية وهوياتها القومية، ودون أن تتحول إلى نمط الحياة الامريكي أو الأوربي. أن تغيير القيم السلبية في الثقافة يتم على قاعدة التطور الاجتماعي الذي يحقق العدالة والمساواة والنظام وكرامة الانسان، وهي قيم انسانية عامة تشترك فيها البشرية كلها، دون إلغاء الخصوصية الثقافية للشعوب.

في بداية التسعينيات من القرن العشرين بعد سقوط المنظومة الشيوعية، دخل العالم في مرحلة جديدة من التطور، وبدأ منظرو العولمة يصيغون اطروحات جديدة تتعلق بالعلاقات بين الدول وتحول العالم إلى قرية كونية. والواقع أن صعود المحافظين الجدد إلى الحكم في أميركا كان متزامنا مع توجهات جديدة للعولمة عبرت عنها نظريات المجانسة الثقافية (Homogenization) وهي جعل منظومة القيم الأمريكية قيما عالمية عبر تكنولوجيا الاتصال وعبر نشر (البيبسي كولا وماكدونالدز) وغير ذلك، وهو ما جعل الدول تشعر بتهديد حقيقي لقيمها وهويتها الثقافية. ناهيك عن الهجمة الأيدولوجية عبر الإسلام فوبيا، والوقوف السافر للولايات المتحدة إلى جانب إسرائيل واحتلال العراق، كل ذلك قد نقل الصراع العالمي للإرهاب إلى منطقتنا وبدا وكأنها هي المنطقة الوحيدة في العالم التي تهدد النظام العالمي الجديد.

إن فكرة التجانس الثقافي التي أُريد لها أن تتحقق مع عمليات العولمة الاقتصادية وتعميم القيم الامريكية والأوربية، قد افترضت الغاء الخصوصيات الوطنية والدخول في الحداثة القائمة على الفردانية. وبدا كما لو أن الدول الشرقية تستعد للدخول في هذه العملية. ففي اليابان أكد تقرير لجنة رئيس الوزراء للتعليم عام 2000على أن "قيم الفرد يجب أن تطلق وأن يترك له المجال ليبدع ويغامر وينافس، ذلك أن المجتمع الياباني يضع الفرد كالمسمار يتم طرقه حتى يتساوى مع سطح الخشب الذي يحويه"(1). وتلك فكرة عميقة عن العملية التي يراد للمجتمع الياباني أن يعبرها من قيمه المحافظة القائمة على محورية الجماعة إلى الفردانية باعتبارها محور المجتمع ومقدمة على الجماعة.

وقد روجت نظريات اتجاهات العولمة (نيكولاي جينوف) مثلا: لاتجاه نشر

الفردية (Individualism) وهي تعني بهذا المفهوم أن الفرد هو محور المجتمع وهي في المفهوم الغربي عموما تعني أيضا "إطلاق روح المبادرة للفرد ليبدع وينافس وعليه أن يغامر ويخاطر ليحقق انجازات تحقق ذاته. فالفرد بهذا المنظور هو مؤسسة يمنح حقوقا متزايدة ويتحمل أعباء ومخاطر أكبر. أن الفرد هنا هو محور الدولة الحديثة. ولذلك يرى دعاة العولمة إنه من أجل خلق هذا الفرد لابد من تفكيك الجماعات الدينية والأثنية والقومية وتحريرها من أي روابط دينية أو عصبية"(2).

إن نشر قضية الفردية قيمة تثير اختلافا في الشرق كله من اليمن إلى اليابان. لقد طلب رئيس الوزراء في اليابان من اليابانيين "أن يفسحوا المجال للفرد ليبدع ويغامر" إذ يرى اليابانيون في إنجازه كالمسمار يجب طرقه حتى يتساوى مع السطح الذي يحويه (3). فهل تتخلى اليابان عن سر قوتها وسر القوة هنا هي الجماعة التي تعد محور المجتمع الشرقي عموما وليس في اليابان فقط.

لقد مضى ما يقارب العقدين من الزمان، منذ أن تم الترويج لأطروحة المجانسة الثقافية، لم تتحقق فيها تلك المجانسة، حافظت الشعوب الشرقية على قيمها القائمة على خصوصيتها الثقافية وفي القلب منها قيمها الاجتماعية. إذ لعبت هذه القيم الاجتماعية على المستوى الوطني أدوارا مهمة في التغير الاجتماعي، وأهمها تلك القيم المرتبطة بتقديس العمل وتحريم الرشوة واختلاس المال العام خصوصا لدى ما تسمى بالنمور الاسيوية أو الشعوب الصفراء. أما في منطقتنا العربية فمازالت قيمة العمل غائبة عن الوعي الثقافي المكون للشخصية في التربية، ومازالت غائبة أمور شتى مهمة للتنمية والتحديث مثل محاربة الفساد واحترام الوقت والمساءلة والشفافية وغيرها من القيم التي تشكل رافدا لعملية التطور الاجتماعي.

أهمية الدراسة:

إن الثقافة على ارتباط مهم بعملية التغير الاجتماعي وفي عملية التطور بشكل عام. فإذا هناك من يتساءل عن اسباب تطور اليابان والصين وسنغافورا وماليزيا وكوريا وفيتنام وغيرها من البلدان الاسيوية فإن السر في ذلك ثقافي بامتياز. أن التاريخ الحضاري ومنظومة القيم تلعب دورا اساسيا في هذا التطور الاجتماعي، مثل قيم العمل والاخلاص والموقف الاخلاقي من الفساد، التي تشكل دافعا

قويا للتقدم وتحقيق الانجاز والتفوق في مجال التفكير والعلوم. وفي أوربا أكدت أبحاث عالم الاجتماع المشهور (ماكس فيبر) أن دور البروتستانتية كان عظيما في تقدم الغرب العلمي والتكنولوجي والانتاجي نظرا لأن المذهب البروتستانتي يرفع من شأن العمل ويقدسه لذلك فإن دراسة مقارنة للقيم وتغيراتها في دول أوربية شرقية وآسيوية وعربية قد يساعد في تحقيق تقدم اجتماعي اقتصادي للخروج من التخلف والحروب إلى فضاءات التنمية والتطور والازدهار والاستفادة من التقدم العلمي والتقني والمشاركة مع شعوب الارض في صناعة التاريخ المعاصر.

اهداف الدراسة:

التعرف على أهمية القيم الاجتماعية وعلاقتها بعملية التغير الاجتماعي. كما من المهم أيضا التعرف على المنحى الذي يأخذه تغيرات القيم في سياق التغير الاجتماعي في البلدان قيد الدراسة. كما تهدف الدراسة إلى بيان السياق التاريخي لتغيرات القيم في أوربا، والتغير الاجتماعي في اليابان والمنطقة العربية ودور القيم الاجتماعية فيه. وأخيرا التعرف على مدى قابلية فكرة المجانسة الثقافية للتطبيق، وهي الفكرة التي ظهرت مع العولمة في بداية تسعينيات القرن العشرين. كما تهدف الدراسة إلى التعرف على المفردات الاساسية للقيم مثل القيم المحافظة وقيم الفردانية.

أسئلة الدراسة:

التساؤل الرئيس في هذه الدراسة هو: ما هو دور وأهمية القيم في عملية التغير الاجتماعي؟ وتحديدا في عملية التحديث للمجتمعات كافة. هل يمكن أن تقود الحداثة إلى تحقيق ما أطلق عليها في سياق العولمة المجانسة الثقافة. أي أن تطور التكنولوجيا وتقنية الاتصالات يمكن أن تؤدي تبادل العالم قيما اجتماعية واحدة هي القيم الامريكية الأوربية؟

فرضية الدراسة:

وبناءً على ما تقدم، فإن الباحث يضع الفرضيات التالية:

1. في المجتمعات الشرقية يمكن للنظم القيمية أن تكون عاملا ايجابيا في عملية التغير الاجتماعي؟

2. الشرق ليس مجرد شرق الكرة الارضية، بل إنه يتجاوز الجغرافيا إلى الثقافة. والثقافة هنا لا تعرف حدودا.

منهجية الدراسية:

المنهج الاساس الذي ستقوم عليه الدراسة هو المنهج المقارن. بالإضافة إلى المنهج التاريخي ذلك لأننا بصدد المقارنة بين دول سلكت طريق التحديث وأصبحت جزءا من الدول الرأسمالية المتطورة رغم الاختلاف الثقافي والاجتماعي. وسنعتمد في بحثنا هذا على المقارنة الخارجية. إذ أن البلدان موضوع المقارنة تطورت في سياقات تاريخية وثقافية مختلفة: أن بلغاريا تقع في شرق أوربا وكانت ضمن المنظومة الشيوعية التي سقطت في 1989م، وتمضي الآن في طريق التحديث بمساعدة من أوربا الغربية وضمن الاتحاد الأوربي بينما اليابان دولة آسيوية أخذت في التطور الصناعي والعلمي والتقني بعد الحرب العالمية الثانية وأصبح لديها خلال فترة وجيزة ثاني اقتصاد في العالم.

الدراسات السابقة:

أحد أهم الدراسات العلمية التي ناقشت موضوع النظم القيمية بين غرب أوربا وشرقها كان للباحثة (كراسيميرا بايتشينسكا) بعنوان " الاتجاه الحداثي والمحافظ في قيم الثقافة البلغارية المعاصرة"(4) وملخص ما وصلت اليه على النحو التالي:

الدراسة المذكورة أُجريت في بلغاريا على عينات من المجتمع – رجال أعمال وطلاب الدراسات العليا، والعاطلين عن العمل وطلاب المدارس الروحية. وأجريت على قاعدة الإطار النظري تصنيف شوارتز (Schwartz) في النظم القيمية.

أظهرت نتائج هذه الدراسة أن القوى الحديثة – رجال الاعمال والعمال والعاطلين عن العمل يميلون نحو تفضيل الفردانية (Individualism) التي تتسم بها أوربا الغربية بينما يميل طلاب ومعلمو المدارس الروحية الكنسية إلى الجماعية المحافظة، بينما لم يحدد طلاب الدراسات العليا اتجاها نحو احدى المجموعتين. واتضح أن في المجتمع البلغاري لا حدود فاصلة بين الفردانية والجماعية، فالفردانيون يفضلون أيضا قيم محافظة ولكن بدرجة أقل. هذا يعني أن المجتمع الأوربي الشرقي في طور الانتقال من المحافظة إلى الحداثة الأوربية،

حسب تفسير النتائج للباحثة. واعتبرت الباحثة أن الانتقال يجري من الجماعية المحافظة إلى الحداثة القائمة على الفردانية. كما اعتبرت أن هذا الانتقال يتوافق مع الانتقال من الاقتصاد الشيوعي إلى اقتصاد السوق.

الدراسة الثانية: للباحث مسفر بن على القحطاني بعنوان" القيم ما بعد الحداثة قيم العمل اليابانية نموذجا"(5) يرى أن دور القيم الثقافية في اليابان اساسيا في تقدم اليابان الصناعي والاجتماعي ويورد الاسباب على النحو التالي:

1 -احترام القيم والمعتقد لدى اليابانيين، والقيم هنا هي تلك الأخلاق المتوارثة من فرسان (الساموراي) التي حددتها تعاليم (البوشيدو) وهو قانون الأخلاق القائم على سبعة أمور، وهي: الاستقامة، والشرف، والاحترام، والصدق، والشجاعة، والبر والإحسان، والولاء والإخلاص. وهذه القيم هي التي حافظت على التقدم المدني، كما برز احترام الغير والصدق والأمانة في جميع معاملاتهم اليومية إلى درجة الذهول أحياناً.

2 -من عوامل النهوض الياباني: روح الجماعة والفريق الواحد، الذي تتلاشى فيه الأنا، وتنعدم فيه الذات، وتعظم مصلحة المجتمع.

3 -تمتع المجتمع الياباني بالحقوق المدنية وشعوره بكرامته الإنسانية.

4 -العناية الفائقة للتعليم في اليابان والتي تعد من أسرار النهوض الياباني الحديث.

سيسيولوجيا القيم

سيسيولوجيا القيم فرع جديد قديم في علم الاجتماع، لكن موضوع القيم في علم الاجتماع ليس جديدا. فقد كان الاهتمام بدور القيم في حياة الافراد والجماعات لا يقل أهمية عن بقية مفردات علم الاجتماع ومواضيعه لدى مؤسسي علم الاجتماع.

1. مفهوم القيم

يرى عالم الاجتماع الاشهر (أميل دوركايم) أن مصدر القيم اجتماعي، لأن "العواطف الاجتماعية هي التي تجعل الاشياء ذات قيمة حيث تبدو متشابهة في وعي الجماعة"(6)

ويرى دوركايم إن للشخصية جانبين: "يوجد في كل منا كائنان لا يمكن الفصل

بينهما إلا على نحو تجريدي، أحدهما نتاج لكل الحالات الذهنية الخاصة بنا وبحياتنا الشخصية وهو ما يمكن أن نطلق عليه الكائن الفردي. أما الكائن الآخر، فهو نظام من الأفكار والمشاعر والعادات التي ننتمي إليها، مثل العقائد الدينية والممارسات الأخلاقية والتقاليد القومية والمهنية والمشاعر الجمعية من أي نوع كانت، وهي تشكل في مجموعها الكائن الاجتماعي الآخر. وبالتالي فإن بناء هذا الكائن الاجتماعي في كل منا يشكل في نهاية المطاف هدف التربية وغايتها"(7)

ويرى عالم الاجتماع (ماكس فيبر) إن الوعي ذاته يمكن أن يقودنا إلى "جرعة كبيرة من الحياد الاخلاقي. أن المعايير القيمية والاخلاقية يمكن أن تقدم أجوبة واضحة جدا لهذه الاسئلة، عندما توضح لنا ماذا تخفي وراءها كمعان... أن علوما كثيرة تسمى ثقافية تعطي للأفراد القدرة والارادة ولها توجهات خاصة نحو العالم المحيط. هؤلاء الأفراد ليسوا في وضع يستطيعوا التحرر من طموح أن يقيموا كل شيء حولهم – ظواهر أو أحداث. وإذن فمفهوم الثقافة هو في حد ذاته مفهوم قيمي. أن الثقافة باتت لدينا حقيقة موضوعية لأنها تحمل في داخلها مخزون معنوي ورمزي بالنسبة لنا. لأنها شاهدة على العلاقة بالقيم التي نتقبلها"(8).

ويرى فيبر "إن المعرفة التي نتوصل اليها من خلال البحث تعكس موقفا اجتماعيا معينا. فالباحث لديه افكارا" تقييمية" للحقائق التي ستكون موضوع البحث، بل لن يكون قادر على تنظيم المعطيات وفق مبدا محدد. لا يمكن أن يوجد تحليل علمي مطلق للثقافة أو الظواهر الاجتماعية معزولا بالكامل عن وجهة النظر الخاصة بالباحث. أن الباحث ينطلق من وجهة نظر، بوعي أو بدون وعي، واضحة أو غير واضحة له، لكنها تخدمه في اختيار وتحليل وتنظيم وعرض موضوعه"(9). واضح هنا أن ماكس فيبر يشدد على أن البيئة المحيطة بالفرد، فهي تؤثر على مواقفه وآراءه، فهو ينتمي لأسرة ومجتمع وشريحة اجتماعية، وبالتالي فان الباحث يخضع لتأثير المحيط الاجتماعي. لا توجد حالة حياد حتى في الدراسات الاجتماعية. الفرد ابن بيئته، لكن توجد موضوعية أي أن النظر للمعطيات كما هي دون زيادة أو نقصان.

2 -منظومة القيم الاجتماعية (Social value system)

وتحتل القيم موقعا مركزيا في طروحات عالم الاجتماع الامريكي (تالكوت بارسونز)(10) الذي يعتبرها محددات للبناء الاجتماعي للمجتمع. اذ يرى أن

المنظومة المركزية للقيم لأي مجتمع كان هي خلفية كل بناء اجتماعي للمنظومة الاجتماعية الكلية ومفاصلها.

إن حدود كل فعل عند بارسونز يتضمن العناصر التالية: الفاعل، الموقف، اتجاه الفاعل نحو هذا الموقف المحدد. توجد نوعين من التوجهات – دافعية وقيمية. وتمثل الحاجات اساس ومركز التوجهات الدافعية، في حين أن القيم تعبر عن التكيف مع بعض المعايير الاجتماعية. بارسونز سمى هذه التوجهات منظومة التوجهات، (System of orientation)

إن منظومة القيم المركزية عند بارسونز هي التي تميز مجتمعا عن اخر ويختلف بها عن أي مجتمع آخر. ويرى أن الصراعات يمكن أن تتفجر في المجتمعات بين القيم. ولكن المجتمع لكي يتمكن من تطوير القيم، ولكي يحقق التكامل وتنظيم نفسه على اساسها، يجب بان يقضي على القيم التي تعيق تطوره اللاحق"(11)

ويطلق بارسونز مفهوم الكمون وهو المفهوم الذي يعبر عن "التكامل بين التنظيم الاجتماعي وانماط القيم الثقافية العليا. ويتم ذلك عن طريق تقدير الاتساق بين اهداف التنظيم مع القيم التي يقرها النسق الاجتماعي الاكبر. وذلك يعطي شرعية للتنظيم كما انه يعطيه قدرة على مواجهة الضغوط الخارجية، ويعطيه القدرة على وضع أولوية لأهدافه. ويشدد بارسونز أن على النسق أن يضع منظومة متناغمة من القيم التي تحكم سلوك اعضائه كما عليه أن يواجه الضغوط التي يمكن أن تواجه انساق ألأنساق الفرعية، نتيجة تباين الانماط المعيارية وذلك من خلال وضع نسق القيم المحوري.

2. نظرية شوارتز حول القيم

ان القيم تستخدم كمعيار للمقارنة مع الثقافات الاخرى. ولأنها تطبع الثقافة بطابعها، فأنها، تعكس الافكار التجريدية التي يتبادلها الناس حول ما هو الجيد وما هو المرغوب في المجتمع.

في دراساته المتعددة يقسم (شوارتز) (12) القيم إلى مجموعات سبع، وفي كل مجتمع تكون الأولوية لواحدة من هذه القيم. أن الأولويات القيمية في المستوى الثقافي تعكس اساليب حل ثلاث قضايا أساسية، تظهر خلال متابعة السلوك الانساني للمجتمع، أو الجماعة الثقافية القضية الأولى تتصل بطابع العلاقة بين الفرد والجماعة. هذا الاتجاه يتضمن موضوعين اساسيين: ماهي المصالح الحاكمة

-فردية كانت أو جماعية؟ وإلى أي درجة الافراد داخلون في جماعة أو مستقلون نسبيا عنها. الموضوع الثاني، أكثر أهمية، لأنه بالقدر الذي يعيش فيه الفرد كجزء من الجماعة، فان صراع المصالح يكون ضعيفا أو منعدما. في كثير من المصادر توجد نوعين من العلاقات بين الفرد والجماعة، ويوردها البعض على شكل ثنائيات مثل الفردانية والجماعية، Individualism & collectivism)). ويمكن أيضا استخدام عدد من الثنائيات -الاستقلالية والتبعية أو الأنانية وتغليب مصلحة المجتمع، وغير ذلك.

إن الفردانية (Individualism والجماعية (Collectivism) هي الأكثر استخداما لوصف الثقافات. فاذا قارنا الثقافات وفق لهذا البعد، في أحد طرفي الثنائية، سوف تظهر الثقافة التي يفهم فيها الفرد بحيث يظهر الفرد ليس كوحدة قيمية مستقلة، بل كجزء من الجماعة التي هو عضو فيها، فان معنى حياة الفرد في هذه الثقافات في نهاية المطاف هو الاحتفاظ بالعلاقات الجيدة مع الاخرين. أن الناس مهمون هنا بالقدر الذي هم أعضاء في جماعة معينة، أي أن الفرد يعرف بواسطة الجماعة ويعيش اسلوب حياتها. في الثقافات التي تقع في هذا التوصيف، فان القيم السائدة هي تلك التي تركز على الحفاظ على الوضع القائم كما هو ومنع محاولات انتهاك تضامن الجماعة والنظام التقليدي. هذه القيم هي: الامن الاسري والوطني، حماية التقاليد، النظام الاجتماعي، التضحية والايثار، الطاعة، واحترام الذات. كل هذه القيم صاغها (شوارتس (Schwartz 1997 تحت مفهوم القيم المحافظة conservatism)).

في الاتجاه الاخر توجد ثقافات يتمتع فيها الافراد بالاستقلالية النسبية، بالرغم من انهم مرتبطون بالجماعة والتي تجد لها معنى في تفردها. وتسعى لتعبر عن طبائعها الداخلية (رغباتها، خصائصها، أحاسيسها ودوافعها). هنا من المهم ملاحظة، انه عندما تتغلب القيم الاستقلالية على تلك المحافظة لا يأخذ الناس الارتباط المتبادل داخل الجماعة كشيء مسلم به، بل يجب أن يكون محل اتفاق.

إن القيم عندما تعبر عن هذا المفهوم بالنسبة للفرد فأنه يمكن تسميتها قيم استقلالية (autonomy Value.) يمكن لهذه القيم أن تكون افكارا ورؤى الاستقلالية الذهنية intellectual values)) أو قد تكون عواطف واحاسيس الاستقلالية الانفعالية (Reactive autonomy) وتعكس الاستقلالية الذهنية القيم التي توجه للحفاظ على

استقلالية الافكار وحق الافراد في اظهار الحب والابداع والتسامح، بينما تعتمد الاستقلالية الانفعالية على القيم التي تدعم الاستقلالية الفردية وحق الفرد في الحصول على تجربة انفعالية ايجابية، وحياة متنوعة،

المسالة الثانية التي يمكن أن نجدها في كل مجتمع، هي كيف أن المجتمع يلزم اعضائه بتنسيق افعالهم، واحترام حق الاخر. هناك اسلوبان اساسيان لحل هذه المسالة. الأسلوب الأول هو استخدام النظام التراتبي، (hierarchy) حسب ادوار الناس، أي اختلافهم وفقا للسلطة والتأثير. أن الناس يتطبعون بطائع المجتمع ويعاقبون أو يكافؤون عند تنفيذ هذه الادوار، التي تمثل واجبات اجتماعية. القبول بالنظام التراتبي، يضمن الخضوع للقوانين التي تحافظ على النظام الاجتماعي. هذه القيم يمكن أن نطلق عليها قيم التراتبية (. Values of hierarchy) ومن هذه القيم مثلا السلطة الاجتماعية, الثروة, التأثير, القدوة. تلك القيم تدعم قانونية التنظيم التراتبي للعقل الاجتماعي ومصادره.

الأسلوب الثاني لحل مشكلة السلوك الاجتماعي المسؤول، هو أسلوب متناقض – أن يضطر الافراد إلى الاعتراف بمصالحهم المشتركة، التي تخدم كأساس لتعاونهم. لذلك كثيرا ما تبرز، فكرة أن الاخرين من الناحية المبدئية يتساوون معي. الحل للمشكلة يعتمد على قيم المساواة (Egalitarianism). يمكن اعتبار قيم العدالة الاجتماعية، الحرية، المساواة، السلام العالمي، المسؤولية، التضحية، الشرف، تندرج في إطار ما يمكن أن نطلق عليه قيم المساواة.

يرى (شوارتز) أن الثقافات التي يكون فيها الفرد مستقلا، لا تعتبر علاقته بالآخرين معطى طبيعي، بل تبنى اجتماعيا. في هذه الثقافات تطمح المؤسسات الاجتماعية أن تطبع اعضاءها اجتماعيا، بطابعها وذلك بان يتشربوا قيم المساواة، بحيث يستحق النظر إلى الاخرين بأنهم ذات امكانيات متساوية.

في الثقافات التي لا تعتبر فيها الانا الفردية مستقلة وموجودة ارادياً، هذه القيم ليست من اهتمام التنشئة الاجتماعية، لان الاندماج مع الاخرين في نفس الجماعة يرتبط بشكل طبيعي برعايتها لهم.

المسالة الثالثة التي توجد في كل مجتمع ترتبط بالعلاقة بين الانسان ومحيطه الاجتماعي الطبيعي. اننا يجب أن نتكيف مع العالم وان نتقبله كما هو وان نحافظ على النظام الموجود فيه. وهذا الامر يجد تعبيره في القيم كوحدة مع الطبيعة

والجمال للحفاظ على البيئة، ولهذا السبب سماها شوارتس قيم الاتساق Values of harmony)) تغيير العالم بما يتفق مع الارادة الانسانية والسيطرة المستمرة على معالمه. أن العالم هو موضوع استغلال حسب مصالح الافراد والجماعات. أن هذا الامر من العلاقة المتبادلة بين الانسان ومحيطه الطبيعي يعتمد على قيم الاستقلالية، النجاح، الاستقامة، الطموح، الشجاعة وتسمى مجازا بقيم القيادة Mastery.) أو قيم الاستاذية

وهكذا توجد سبع مجموعات من القيم التي تختص بها كل ثقافة: -1المحافظة، -2الاستقلالية الذهنية -3الاستقلالية الانفعالية -4التراتبية، -5المساواة، -6الاتساق -7القيادة. العلاقة بين هذه المجموعات تعكس التناقضات الاساسية التي على كل مجتمع أن يحلها: الاستقلالية مقابل المحافظة، التراتبية ضد المساواة، الاتساق ضد القيادة. وكل ثقافة تعطي أولوية لواحدة من هذه المجموعات. وتكون المجموعات المذكورة تشكل واقعا تكون فيه المقارنة بين قيم الثقافات المختلفة (البلدان) على اساس هذه القيم. تجدر الاشارة إلى انه توجد وحدة معينة في قيم التراتبية والقيادة تهدف إلى اثبات الذات من الناحية الفردية والاجتماعية. أن اثبات الذات تتطلب السيطرة على الوسائل التي تعتمد على قوة الشخصية ذاتها. الوحدة بين التراتبية والاتقان والمجموعتان تتطلبان السمو الذاتي-Self-transcend ence) للفرد، السيطرة على الوسائل المعتمدة على التوافق المجتمعي والوحدة مع الطبيعة.

مفهوم التغير الثقافي:

التغير الثقافي كما يرى عبد الغني عماد، هو عبارة عن "التحول الذي يتناول كل التغيرات التي تحدث في أي فرع من فروع الثقافة، بما في ذلك الفنون والعلوم والفلسفة والتكنيك، كما يشمل صور وقوانين التغير الاجتماعي نفسه، كما يشمل فوق كل ذلك كل التغيرات التي تحدث في أشكال وقواعد النظام الاجتماعي. والتغير الثقافي مثل أي تغير اجتماعي – رغم أن التغير الاجتماعي يعتبر جزءا من التغير الثقافي – ينجم عن عوامل كثيرة اهمها الاختراع والاكتشاف وادخال التكنولوجيا واي تغير مادي أو اجتماعي. لكننا في هذه الدراسة نقصد التغير الذي يحدث في ثقافة المجتمع"(13).

يرتبط مفهوم التغير الثقافي بمفهوم آخر هو (التعجيل الثقافي) وهو يعني زيادة معدل التغير الثقافي فأوجبرن يفترض أن التراكم يرجع إلى صفتين في العملية الثقافية: أحدهما ثبات الأشكال الثقافية والأخرى إضافة أشكال جديدة. ويعرف (دوسلير) التغير الثقافي إنه: "تحول أو انقطاع عن الإجراءات المجربة والمختبرة والمنقولة عن ثقافة الماضي مع إدخال إجراءات جديدة، ويمس الاعتقاد والأذواق الخاصة بالمأكل والمشرب والملبس والتقاليد والفن والأخلاق والتكنولوجيا هذا بالإضافة إلى التغيرات التي تحدث في بنيان المجتمع ووظائفه"(14).

إن التغير الثقافي يعد عملية انتقائية، حيث أنه عندما يواجه أعضاء المجتمع تقاليد أو عناصر ثقافية أو إجراءات فإنما يتقبلون تلك التي يتصورون أنها مفيدة وتتلاءم مع قيمهم وهي مرغوبة اجتماعياً. وكذلك نجد أن التغير الثقافي يتضمن مجموعة من المفاهيم التي تحل عليه ومنها التثاقف، والتفكك، والانحراف، والتطور، والتغير التدريجي، والإبداع، والتكامل، والنقل، وإعادة الإحياء، وإعادة التفسير. فاذا نظرنا إلى التثاقف وجدناه يعني عملية التغير من خلال الاتصال الثقافي الكامل، أي اتصال بين ثقافتين يؤدي إلى زيادة أوجه التشابه بينهما في معظم الميادين الثقافية، ويتضمن هذا المصطلح أيضا عملية الاستعارة الثقافية، وكذلك يشير مصطلح التجديد إلى العملية التي تؤدي إلى قبول عنصر ثقافي جديد وهي صورة من صور التغير الثقافي أيضا.

وتجدر الإشارة إلى أن التغير الثقافي أعم وأشمل من التغير الاجتماعي الذي يشير إلى التحولات على النظم الاجتماعية والوظائف التي تضطلع بها. ولكن ليست جميع التغيرات الثقافية هي تغيرات اجتماعية، بينما العكس هو جائز. فكل ما هو تغير اجتماعي يعد تغيراً ثقافياً، وليست جميع التغيرات الثقافية تقع في دائرة التغير الاجتماعي، على الرغم من أنها قد تتراكم وتصبح مع الوقت سبباً أو علة للتغيّر"(15).

ان تطور تكنولوجيا الاتصال في الوقت الراهن قد ادي إلى اشتداد الصراع بين القديم والجديد في الثقافة، ولان عملية التحديث تعني ادخال التكنولوجيا وبالتأكيد فان هذه العملية يصاحبها تغير اجتماعي وثقافي، بل يرى علماء الاجتماع أن العامل التكنولوجي هو العامل الاكثر أهمية في احداث التغير الاجتماعي، ويرى بعضهم أن الحضارة والثقافة سيان، أو هما شيئا واحدا. " آلات + رموز، أي ما

يفعله الانسان بيده وما يفكر فيه ويتخيله، بل أن بعض العلماء توصل إلى أن تاريخ الحضارة هو تاريخ الطاقة والسيطرة عليها والاستفادة منها. من الصعب أن نجد تغيراً تكنولوجيا لم يحدث أن نتج عنه بعض تغيرات اجتماعية"(16).

تبنى وليم (أوغبرن وونمكوف)(17) هذا الاتجاه، وصاغ فيه الأول نظرية عن " الهوة الثقافية" أو التخلف الثقافي يؤكد فيها أن التغير في الجانب المادي للثقافة يسبق دائما وأبدا التغير في الجانب اللامادي، ما ينتج عنه " الهوة الثقافية" ، وهي الفترة الزمنية التي تقع بين المرحلة الأولى التي يتم فيها التقدم التكنولوجي، وإلى أن ينتقل إلى المرحلة الثانية التي يتم فيها التغير الاجتماعي. هذه الفترة تتسم ببعض المظاهر التي من بينها الاضطراب والصراع. وهذه الفجوة، أو الهوة، قد تأخذ وقتاً طويلاً حتى " تردم" أو تتكامل عملية التغير في جوانبه المتعددة. ويرى أوغبرن أسباب تخلف اللامادي عن الماديات في عملية التغير بما يلي:

أ- الميل إلى المحافظة على القيم

ب- الجهل بحقيقة التجديد والاختراع وعدم معرفة طريقة استخدامه ما يؤدي إلى رفضه.

ج- النزعة المحافظة لدى كبار السن وإستاتيكية العادات والتقاليد.

هذه العقبات تقف بقوة أمام التغير اللامادي، في حين أن الماديات لا تعترضها مثل هذه العقبات، لذلك يتأخر التغير في الجانب اللامادي مدة من الزمن، قد تطول أو تقصر تبعاً للمؤثرات التي يتركها في المظاهر الاجتماعية. أذن فالتغير الثقافي اللامادي لا يحدث مباشرة مع التغير الاجتماعي المادي. انه يتأخر لفترة من الزمن، لأنه يتعلق بتغير الافكار والمواقف والرؤى. مثلا مع أن الثورة الصناعية قد بدأت في امريكا منذ القرن التاسع عشر ميلادي، الا أن التميز العنصري ضد الملونين وحرية المرأة لم تبدأ الا في النصف الثاني من القرن العشرين. ووصل أول اسود إلى الرئاسة في امريكا 2008 ولم تصل حتى الان المرأة إلى سدة الحكم في الولايات المتحدة الامريكية. أي يتعلق الامر بمستوى التغير في ثقافة الشعوب لكي تطبق القيم الثقافية المرتبطة بالثورة الصناعية وتكنولوجيا الاتصالات.

الحداثة ونسق القيم الأوربي:

تتشكل الثقافة الأوربية من عدد من الثقافات المتداخلة لدول القارة. ويتفق

اغلب الباحثين أن الثقافة الأوربية تقوم على مصدرين: هما الحضارة اليونانية – الرومانية والديانة المسيحية. ويرى جاك ديلو "ان الهوية الأوربية تقوم على ابعاد ثلاثة: الديانة المسيحية، القانون الروماني والنزعة الانسانية في الفلسفة اليونانية"(18).

"ينقسم إرث الهويّة الثقافية في أوروبا إلى أوروبا الغربية ذات الخلفية الثقافية الكاثوليكية -البروتستانتية والتي يعود مهدها إلى اليونان ثم قويت وانتشرت على يد الرومان، وبعدها أعيدت صياغتها وطورت خلال عصر النهضة والإصلاح البروتستانتي وعصر الأنوار في القرن الخامس عشر، وفي النهاية نشرت عالميًا عقب عصر الاستكشاف والثورة الصناعية على يد الإمبراطوريات الاستعمارية والتي نشرت ثقافة ونمط حياة الأوروبيين خلال فترة القرن السادس عشر والقرن العشرين؛ في حين أن جذور إرث الهويّة الثقافية في أوروبا الشرقية تعود إلى تراث وإرث الإمبراطورية البيزنطية وحضارة الكنيسة الأرثوذكسية الشرقية وثقافة الأمم السلافية إلى جانب الإرث العثماني الإسلامي في دول البلقان"(19).

يرى المفكر الألماني (بيتر سنجلهاس) إن القيم الأوربية الغربية التي نعرفها اليوم كانت مجهولة بل ومرفوضة. وان القيم التقليدية المحافظة وأحيانا "المتطرفة هي السائدة". كانت المجتمعات الأوربية في مرحلة ما قبل الحداثة (pre – modern societies) حتى القرن التاسع عشر " متجذرة بالضبط في القيم التعاونية المستندة إلى الطبقات والملكية". هذه القيم هي التي يراها الغرب اليوم معادية له في مكان اخر من العالم، أي في بلدان الشرق النامية. ويرى أن هذه القيم التي يراها الغرب انها قيم اسيوية " هي ببساطة القيم المثالية للمجتمعات التقليدية، ويمكن وصفها في وقت ما بالإندونيسية والسوابية والاناضولية واليابانية والبنجابية. الخ.

وكانت قيم مثل الحرية وكرامة الانسان والمساواة وحقوق الانسان تعتبر فكرة غير مقبولة في أوربا القرون الوسطى. اليوم تتضمن القوانين ومواثيق حقوق الانسان هذه القيم، وتعتبر قيم ذات طابع انساني في مجملها، رغم ما قد تثيره من خلاف حول بعض التفسيرات لحقوق الانسان في الوقت الراهن"(20).

كما أن الفرد المجرد (بمعنى آخر، الفرد بغضِّ النظر عن الطبقة والجنس والعرق والعمر، والذكاء، إلخ...، وهو غير موجود في الحياة الحقيقية)، باعتباره مفهوماً قانونياً لم يكن معروفا، ولم يتطوَّر إلا بعد النقاشات والنزاعات السياسية والدستورية العديدة التي وصلت إلى خلاصة النظام القانوني الحديث. وأن

المساواة الجنسية أمام القانون لم تكن موجودة قط حتى كفكرة مجرَّدة، ناهيك عن الوضع الحقيقي. ويؤكد سينغلهاس أن الحريات الدينية كحق اساسي كانت مرفوضة من قبل الكنيسة الكاثوليكية وحتى من قبل المذاهب الاصلاحية واعتبرت قيمة التسامح انها " قد تحول العالم ضد المسيحية" وأنها " ام الفظائع"(21)

إن تفكُّك المسيحية إلى مذاهب أدَّى إلى حروب مذهبية، وتطرف ديني، أو ما يطلق عليها حرب المائة عام بين البروتستانت والكاثوليك، ولم يكن التطرف فقط من قبل القوى الدينية المضادة الكاثوليك، بل حتى من قبل القوى الاصلاحية "التي اسست كيانات سياسية ثيوقراطية عديمة التسامح، حيث اعتنقت الكالفينية فكانت اشبه بنظام طالبان" كما تأسست مثل هذه الكيانات في المستعمرات الانجليزية في أميركا الشمالية من قبل اناس فروا من الاضطهاد الديني نتيجة التعصب المسلح.

أن الأقليات -الهراطقة والوثنيين واليهود (من دون الحاجة إلى ذكر المسلمين) - حسب ما يرى سينغلهاس - أن النساء المعتبرات ساحرات- لم تكن تملك الحق في التساهل أو الرحمة، وإنَّ الرقابة والأبوية الروحيَّة كانتا جزءاً من الروتين اليومي، كما لم تكن حرية العلم -كما نعرفها اليوم -موجودة آنذاك.

إن الأخلاق والمزايا والواجبات والعادات الراسخة في المجموعات كانت آنذاك ذات مهمة لتوجيه الناس في طريق محددة سلفاً، بشكل كبير ومعْرفة اجتماعيا كمبادئ أخلاقية موازية، لأنَّ مجموعة المبادئ الأخلاقية المستندة إلى الفرد المستقل ذاتياً كانت مجهولة وقتئذٍ، أو بالأحرى، كانت تُرفض وتُقاتل حيثما طُلِبَت ومتى طُلِبَت. كما "إنَّ فكرة الفرد الحديثة -بوصفها موضوعاً مستقلاً بذاته، مقابل المبدأ الأوروبي القديم القائم على مفهوم الإنسان الذي يجب أن يُدمَج في نظام راعٍ عام، باعتباره كائناً أخلاقياً أساساً-جسَّدت تغيراً مؤثِّراً في أوروبا، تغيراً جسَّد ثورة ثقافية أثبتت حتميتها في عمليات الصحوة فيما يتعلَّق بالتحديث والتغيير الاجتماعي"(22).

إن مصطلح الحداثة ارتبط بالتطور العلمي والتكنولوجي والفلسفي والثورة الصناعية في أوربا الغربية وهو يشير إلى مرحلة تاريخية طويلة نسبيا، بدأت في أوروبا الغربية منذ أواخر القرن السادس عشر وتميزت في القرن السابع عشر بسلسلة من التغيّرات الكبيرة والعميقة الثقافية والاجتماعية والاقتصادية، وشملت

بشكل متداخل ومتفاعل عمليا مجالات البحث والمعرفة العلميين والتطبيق التكنولوجي وأشكال ومؤسسات الحكم السياسية والمدنية والتشريعية والقانون والمعاملات التجارية، وذلك في إطار عمليات بناء الدول القومية وتزايد سلطاتها مع تزايد مساحات الحرية والمسؤولية الفردية أيضا.

الحداثة مصطلح أوربي يعبر عن عملية تاريخية شهدتها أوربا الغربية منذ أواخر القرن السادس عشر، حدثت فيها تغيرات عميقة علمية واقتصادية وفلسفية وتكنولوجية وتكون النظم المؤسسية القانونية والتشريعية والمدنية للدولة القومية مع اشاعة الحريات العامة وزيادة حقوق الفرد. ويرى دكتور عبدالله تركماني(23) إن الحداثة "هي تطبيق منهجية عامة للتحليل وطريقة في التفكير" وأن عصر الانوار في أوربا قد أكد "على أولوية الإنسان ودعم استقلاله وإرادته، ورفعه إلى مستوى يكون فيه مرجع سلوكه، والقاعدة المعيارية لممارسته الاجتماعية". لقد كان عصر التنوير يقوم على العقلانية باعتبارها البحث المستمر في المعايير التي تقاس بها صحة الاستراتيجيات التي تصوغها الجماعات أو تسعى إلى صياغتها من أجل إحراز التقدم ومسايرة التاريخ، وتحسين مردودية الجهد الإنساني ورفع فعاليته .

2 -التاريخانية، أي أن الحداثة قامت على معقولية التحوّل، وأفضت إلى تصور حركي للمجتمع، يحدد مراحلا لنموه وتطوره، وهو نمو يخضع لمعيار التقدم.

3 -الحرية، كأرضية تعيّن شرعية السلطة، وتؤكد حق الإنسان في تقرير شؤونه المدنية، دون إكراه أو قيد.

4 -العلمانية، أي فصل السلطة السياسية عن المؤسسة الدينية، وفي مقابل ذلك الانطلاق من الإنسان كمفهوم مرجعي للممارسة النظرية والسلوك الأخلاقي والسياسي. وهي تجد مرتعها الخصب في إطار من الديمقراطية، التي تمارس عقلانيا وتنويريا، وذلك على نحو تغدو فيه الديمقراطية والعقلانية والتنوير أحد أوجه العلمانية وصيغة من صيغ التحفيز عليها. وعندما تطرح العلمانية، بمعنى عدم تدخل الدولة في الشؤون الدينية لمواطنيها وبحيث تكون المواطنة هي أساس العلاقة بين الدولة والمواطن، فإنها أقرب لأن تكون مفهوما سياسيا، يشكل ضمانة أكيدة للمساواة ولتلاحم المجتمع، حيث تكون العلاقة بالوطن والدولة علاقة سياسية وليست علاقة دينية قد تحد من المساواة السياسية بين أصحاب الديانات المختلفة.

ويعرض الدكتور هشام غصيب في كتابه "من فلسفة الثورة إلى علم الثورة"(24) إلى دور فلسفة وعقيدة التنوير في نقل المجتمع الأوروبي من المجتمع الزراعي الإقطاعي البدائي محدود الأفق، إلى المجتمع الصناعي الرأسمالي المتطور اللانهائي الأفق، وهو الانتقال الذي احتاج إلى أكثر من أربعة قرون على الأقل من المعاناة على جميع الأصعدة، فقد استلزم ثلاثة أنماط من الثورات الجذرية:

-1الثورات السياسية البورجوازية التي حققت كثيرا من المهمات الديموقراطية لمجتمعات أوروبا الغربية (الثورة الهولندية مطلع القرن السابع عشر، الثورة الإنجليزية (1641م –1688م)، الثورة الفرنسية الكبرى (1789م1815-م وغيرها من الثورات.

-2الثورات الثقافية الكبرى (النهضة الأوروبية والإصلاح الديني في القرن السادس عشر والثورة العلمية الكبرى في القرن السابع عشر، والثورة الفلسفية التنويرية في القرن السابع عشر والثامن عشر.

-3الثورات الاقتصادية وما صاحبها من توسع جغرافي سواء في أوروبا أو خارجها خاصة الثورة الصناعية في أوروبا التي جاءت ابتداء من القرن الثامن عشر.

لقد قامت الحداثة في أوربا الغربية على افكار ديكارت وكانط وهيغل وهكذا كان عصر التنوير في القرن الثامن عشر هو بداية عصر الحداثة الأوربية. أن عصر التنوير قد اسس للحداثة القائمة على أربعة محددات: هي: -1 العقلانية: باعتبارها طريقة تفكير منطقية وعلمية، تتجاوز الخرافات والتفكير اللاعقلاني في عصر سلطة الكنيسة. 2 والتاريخانية أي حركة المجتمع العقلانية وفقا لمعيار التقدم الاجتماعي. 3 -والحريات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والدينية، باعتبار الانسان ولد حرا وله الحق في تقرير شؤونه، 4 -والعلمانية والتي تعني فصل الدين عن الدولة بحيث يمكن للعلاقة بين الدولة والمواطن أن تكون علاقة سياسية، وعدم استخدام السلطة للدين لتحقيق اغراض سياسية، كما أن ذلك من شانه عدم اقحام رجال الدين في شؤون السلطة.

وفيما يلي نماذج من قيم الحداثة الأوربية:

- الفردانية، أي أن الفرد هو محور الاهتمام ومصالحه مقدمة على مصالح الجماعة. وهذا نتاج تطور الغرب في سياق تاريخي أنتج الفردانية في نهاية المطاف. كانت المجتمعات الأوروبية القديمة -ما قبل الحداثوية (pre-modern societies)،

الـتي وجـدت حـتى القـرن التاسـع عـشر، وجزئيـاً إلى القـرن العشرين-متجـذرةً بالضبـط في تلـك القيـم التعاونية-الجماعيـة المسـتندة إلى الطبقـات والملكيـة، الـتي تُعتـبر في الوقـت الحـاضر معاديـة للغـرب في مـكان آخـر. والقيـم الـتي تُنـشر اليـوم باعتبارهـا "قيمـاً آسـيوية"، هـي ببسـاطة القيـم المثاليـة للمجتمعـات التقليديـة.

التأكيـد عـلى أن جميـع البـشر مولـودو ن احـرارا ومتسـاوون فيمـا يتعلـق بالكرامـة والحقـوق، وهـذا مبـدأ متضمـن في كل اعلانـات حقـوق الإنسـان الأساسـية.

النـاس متسـاوون بغـض النظـر عـن الطبقـة والجنـس والعـرق والعمـر، والـذكاء، الديـن والمذهـب والموقـع الاجتماعـي.

إنَّ الحريـة الدينيـة، بوصفهـا حقـاً أساسـياً، كانـت مجهولـة لوقـت طويـل، وتحوَّلـت إلى قضيـة خلافيَّـة، لتُرفَـض، لاحقـاً، بعنـفٍ حـتى مـن قبـل المذاهـب الإصلاحيـة. ولـم يحـدث أن قبلـت الكنيسـة الكاثوليكيـة (في المجمـع الفاتيـكاني الثـاني) هـذا الحـق الأسـاسي، الا في وقـت متأخـر مـن القـرن العشريـن.

قيـم التسـامح الديـني: اعتبـار الديـن تجربـة بشريـة قابلـة للتجـاوز ضمـن مـا تتجـاوزه الحداثـة، وإلغـاء سـلطته مـن خـلال علمنـة المجتمـع.

العقلانية والتفكير العقلاني

التحديث والقيم في أوربا الشرقية

بلغاريا نموذجا

سـبق الـكلام أن التطـور التاريخـي في أوربـا الغربيـة قـد جـرى في سـياق تاريخـي مختلـف عـن سـياق التطـور الاجتماعـي في أوربـا الشرقية. وتشـكلت في ضوء هـذا التطور هويتـان: إرث الهويّـة الثقافيـة في أوروبـا الغربيـة ذات الخلفيـة الثقافيـة الكاثوليكيـة -البروتسـتانتية والـتي يعـود مهدهـا إلى اليونـان ثـم قويـت وانتـشرت عـلى يـد الرومـان، وبعدهـا أعيـد صياغتهـا وطـورت خـلال عـصر النهضـة والإصـلاح البروتسـتانتي وعـصر الأنـوار في القـرن الثامـن عـشر، وفي النهايـة نـشرت عالميًـا عقـب عـصر الاستكشـاف والثـورة الصناعيـة عـلى يـد الإمبراطوريـات الاسـتعمارية والـتي نـشرت ثقافـة ونمـط حيـاة الأوروبيـين خـلال فـترة القـرن السـادس عـشر والقـرن العشريـن.

في حـين تعـود جـذور إرث الهويّـة الثقافيـة في أوروبـا الشرقيـة إلى تـراث وإرث الإمبراطوريـة البيزنطيـة وحضـارة الكنيسـة الأرثوذكسـية الشرقيـة وثقافـة الأمـم السـلافية إلى جانـب الإرث العثمـاني الإسـلامي في دول البلقـان"(25)

. ومن خلال هذا الانقسام في الاسس الثقافية التي قامت عليها أوربا، يتضح أن الثقافة الأوربية الشرقية قائمة على المحافظة والجماعية التي تتصف بها الثقافات الشرقية. وعلى الرغم من عمليات الانتقال التي تجري منذ تسعينيات القرن الماضي في دول أوربا الشرقية التي كانت ضمن الكتلة الشيوعية التي سقطت في الاعوام 1989 – 1990م باتجاه الليبرالية الأوربية الغربية، الا أن التحول باتجاه النسق القيمي الأوربي القائم على الفردانية مازال مجرد اتجاه لم يتبلور بعد، على نحو ما سنتطرق اليه في دراسة الحداثة والتيار المحافظ في الثقافة البلغارية المعاصرة.

جمهورية بلغاريا دولة تقع في شرق أوربا لها حدود مع اليونان وتركيا ومقدونيا ورومانيا. قامت فيها في 9سبتمبر 1944 ثورة ضد الفاشية، ثم سلكت طريق الاشتراكية، وكانت جزء من المنظومة الشيوعية العالمية، حققت قفزات اقتصادية بعد أن كانت دولة متخلفة، سكانها 8 مليون نسمة وكانت تشتهر بالزراعة، وحققت تطورا متوسطا في مجال الصناعة. في 10 نوفمبر 1989م سقط النظام الاشتراكي في عهد الرئيس تيودور جيفكوف كما سقطت المنظومة الاشتراكية التي كان يقودها الاتحاد السوفيتي السابق. حيث سادت فترة من الصدمة حتى العام 2000كانت الفوضى والسرقات والفساد وعمل المافيات وسرقة القطاع العام هي السائدة، تدهورت العملة وسادت حالات من الفقر، وبمساعدة من الاتحاد الأوربي واشتراط قوانين جديدة لتأهيل بلغاريا للدخول في الاتحاد الأوربي، الامر الذي أعاد التوازن لمؤسسات الدولة تدريجيا وبدا تطبيق القانون واعادة النظام وبدأ التغير يأخذ طريقه ببطء ولكن بثبات.

يمكن القول إن التغيرات القيمية تحققت في وقت واحد على المستويات الماكرو اجتماعي، والثقافي والفردي -الشخصي. وان التغيير في القيم على مستوى الماكرو اجتماعي من ناحية يرتبط بالفرد ومن ناحية اخرى يؤثر على قيمه. وتؤكد بوجينوفا(26) على حقيقة انه في بداية كل مرحلة انتقالية يكون تغير قيم الأفراد ليس دائما باتجاه التغييرات الاجتماعية ولا يمضي بنفس سرعة هذه التغيرات. أن سرعة واتجاه التغيير القيمي تعتمد وتتحقق بواسطة الجماعة الاجتماعية التي ينتمي اليها الفرد. أن الجماعات الاجتماعية المختلفة بطرق مختلفة تتقبل التغيرات القيمية الماكرو اجتماعية. البعض يتقبل التغيير في القيم بصورة سلبية،

ويحأولـون الحفـاظ عـلى المنظومـة القيميـة القديمـة. وتـرى أن الافـراد الذيـن ينتمـون إلى مثـل هـذه الجماعـات الاجتماعية يجسـدون الاتجـاه المحافـظ في المنظومـة القيمية. جماعـات اخـرى تتقبـل التغيـير وهـم الحامـل الاجتماعـي لـه وهـؤلاء يجسـدون الاتجاه التحديـثي للمنظومـة القيميـة.

الباحثـة البلغاريـة ك. بايتشينسـكا(27) تطـرح السـؤال حـول جوهر الاتجـاه التحديثي في الثقافـة البلغاريـة؟ , وهـي تـرى أن التغـيرات في الحيـاة الاجتماعيـة السياسـية _ تـدني حمايـة الدولـة للفـرد وارتفـاع أهميـة الحريـة الاقتصاديـة, وقيـام التعدديـة السياسـية ..الـخ – تقـود إلى الحـاح الاختيـار بـين قيمـتي الفرديـة / الجماعيـة. هـذا الاختيـار يصـف بصـورة كافيـة نمـط الاقتصـاد القديـم والجديـد -. الاشـتراكي واقتصـاد السـوق. يسـمح ذلـك بالنظـر إلى التغـيرات الاجتماعيـة كتوجـه بلغاريـا كتجربـة لتغيـير الاتجـاه القيمـي الاسـاسي للمجتمـع – مـن الجماعيـة إلى الفردانيـة (-from collectivism to individu alism) المقصـود التغيـير في المعايـير الاساسـية للمجتمـع بـدلا مـن أولويـة الجماعـة عـلى الفـرد تصبـح الأولويـة للفـرد. عـلى الجماعـة: أن تحديـث الثقافـة المعـاصرة هـو نتيجـة الجماعيـة والفرديـة / القديمـة والجديـدة.

"إن الفرديـة / الجماعيـة تسـتخدم اليـوم كمتغـير يسـمح بوصـف ليـس فقـط الثقافة بـل الفـرد أيضـا، هـذا المتغـير يسـتخدم كصفـة للفـرد أو توافقـه. لمـاذا؟ لان الثقافـة البلغاريـة المعـاصرة تصبـح القيمـة فـردي /جماعـي عنـصران أساسـيان في الثقافـة. لأنـه لا توجـد فقـط قيـم مختلفـة، وانمـا أيضـا متناقضـة .

إن الاهتمـام بمعرفـة التغـير في المنظومـة القيميـة ينصـب بدرجـة رئيسـية حـول مـدى تطابـق أو عـدم تطابـق النمـوذج الاجتماعـي الاقتصـادي والتوافـق القيمـي للفـرد. أن الانتقـال للمجتمـع البلغـاري يكمـن في المسـتوى الماكـرو اجتماعـي والفـردي ليـس كسـبب – نتيجـة، بـل تطـور مشـترك؟ مـن ناحيـة قيـم الثقافـة تؤثـر عـلى الفـرد، ومـن ناحيـة اخـرى الفـرد يؤثـر فيهـا. أن الاهتمـام مـن الدرجـة الأولى ينصـب عـلى العلاقـة التبادليـة بـين المثـل القيميـة الاجتماعيـة والشـخصية وهـو ذو جانبـين: الأول هـو تأثـير النمـوذج القيمـي الاجتماعـي عـلى النمـوذج القيمي للشـخص، تكيـف الفرد مـع التغيرات الاجتماعيـة ونموذجـه الاجتماعـي -السـياسي والاقتصـادي الجديـد. هـل تؤثـر التغـيرات الاجتماعيـة عـلى القيـم الفرديـة للنـاس وماهـي تلـك في هـذه اللحظـة؟ بكلمـات اخـرى ماهـي قيـم الفـرد البلغـاري وإلى أي مـدى تتوافـق هـي مـع التغـيرات الاقتصاديـة

والسياسية في الثقافة البلغارية المعاصرة؟ أن قيم البلغاري على المستوى الفردي ترتبط قبل كل شيء بالسؤال كيف استطاع البلغاري أن يحل الاختيار القيمي بين الفردية والجماعية (28)

وترى الباحثة، أن الجماعية والفردية تؤثر جديا على خصائص البنية المفهومية التراتبية للنظام القيمي على مستوى الفرد. وهكذا مثلا على المستوى الفردي التراتبية القيمية للأفراد نقيضة لتلك التراتبية القيمية للجماعة. الافراد يطمحون إلى علاقات اجتماعية تراتبية وانهم مستعدون للسلوك المغامر، في حين أن الجماعات يطمحون إلى علاقات اجتماعية أفقية أو متساوية والمحافظة على الحالة القائمة. (بايتشينسكا 1996, 1998م.) طبيعي أن الاشارة إلى أن كل من الفردية والجماعية لديهما نسبيا قيم متعارضة ليس فقط على المستوى الفردي، بل على المستوى الثقافي – بكلام اخر يمكن أن يكون لديهم ليس فقط مثل قيمية مختلفة بل ومتعارضة أيضا.

بالإشارة إلى البحوث التي اجريت تبين أن التغيرات في النظام القيمي للبلغاري تعكس تقوية التوجه إلى الفردانية، هذا يعني أن الطموح للنجاح، الحرية والثروة، والاعتزاز بالنفس يتزايد على حساب التعاون، العدالة التقاليد والنظام. أن تقوية التوجه نحو الفردانية للأفراد يعبر عن وينمي الموقف الايجابي من المغامرة نحو التغيير، فيما يقل تدريجيا الحماس للعلاقات الاجتماعية المتساوية، ويتزايد الطموح نحو العلاقات الاجتماعية التراتبية. وقد توصلت الباحثة بايتشينسكا إلى استنتاجات مهمة نلخصها فيما يلي:

تتساءل عن العلاقة المتبادلة بين نموذج القيم الشخصي والثقافي الذي يعود إلى خصائص الحامل للاتجاه التحديثي في القيم الثقافية المعاصرة. إذا يمكن القول أن المستوى الماكرو لنموذج القيم الثقافية الأوربي أو حتى الامريكي يلبي الطموح فهل توجد ارضية خصبة له عندنا؟ - أي في بلغاريا-هل يوجد اناس يتحمسون له ليس فقط كأفكار جذابة بل يرون فيها تطابقا مع نظامهم القيمي الوطني؟(29) هذا السؤال ذات أهمية أولية لان تطور الثقافة يعتمد على الذوات التي سوف تغيرها. لا يوجد تطور للثقافة خارج أو بعيدا عن الذوات الذين يحققونها ويطورونها. ومن هنا السؤال من هي الذات الاجتماعية القادرة على تحقيق التغير الاجتماعي في بلغاريا؟ أي من هو الذي يمكن أن يعمل على تحديث

القيـم في الثقافـة البلغاريـة المعـاصرة؟ الذيـن ينجـزون تحـول المنظومـة القيميـة هـم اشـخاص لديهـم توافـق قيمـي فـرداني نموذجهـم الثقـافي سـوف يكـون قريبـا مـن النمـوذج الغـربي الأوربي. وعـلى العكـس فـان حامـل الاتجـاه المحافـظ هـم اشـخاص ذوي توافـق جماعـي، (collective) نموذجهـم المثـالي هـو أقـرب إلى أوربـا الشرقيـة.

عنـد الفردانيـين القيـم المحافظـة لهـا نفـس أهميـة قيـم الاسـتقلالية. وبـكلام اخـر الفردانيـة مازالـت غائبـة عـن تصوراتهـا للقيمـة الحاكمـة في علاقـة الفـرد بالمجتمـع. هـذا يعـني أن الفردانيـة مازالـت لـم تتبلـور بعـد كاتجـاه قيمـي. أن النمـط الثقـافي للجماعيـة يقـترب مـن نمـط أوربـا الشرقيـة، بينمـا النمـط الثقـافي للفردانيـة يقـترب مـن النمـط الأوربي الغـربي.

ان النمـط القيمـي الثقـافي للفردانيـة يتناقـض نسـبيا مـع نمـط الجماعيـة -المسـاواة Egalitarian liberalism الليبراليـة، ضـد المسـاواة التقليديـة Egalitarian conservatism

ان قيـم القيـادة تركـز عـلى التقـدم مـن خـلال اثبـات الـذات، مـن خـلال تغيـير الوسـط الطبيعـي والاجتماعـي (هنـا تدخـل القيـم كطمـوح، قـادر عـلى اختيـار اهـداف خاصـة، تـم التفكـير فيهـا بصـورة مسـتقلة وناجحـة). وتعتـبر هـذه القيـم ذات أهميـة كبـيرة لتحقيـق التغـير الاجتماعـي.

مناقشة دراسة بايتشينسكا:

لقـد حاولنـا أن نوجـز دراسـة سوسـيولوجية مهمـة حـول تغـيرات القيـم واتجاهاتهـا للباحثـة بايتشينسـكا، وعـلى ضـوء مـا تقـدم، يمكـن لنـا الخـروج بالملاحظـات التاليـة:

• إن الباحثـة قـد أسسـت بحثهـا عـلى فرضيـة الفردانيـة الـتي تتصـف بهـا الثقافـة في أوربـا الغربيـة هـي طريـق التحديـث للمجتمـع البلغـاري، وان القيـم السـائدة في بلغاريـا هـي قيـم الاتجـاه المحافـظ المعتمـد عـلى الجماعيـة الـتي مـيزت أوربـا الشرقيـة. يتفـق هـذا التأسـيس مـع اسـس الثقافيـة الأوربيـة القائمـة عـلى هويتـين: غربيـة قائمـة عـلى الارث الكاثوليـكي المسـيحي الرومـاني، والبروتسـتانتي عـلى الفلسـفة اليونانيـة، وشرقيـة قائمـة عـلى الحضـارة البيزنطيـة والأرثوذكسـية الشرقيـة، الثقافـة السـلافية وارث الامبراطوريـة العثمانيـة لاحقـا، كمـا أشرنـا في بدايـة هـذه الدراسـة.

• إن معيـار تغـير القيـم وتحديـد اتجـاه التغيـير لـدى الباحثـة هـو العلاقة بـين الفرد والمجتمـع، وهـذه العلاقـة تتحـدد اي مـن قطـبي الرحـى – الفـرد والجماعـة – مقـدم

عـلى الاخـر. في القيـم الثقافيـة الغربيـة يكـون الفـرد محـور المجتمـع ومقـدم عـلى الجماعـة، وهـذه هـي قيـم التحديـث الأوربيـة الغربيـة، والجماعـة محـور المجتمـع أو مقدمـة عـلى الفـرد، وهـذه هـي قيـم الاتجـاه المحافـظ الـذي تتسـم بـه الثقافـة في أوربـا الشرقيـة. وقـد حاولـت الدراسـة إثبـات أن المجتمـع البلغـاري يغـير قيمـه باتجـاه الفردانيـة، جنبـا إلى جنـب مـع وجـود الجماعيـة الـتي اتسـمت بهـا أوربـا الشرقيـة. ومـع ذلـك لـم تصـل الباحثـة إلى نتيجـة حاسـمة في تأكيـد أحـد اتجاهـي القيـم في المجتمـع قيـد الدراسـة. فهـي تؤكـد، بـان القيـم المحافظـة عنـد الفردانيـين لهـا نفـس أهميـة قيـم الاسـتقلالية. وبـكلام اخـر "الفردانيـة مازالـت غائبـة عـن تصوراتهـا للقيمـة الحاكمة في علاقـة الفـرد بالمجتمـع. هـذا يعكـس الاتجـاه الديناميـكي في نموذجهـم الثقـافي - مـن النمـوذج المعتمـد عـلى تصـور الفـرد المنضـوي في جماعـة , إلى النمـوذج المرتكـز عـلى الفـرد المسـتقل."(30)

إن الباحثـة تـرى أن شرائـح اجتماعيـة بعينهـا تكـون هـي الحامـل الاجتماعـي لاتجـاه التحديـث في القيـم وان هنـاك شرائـح اجتماعيـة محافظـة تريـد الابقـاء عـلى الوضـع كمـا هـو أو انهـا تعـارض التغيـير. مـن قـوى التحديـث كمـا تـرى الباحثـة رجـال الاعمـال والعاطلـين عـن العمـل، ومـن قـوى المحافظـة معلمـي وطـلاب المـدارس الروحيـة حسـب نمـاذج العينـات الـتي اختارتهـا. بينمـا طـلاب الدراسـات العليـا لـم يحـددوا موقفـا مـع الجماعيـة أو الفرديـة.

يتبـين مـن البحـث انـه لا توجـد حـدود فاصـل صارمـة أو فاصلـة بـين التحديـث والاتجـاه المحافـظ في القيـم. فالتحديثيـون هـم الذيـن يبـدون اهتمامـا اكـبر لقيـم بعينهـا تدعـم الاسـتقلالية مـن المجموعـات السـبع حسـب نظريـة شـولتز, واهتمامـا اقـل بقيـم اخـرى تدعـم الجماعيـة. والعكـس يهتـم المحافظـون بصـورة أكـبر بالقيـم الـتي تدعـم مصالـح وموقـف الجماعـة، واهتمـام اقـل بالاسـتقلالية الفردانيـة.

مـن المهـم جـدا التأكيـد عـلى أن فكـرة التحديـث في هـذا البحـث نقيضـة للمحافظة، بـل تـرى الباحثـة انهـا عمليـة انتقـال للمجتمـع مـن المنظومـة القيميـة المحافظـة إلى منظومـة قيـم التحديـث، "يعتقـد أن التغـيرات في الحيـاة الاجتماعيـة السياسـية _ زيـادة حمايـة الدولـة للفـرد وارتفـاع أهميـة الحريـة الاقتصاديـة، وقيـام التعدديـة السياسـية ..الـخ – تقـود إلى الحـاح الاختيـار بـين قيمـتي الفرديـة / الجماعيـة. هـذا الاختيـار يصـف بصـورة كافيـة نمـط الاقتصـاد القديـم والجديـد -. الاشـتراكي واقتصـاد

السوق. يسمح ذلك بالنظر إلى التغيرات الاجتماعية كتجربة بلغاريا لتغيير الاتجاه القيمي الاساسي للمجتمع – من الجماعية إلى الفردانية (from collectivism to individualism) المقصود التغيير في المعايير الاساسية للمجتمع بدلا من أولوية الجماعة على الفرد تصبح الأولوية للفرد".

تؤكد الدراسة على أهمية الدور الذي تقوم به القيم الاجتماعية ومنظومة القيم المركزية في تطور المجتمع وحفظ توازنه. ففي الفترة التي سقط فيها النظام الشيوعي سادت حالة التخبط والفوضى وانعدام الضمير بل وفقدان التوازن. فأصبح دور الدولة ضعيفا، والقانون غائب، فأصبح المريض يترك ليموت إذا لم يكن لدى المريض نقود، على عكس النظام الاشتراكي الذي كان يوفر العلاج المجاني لجميع المواطنين، وعلى عكس النظام الأوربي الغربي الذي يوفر للمواطنين ضمانا اجتماعيا يساعده على العيش حتى يجد عملا.

وبناءا على ما سبق يمكننا القول أن عمليات تغير النظم القيمية ترتبط -حسب طروحات الدراسة المذكورة-بدور الفرد داخل الجماعة – إلى أي درجة هو مستقل عن الجماعة نسبيا، أو مندمجا فيها. من هنا تطل علينا فكرة الفردانية والجماعية، والمصطلحان يعبران عن الاتجاهين الحداثي والمحافظ في منظومة القيم الثقافية. والواقع أن تغير النظام الاجتماعي في بلغاريا بعد العام 1989م قد ادى إلى تلاشي منظومة القيم السياسية التي ترافقت مع النظام الشيوعي لأكثر من اربعة عقود 1948 – 1989م، فقد كان النظام الاجتماعي قائم على الملكية العامة والغاء الملكية الخاصة وكل ما يرتبط بها من قيم. وعند سقوط النظام الشيوعي كان على المجتمع أن يجتاز مرحلة من الضياع القيمي، انتشرت فيها الجريمة وعمل المافيات والسرقة والفساد، حتى استعاد النظام الاجتماعي تدريجيا استقراره بمساعدة الاتحاد الأوربي وبدا التغير نحو النظام الرأسمالي القائم على الملكية الخاصة، ولان التغير الثقافي بطيئا ولا يسير بنفس سرعة التغير الاقتصادي فان النظام القيمي البلغاري يتغير تدريجيا، دون الجزم بان يؤدي هذا التغير إلى التحول نحو الفردانية في وقت قريب. عملية التغير نحو الفردانية في أوربا الغربية اخذت مدى زمنيا واسعا، وسياق تاريخي من الحروب التي استمرت لأكثر من مائة وثلاثين عاما ادت إلى القضاء على البنى الاجتماعية ما قبل الدولة، ووضعت الفرد وجها لوجه امام الدولة، أي إن علاقة الفرد اصبحت مباشرة أمام الدولة،

وأصبحت وظيفة الفرد هي الحفاظ على الفرد وحمايته وتطوير مبادراته وحفظ حقوقه.

يتبع في العدد القادم

الهوامش:

1) "اليابان وتحديات القرن الواحد والعشرين" تقرير لجنة الخبراء التابعة لرئيس وزراء اليابان، "كتيب طبع ونشر في ابو ظبي 2001

2) نيكولاي، جينوف. " كتاب علم الاجتماع، التطور الاقليمي والدولي" الطبعة الثالثة، صوفيا, 1998م بالغة البلغارية ص 22

3) اليابان وتحديات القرن 21 مرجع مذكور ص 5

4) بايتشينسكا، كراسيميرا" الاتجاه الحداثي والمحافظ في قيم الثقافة البلغارية المعاصرة" مجلة قضايا سوسيولوجية. العدد 3 – 4 2002 اصدار معهد السيسيولوجيا، صوفيا ص 122 - 149 (باللغة البلغارية)

5) القحطاني، مسفر بن علي " القيم في مرحلة ما بعد الحداثة، قيم العمل اليابانية نموذجا" 2014 نشرت في موقع، www.alkhaleej.ae/portal/ze

6) اميل دوركايم. التربية والمجتمع" ترجمة علي اسعد وطفة. دار الينابيع. 1994 دمشق. ص 32

7) اميل دور كايم, التربية والمجتمع" مذكور ص 36

8) ماكس فيبر "الاخلاق البروتستانتية وروح الرأسمالية" 1905م ورد في عبدالله التركماني "الحداثة في الوطن العربي" ورقة قدمت في الندوة التي اشرفت عليها مؤسسة الشجرة للذاكرة الفلسطينية, بالمركز الثقافي بمخيم اليرموك دمشق للفترة من 6 – 9 ديسمبر 2004 ضمن محور معوقات الثقافة. www.educationuv.blogsbol.com

9) ماكس فيبر "الاخلاق البروتستانتية وروح الرأسمالية" في التركماني " الحداثة في الوطن العربي" مذكور

10) بارسونز. ت 1902 – 1979م. "بنية الفعل الاجتماعي 1937-"نقلا عن عبدالله التركماني "الحداثة في الوطن العربي" مذكور.

11) بارسونز "بنية الفعل الاجتماعي" 1937 جامعة هارفارد مذكور

12) شوارتس, ف. "الثقافات وتراتبية القيم" دراسة ميدانية للقيم الاجتماعية في عدة دول . نقلا عن دراسة بايتشينسكا, كراسيميرا, "التحديث والاتجاه المحافظ في قيم الثقافة

البلغارية المعاصرة " مذكور2002 ص -123 125
13) انظر, عماد عبدالغني, " سوسيولوجيا الثقافة. المفاهيم والاشكالات من الحداثة إلى العولمة" مركز دراسات الوحدة العربية, بيروت 2009.
14) عماد عبدالغني, " سوسيولوجيا الثقافة, المفاهيم والاشكالات, مذكو ر ص154
15) سلام حلاب, "بعض ملامح التغير الاجتماعي الثقافي في الوطن العربي" في موقع www.neelwafurat.com
16) عماد عبدالغني "سوسيولوجيا الثقافة. المفاهيم والاشكالات" مذكور ص 31
17) أوغبرن وومنكوف" عمليات التغير الاجتماعي" نقلا عن عماد عبدالغني " سوسيولوجيا الثقافة, المفاهيم والاشكالات, 2009مذكو ر ص 31
18) ويكيبيديا :ثقافة أوربية www.ar.m.wikipedia.org
19) ويكيبيديا, ثقافة أوربية مذكور
20) سنجلهاس, بيتر "الحداثة والحداثة المضادة, نحو خطاب واع تاريخيا" HEINRCH BOL FUNDTION, 2000 من 'موقع الحوار المتمدن, www.m.ahewar.org
21) سنجلهاس, بيتر" الحداثة والحداثة المضادة. نحو خطاب واع تاريخيا" مذكور ص 4
22) سنجلهاس, " الحداثة والحداثة المضادة نحو خطاب واع تاريخيا" مذكور ص 6
23) التركماني, عبدالله" ورقة قدمت الندوة التي اشرفت عليها مؤسسة الشجرة للذاكرة الفلسطينية في المركز الثقافي العربي للفترة 6- 9 ديسمبر2004بمخيم اليرموك دمشق
24) هشام غصيب "من فلسفة الثورة إلى علم الثورة" من موقع الحوار المتمدن www.m.ahewar.org 1/5/2011l
25) www.ar.wikipedia.org ويكيبيديا. الموسوعة الحرة. ثقافة أوربية
26) بوجينوفا واخرين " تحول القيم في بلغاريا في ظروف التغير الاجتماعي" مجلة البحوث السيكولوجية العدد3 ,2005ص36
27) بايتشينسكا, ك. " الاتجاه الحداثي والمحافظ في قيم الثقافة البلغارية المعاصرة" مذكور ص 124
28) بايتشسينكا, " الاتجاه الحداثي والمحافظ في قيم الثقافة البلغارية المعاصرة" مذكور نفس الصفحة
29) بايتشسينكا, " الاتجاه الحداثي والمحافظ في قيم الثقافة البلغارية المعاصرة" مذكور ص 136
30) بايتشينسكا, ك. الاتجاه الحداثي والمحافظ في قيم الثقافة البلغارية المعاصرة"

إشكاليات بناء وإدارة الدولة الحديثة في اليمن وسبل معالجتها

إعداد/ عبدالجبار عبدالله سعيد
كاتب وباحث في الاقتصاد السياسي والعلوم الانسانية

تتمحور فكرة هذه الدراسة البحثية حول الإشكاليات المعرفية والسياسية والقانونية لبناء وإدارة الدولة في اليمن وسبل معالجتها، هدفها توعية النخب السياسية والحزبية خاصة والمهتمين بالشأن السياسي عامة حول ماهية الإشكاليات والمعالجات المنشودة لحلها.

وتكمن أهمية الدراسة في كونها تساعد على بناء القدرات المعرفية السياسية لدى المثقفين والسياسيين والمختصين المهتمين بكيفية بناء وإدارة الدولة الحديثة المنشودة بالارتباط عمليا بالواقع الملموس لليمن.

اعتمد الباحث في الدراسة المراجع والمصادر المتوفرة في العلوم السياسية عن الدولة، ومنهج الاستقراء المقارن بين النظرية والتجربة السياسية العالمية والأوضاع الراهنة للواقع الموضوعي لإشكاليات الدولة، واصفاً ما تواجهه فكرة وواقع بناء الدولة المنشودة من تحديات وممانعة شديدة وقوية من القوي السياسية التقليدية في اليمن، وفشل توافق الأحزاب والنخب السياسية اليمنية للعمل على بناء الدولة المدنية الحديثة كما صاغتها توافقيا نظريا نتائج مؤتمر

الحـوار الوطـني الشـامل (2014م)، وقبلهـا وثيقـة العهـد والاتفـاق (1994)، بـل والدخـول في حـرب تدميريـة داخليـة مسـتمرة قديمـا، وحديثـاً منـذ 2015م، كامتـداد وتكـرار للحـروب والصراعـات العنيفـة والتدخـلات الخارجيـة في شـؤون اليمـن، لكبـح تطلعـات الشـعب اليمـني في التحـرر والجمهوريـة والوحـدة والديمقراطيـة والتغيـير والتطـور والتقـدم الشـامل، وذلـك مـا قـاد إلى هشاشـة وفشـل وتفـكك الدولـة اليمنيـة القائمـة بشـكل لا يحقـق السـيادة الكاملـة والمواطنـة المتسـاوية والنظـام والقانـون والمؤسسـية والمشروعيـة الديمقراطيـة والتنميـة العادلـة والشـاملة والمسـتدامة.

ومـن الدواعـي البـارزة لدراسـة المشـكلة الشـاخصة أيضـا، هـي الاختلافـات والتنـوع الكبـير الحاصـل معرفيـا وسياسـيا وقانونيـا، لدي مختلـف القـوى الاجتماعية والسياسـية والمدنيـة الحداثيـة، حـول الدولـة الحديثـة وكيفيـة بنائهـا وإدارتهـا وإشـكالياتها الموضوعيـة والذاتيـة والمعالجـات المطلوبـة لحلهـا، بـل وممانعـة القـوى التقليديـة وفشـلها في بنـاء الدولـة، وعـدم اسـتيعاب الـدروس المُـرَّةِ للحـروب والصراعـات الكارثية الدائـرة في اليمـن حـول ضرورة وموضوعيـة الحاجـة للاسـتقرار وبنـاء الدولـة المدنيـة الحديثـة الضامنـة للمواطنـة والعدالـة والتنميـة، وبالاسـتفادة مـن الفكـر الإنسـاني والتجـارب العالميـة الناجحـة في هـذا المضمـار.

وبتركـيز مختـصر تحتـوي مـادة الدراسـة عـلى: المفاهيـم الأساسـية والإشـكاليات لبنـاء وإدارة الدولـة المدنيـة الحديثـة في اليمـن وسـبل معالجتهـا.

مفاهيم بناء وإدارة الدولة المدنية الحديثة

قبـل البحـث في الإشـكاليات الكليـة للدولـة المدنيـة الحديثـة في اليمـن خاصـة عـلى ضـوء مـا هـو موجـود عالميـا وفي المنطقـة العربيـة، سـأوجز المفاهيـم المفتاحيـة-المعرفيـة، المرتبطـة بموضـوع الدراسـة:

- الدولـة الحديثـة: كيـان وجـودي واسـع ومتكامـل ديمغرافيـا وسياسـيا وتنظيميـا - قانونيـا متفقـا عليـه _ لمجموعـة مـن السـكان، يعشـون ويمارسـون أنشـطتهم ضمـن نطـاق إقليـم جغـرافي محـدد، وتحكمهـم سـلطة سياسـية تمـارس السـيادة الفعليـة عـبر منظومـة متكاملـة مـن المؤسسـات الحكوميـة الدائمـة، ويعـترف بهـذا الكيـان الناظـم والموحـد للحيـاة الجماعيـة للمجتمـع داخليـا وخارجيـا كوحـدة سياسـية فعليـة وشرعيـة، ويحتكـر الحـق والسـلاح والقـوة ومـا يترتـب عنهمـا مـن حـرب وسـلم وصداقة

وعـداوة، ويقـوم وفقـاً لتنظيـم قانـوني دسـتوري كعقـد اجتماعـي سـاري المفعـول بـين الحـكام والمحكومـين، كأسـاس لشرعيـه الحقـوق والواجبـات للمواطنـين ولوظائـف مؤسسـات الدولـة.(1)

- الحداثـة: تتصـل بالتغيـير والتجديـد لمـا هـو قديـم وسـائد في العصـور القديمـة والوسـطى في أوروبـا، والانتقـال إلى حالـة متقدمـة مـن التطـور كمرحلـة تاريخيـة ترمـز إلى العـصر الحديـث بسـماته الفكريـة العلمانيـة والعقلانيـة والصناعيـة الانتاجيـة والسياسـية: الحريـة والديمقراطيـة والتعاقديـة الدسـتورية، الـتي بـدأت مـع اتفاقيـة وسـتفاليا - ألمانيـا 1648م.

- بنـاء الدولـة الحديثـة: " تقويـة المؤسسـات القائمـة وبنـاء مؤسسـات جديـدة فاعلـة وقـادرة عـلى البقـاء والاكتفـاء الـذاتي وتحقيـق الأمـن والاسـتقرار الداخـلي والعالمـي والتحـول الديمقراطـي وتحقيـق التنميـة(2)، وتوجـه لإعـادة تصميـم وهندسـة وترقيـة قـدرات وإمكانـات الدولـة لأداء وظائفهـا السياسـية والاقتصاديـة والاجتماعيـة والثقافيـة، وبنـاء النظـام السـياسي للحكـم (polity) عـلى قاعـدة الشرعيـة الدسـتورية والديمقراطيـة، وبنـاء وصيانـة مؤسسـات سـيادية كهيـاكل تنظيميـة وبنيـة تحتيـة ومنشـآت مرفقيـة وتقويـة القـدرات والإمكانـات الماديـة والفنيـة والتأهيليـة للقـوى البشريـة لقيـادة عمليـة التحـول الديموقراطـي والتنميـة الشـاملة والمتوازنـة والعادلـة بالاسـتجابة لحاجـات الفـرد والمجتمـع في الاسـتقرار والتطـور حـاضرا ومسـتقبلا، إضافـة إلى التحـرر مـن التبعيـة وصياغـة دسـتور تعاقـدي.

- كيفيـة البنـاء للدولـة الحديثـة: عمليـة إجرائيـة مركبـة ومتكاملـة ومسـتمرة للتطويرات والتغـيرات المسـتهدفة في التنظيـم الدسـتوري والقانـوني، وتسـويغ وتطبيـع النظـام السـياسي الديمقراطـي والحريـات والحقـوق وفي هيـاكل ووظائـف السـلطات والهيئـات والمؤسسـات السياسـية المختلفـة للدولـة وقدراتهـا الماديـة والفنيـة والبشريـة، وتتخـذ الوسـائل والأسـاليب المناسـبة كخطـوات محـددة للبنـاء، لـ"تـدل عـلى مسـار سـياسي بالدرجـة الأولى في المضامـين والأهـداف والقـوى والسـياقات الاقتصاديـة والثقافيـة والحضاريـة التاريخيـة للدولـة والمجتمـع".(3)

- إدارة الدولـة الحديثـة: النظـام الإداري لجهـاز الدولـة ممثـلا بالسـلطة التنفيذيـة الحكوميـة، وتظهـر الدولـة في الإدارة كأداة لممارسـة السياسـة(politics) المتعلقـة بالعمليـات السياسـية التنفيذيـة(4) في المجتمـع الحديـث، لتقـدم خدمـات ومنافـع

محـددة في الشـأن العـام: اجتماعـي مـدني، عسـكري، أمـني... الـخ.

- الإدارة العامة - الحكومية للدولة الحديثة: حقل أو مجال فن تنظيم الاستثمار والاستخدام الأمثل والمستدام للموارد المتاحة وتوجيهها لتحقيق السياسة العامة (policy) عبر أجهزة ومؤسسات الدولة المختلفة بكفاءة وفاعلية لتحسين جودة (نوعية) منتجها وزيادة كميتها وتقليص كلفتها وبأسرع زمن ممكن(5)،لتحقق رضا الجمهور المستفيد والمستهلك للسلع والخدمات والمنافع.

- الإشكالية (Problematic): معضلة تحتاج إلى أكثر من حل كقضية مركبة عامة، تبحث في عدد من التساؤلات كقضية كلية وتتسع لعدة أو مجموعة مشاكل: شاملة وواسعة ومعقدة ويندرج تحتها عددا من المشكلات والتساؤلات وتسبب جدلا واسعا، أما المشكلة(Problems) فهي قضية وصعوبة أو عائق غير مفهوم بحاجة إلى حل، كقضية نسبية جزئية من الإشكالية تنطوي على التباسات يمكن البحث عن حلول لها، وتعد أقل شمولا في السؤال والجواب.

والإشكالات المستهدفة هنا (سبع)، تتداخل فهماً وممارسةً كبناء وإعادة بناء وإدارة للدولة في دول المنطقة العربية واليمن كجزء منها، وتُعدُّ الأكثر جدلا وتعقيدا والتباسا في أبعادها المعرفية الفكرية والممارسة السياسية والقانونية الدستورية عند التيارات الفكرية السياسية المختلفة ونخبها الحزبية: الاشتراكية والقومية والليبرالية والاسلامية في الماضي والحاضر الأمر الذي يتطلب الاهتمام بترقية وتجذير وعي وثقافة مشروع بناء الدولة الوطنية الحديثة وإدارتها عمليا، والتفريق العملي بين الدولة والسلطة السياسية والنظام السياسي، وبينها والمجتمع المدني.

الإشكالية الأولى: نقص الوعي واختلاف الثقافة المعرفية والسياسية بالحاجة الموضوعية لبناء الدولة الحديثة

هذه الإشكالية المعرفية تعكس بعمق ووضوح الجهل المركب: تعليميا وثقافيا وفكريا بمستوياته لجموع الناس والنخب في المجتمع، وتبرز في الاختلاف والتباين الحاصل في المفاهيم للتعاليم والأسس المعرفية السياسية والممارسة العملية لدي نخب المثقفين والسياسيين وأحزابهم وتياراتهم الفكرية المختلفة والمتنوعة، على مر الأزمنة والمراحل، وهي تتداخل عمليا مع المواقف السياسية والقانونية حول أسس وقواعد بناء الدولة الحديثة وإدارتها، باختلاف المشارب والمدارس

الفكريـة واغترابهـا وبعدهـا عـن الواقـع المعـاش، خاصـة لـدى النخـب المثقفـة والسياسـية و" انعـدام الثقـة بـين القـوي المعارضـة (المتعارضـة) المفككـة والضعيفـة حـول فهـم الدولـة الحديثـة(6)، وممانعـة ورفـض القـوى التقليديـة عمليـا بنـاء الدولـة الحديثـة.

وعـادة مـا يكـون رفـض فكـرة الدولـة الحديثـة بصيـغ عديـدة غـير جديـر بمنطـق، كالمبالغـة في الوطنيـة والخصوصيـة، والتعصـب القومـي المعـادي لـكل مـا هـو خارجـي فكريـاً، وحـدة الأطروحـات الدينيـة التراثيـة الماضويـة لدولـة دينيـة للخلافـة أو ولايـة إماميـه. ومـن المآخـذ الـتي تنظـر إليهـا التيـارات الفكريـة السياسـية وبالـذات الدينيـة والقوميـة إلى أن فكـرة الدولـة الوطنيـة الحديثـة دخيلـة وخارجيـة، وارتبـط ظهورهـا بمرحلـة الاسـتعمار الأوروبي والتحـرر الوطـني، حينمـا حـدث عبـور للمفاهيم السياسـية الوافـدة وتوطينهـا في المجتمعـات العربيـة واليمـن وبالـذات في جنـوب اليمـن.(7)

ونجـد التناقـض الفـج في ممارسـة القـوى القديمـة، كونهـا تمانـع وتعـادي الأسـاس الفكـري التنويـري والتحـرري العقـلي والعلمـي الـذي أوجـد بُـنى الحداثـة ودولتهـا بـكل خصائصهـا، وتمسـكها وممارسـتها الثقافيـة والسياسـية لمـا هـو تقليـدي: متخلّـف ورجعـي ولاهـوتي وعصبـوي، بدواعـي المحافظـة والوصوليـة والعراقـة، والحيلولـة دون الاندمـاج والـولاء الاجتماعـي الوطـني المشـترك للهويـة الوطنيـة الجامعـة مـن جانـب، في ظـل قبولهـا تعاطيهـا بأريحيـه تامـة بسـيادة الاسـتيراد والاسـتخدام لـكل المنتجـات الماديـة الصناعيـة والتكنولوجيـة والعلميـة ووسـائل العيـش والخدمـات المسـتهلكة والمعمـرة، الـتي أحدثتهـا الدولـة الحديثـة في مواطنهـا، بـل وعملهـا للتوسـع وانتشـار المـدن كعمـران وتجمـع سـكاني، ويُحمـل إليهـا كل مـا يسـود مـن نزعـات تقليديـه للقريـة والباديـة مـن جانـب آخـر، وهـو مـا تحـرص عليـه القـوى القديمـة ودول الجـوار الإقليمـي وقـوى الرأسـمالية الإمبرياليـة المتوحشـة والمعولمـة، لتبقـى الدولـة الوطنيـة اليمنيـة المنشـودة ضمـن نطـاق تمحورهـا وقطيـع تابـع لهـا وكسـوق واقتصـاد اسـتهلاكية طفيليـه تحوليـا وخدماتيـا ومصـدرا لمـوارد الطاقـة فقـط.

وعـززت القطبيـة الثنائيـة سـابقا والأحاديـة حاليـاً التعصـب الفكـري لرفـض أو عـدم قبـول فكـرة بنـاء الدولـة الحديثـة، بالضـد مـن طبيعـة عالميـة الفكـر، الـذي لا يعـرف الانغـلاق والحـدود للأوطـان، بـل ويجـافي منطـق الاسـتفادة مـن التجربـة الإنسـانية في بنـاء هـذه الدولـة وتوطينهـا ضمـن واقـع الـدول الوطنيـة، كضمانـة للمواطنـة

المتساوية والتحديث السياسي المستقر والتطور الاقتصادي المنتج، وعدم اليقين بالحاجة الموضوعية للدولة الحديثة لتحقيق الاستقرار والسلام والديمقراطية والتنمية الشاملة والمستدامة، لتخطي حالة التخلف الاقتصادي والاجتماعي والثقافي وربط فكرة الثورة ببناء الدولة، إضافة إلى التعنُّت في الاعتراف بالنجاح المحسوب لتجربة بناء الدولة الوطنية في الجنوب سابقا لجوانب كثيرة كحفظ السيادة الوطنية وتحسين واستقرار حياة الناس التعليمة الخدماتية والمعيشة، رغم المآخذ على بعض الممارسات والصراعات الداخلية.

ورغم الانتشار المبكر منذ (قرن إلا ربع من الزمن) للأفكار التحررية والطموحات المستقبلية لبناء الدولة الوطنية ذات النظام الجمهوري القائم على تجسيد إرادة الشعب من التيارات الفكرية الحداثية: الليبرالية والاشتراكية والقومية، لم تنضج ولم تنجح القوي السياسية الحداثية لإنجاز مشروع سياسي برنامجي ودستوري لبناء نموج الدولة المدينة الحديثة، لانتشار الأمية التعلمية المجتمعية وضعف الثقافة والإرادة السياسية لديها في التعامل مع الواقع الكلي والاختلاف والتباين المتعدد والمتنوع داخلها وبينيا حول بناء الدولة الحديثة في اليمن من جهة، وشدة ممانعة القوي التقليدية المسيطرة على مفاصل الدولة من جهة أخرى، ورغم تتالي تجارب الحوارات والتوافقات الوطنية نظريا حول أسس بناء الدولة الوطنية المدنية الحديثة، وأبرزها وثيقة العهد والإنفاق 1994م ونتائج مؤتمر الحوار الوطني الشامل 2014م، بل عملت القوى الاجتماعية والسياسية الحاكمة في اليمن بالغلبة والقوة لإشعال الحروب المتكررة ضد تلك الوثائق النظرية، لتحول وتمنع بناء الدولة وكبح خيارات الشعب اليمني، في بناء دولة بأسس ومميزات وطنيه جمهورية وحدوية ديمقراطية مدنية، وهو ما يرمي بظلاله السلبية والتدميرية على الأمن والاستقرار والسيادة والإبقاء على ملامح الدولة القديمة في جوهرها وممارستها، رغم القبول شكليا ببعض ملامح الحداثة في البناء والإدارة للدولة، وإن بهشاشه كما تبينه النتائج الكارثية للحرب الدائرة منذ عام 2015.

فبناء الدولة المدنية بحاجه إلى ثورة ونهضة معرفية فكرية وتعليمية وثقافية تبدأ بتغيير وترقية الوعي والخطاب والثقافة السياسية لدي النخب والقيادات السياسية والمجتمعية لتواكب الواقع والعصر والعلم.

الإشكالية الثانية: تفكك كيان الدولة الموحد وعدم استقراره كوحدة سياسية ثابتة

تميزت الدولة الحديثة التي نشأت في عهد الثورة البرجوازية والصناعية بخاصية ثبات واستقرار واضح للطابع والمركز الديموغرافي، وتبلور وحدات سياسية للعيش والعمل المشترك لمجموعة السكان علي جغرافية معينة محددة لفترة طويلة من الزمن، مع الاستمرارية لبنيان الدولة كمؤسسات سيادية وطنية موحدة ودائمة ومستقرة ومتطورة (الجيش والإدارة والتعليم والسوق .. الخ) على أرض وسكان الدولة بمعزل عن أشخاص الحكام وتغيرهم، وتجسيدا للولاء الوطني والهوية المشتركة والمصلحة العامة. وذلك بعكس الدول القديمة التي سبقتها في أوروبا، وسادت مراحل العبودية والإقطاعية، وغير المستقرة والواضحة في المكان الإقليمي، حيث استوعبت فقط وحدات سياسية صغيرة غير موحدة كليا، مع غياب الديمومة للدولة ومؤسساتها، بل واختفائها أو انقطاعها حال تغير الحكام، لشخصنة الدولة وسلطاتها وارتباطها بالولاء والمصلحة لشخص الحاكم والمسؤول أو عائلته أو قبيلته، بل وتم الحكم غير مباشرة للرعايا عبر وسطاء أقوياء يتمتعون بالاستقلالية أُعطوا مطالب السلطة المركزية وحققوا أرباحا لحسابهم الخاص باستغلال تفويض سلطات المركز لهم بذلك.(8)

والدولة الحديثة ككيان سياسي ترسخ تدريجيا في المجتمع الحديث " كحقيقة سياسية غير ثابتة ونهائية تظل إشكالية سياسية معاصرة، لأن المجتمع الدولي وخارطته السياسية يتكون من كيانات... دول كوحدات سياسية ليست ثابتة ونهائية مع تغير الزمن والاعتبارات السياسية، التي تلعب دورا حاسما في نشأة واختفاء الدول"(9)، كما حدث عقب الحربين العالمتين الأولى والثانية وايضا بعد انتهاء الحرب الباردة، عندما نشأت دول بالقوة عن طريق الحرب أو التفكيك والانقسام والانفصال السلمي، أو بالوحدة والاندماج الطوعي، وتأسيسا على مبدأ حق الشعوب في تقرير المصير، والاعتراف بحق كل شعب في إقامة دولته المستقلة، فإن الدول القائمة قابلة لهذين الاحتمالين.

وتتضح هذه الإشكالية بجلاء من خلال ما يميز الدولة اليمنية في حالتها الراهنة كواقع حي، فقد توحدت اليمن سياسيا سلميا في دولة موحدة اندماجية عام1990م (الجمهورية اليمنية) بين دولتي الشمال (الجمهورية العربية اليمنية) والجنوب

(جمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية)، إلا أنها تعرضت لأزمة مركبة وانتكاسة كارثية انتهت بحرب عدوانية ادخلت الدولة اليمنية ووحدتها في إشكالية سياسية حقيقة، إذ أن عدم إحداث وإنجاز التحول التوحيدي الديمقراطي السلمي في بناء دولة موحدة مدنية حديثة تحقق مصالح وطموحات الشعب اليمني، قاد إلى بروز وتطور سياسي للقضية الجنوبية منذ 2007م، كتعبير لواقع حال غير سوي آل إليه الجنوب خاصة واليمن عامة، والمطالبة بحق تقرير المصير كقضية سياسية بامتياز، وتزايد النزعة والتوجه نحو الانفصال أو فك الارتباط بين دولتي الشمال والجنوب، والمطالبة باستعادة الدولة الجنوبية، وحتى الشمالية، وهذا يمثل إشكالية معقدة قائمة بسبب ممانعة القوى التقليدية ومراكزها العصبوية لبناء الدولة الوطنية الاتحادية كشكل ومضمون للدولة الحديثة وللوحدة(10) ولصعوبة الوضع المتسم بالحروب المختلفة والعدوانية المتكررة منذ 1994م والحرب القائمة منذ 2014، فقد ظهرت بوضوح مهددات الوحدة الوطنية ولليمن عامة.

هذه الاعاقات الإشكالية تعكس فشل وتحجر العقلية الحاكمة للبنية السياسية والاجتماعية المسيطرة على الدولة الفاشلة، المعتمدة على الأزمات وتفجير الحروب والصراعات كأساس لاستمرار سيطرتها، وفرض الوحدة بالقوة والغلبة والالحاق والإقصاء، والتمييز في المواطنة واللا مساواة في توزيع السلطة والثروة والخدمات، ومركزية الحكم والإدارة، وتبقى الإشكالية مزمنة لتفكيك الدولة والتجزئة الوطنية مجددا، مفسحة المجال للمشاريع العنصرية والصغيرة (القزمة) والارتدادية الماضوية التشطيرية والجهوية، وهو يخدم بوعي وإرادة أو دونهما المخططات الخارجية لدول الإقليم الهادفة إلى تمزيق الكيان الموحد لليمن، على غرار عصبيات متخلفة دينية طائفية وعرقية وجهوية دون الوطنية والمواطنة المتساوية.

ولما كانت الحروب والصرعات الدامية الداخلية والمدعومة أو المدفوعة خارجيا والمتكررة والمستمرة بشكل أو بأخر منذ قيام الثورة اليمنية حتى الآن واحدة من أبرز الأسباب المهددة لتأسيس كيان الدولة الوطنية الحديثة والوحدة السلمية الديمقراطية، ولانعدام الاستقرار العام في حياة المجتمع، خدمة لاستمرار القوي التقليدية بتحالفها وتزاوجاتها: القبلية- العشائرية المشيخية والاصولية الطائفية الدينية وحضورهما العسكري والسياسي في مؤسسات الدولة، والخاسر من ذلك

هـو الشـعب وقـوى الحداثـة والتنميـة، وإن اتخـذ أوجـه وأغطيـة سياسـية حزبيـة وإيديولوجيـة مذهبيـة دينيـة وأشـكال مسـلحة عسـكرية و (مليشـاويه)، وهـو مـا يهـدد بقـوة اسـتقرار الدولـة ويقـود لا محالـة إلى تفككهـا وانهيارهـا.

والحـرب التدميريـة الدائـرة رحاهـا منـذ 2015م تعكـس جليـاً التفـكك والانهيـار وحالـة السـيطرة دون السـيادة الكاملـة والفعليـة للدولـة، والـتي تتنازعهـا سـيطرة سـلطة مراكـز القـوى السياسـية والعسـكرية المتصارعـة كسـلطات أمـر واقـع عـلى الخارطـة الجغرافيـة والإداريـة لليمـن، تتـوزع بـين: تحالـف الانقـلاب الحـوثي في صنعـاء ومـا حولهـا ومكونـات الشرعيـة في محافظـات وسـط اليمـن وفي الجنـوب الحـراك ممثـلا بالمجلـس الانتقـالي والتحالـف العـربي: السـعودية والإمـارات.

وفي الوقـت الـذي تتخـذ الحـرب والـنزاع المسـلح بـين القـوى السياسـية العسـكرية المتصارعـة في المناطـق اليمنيـة طابـع شـمولي متنـوع (اليافطـات) والعناويـن كحـرب داخليـة، فإنهـا تتخـذ أيضـا طابـع حـرب خارجيـة عدوانيـة، حولـت اليمـن إلى سـاحة حـرب بالوكالـة للنزاعـات الإقليميـة بـين دول التحالـف العـربي وبالـذات السـعودية والإمـارات العربيـة مـن جهـة وإيـران وحلفائهـا مـن جهـة أخـري، ومـن خلفهمـا القـوة واللاعبـين الدوليـين الكبـار أمريـكا وبريطانيـا مـن جهـة وحـتى روسـيا والصـين إلى حـد معـين مـن جهـة أخـرى.

والنتيجـة هـي عـدم ثبـات واسـتقرار وسـلامة كيـان الدولـة الوطنيـة كوحـدة سياسـية في اليمـن كإشـكالية سياسـية وطنيـة ووحدويـة، تتنازعهـا في الواقـع داخليـا وخارجيـا ثقافـة وممارسـات العصبيـات المتداخلـة، وتحـول دون المواطنـة المتسـاوية والـولاء الوطـني والاندمـاج الاجتماعـي في إطـار الهويـة الوطنيـة المشـتركة والجامعـة، العابـرة للعصبيـات والـولاءات الضيقـة والصغـيرة لمـا قبـل الوطنيـة مـن قبليـة وطائفيـة وجهويـة وحـتى إيديولوجيـة سياسـية محكومـة بالنزعـات والتوجهـات الانفصاليـة والانقسـامية والاقصائيـة والتابعـة خارجيـا بشـكل سـافر الوجـود وخفـي الاعـتراف. ويمكـن حـل هـذه الإشـكالية بإحـلال السـلام والتصالـح العـادل والشـامل وتأمـين ديمومتـه وارسـاء حكـم اتحـادي تشـاركي منصـف وعـادل.

الإشكالية الثالثة : انتقاص وتآكل السيادة والاستقلال الوطني للدولة

تعـنى السـيادة في ظـل الدولـة الحديثـة، تمتـع سـلطة ومؤسسـات الدولـة المركزيـة

الموحـدة بالسـيطرة والإدارة عـلى كل أرض وسـكان الدولـة، وبهـذا تجسـد القـول الأعـلى والفصـل النهـائي في "امتـلاك القـرار الحاسـم والأعـلى في أي خـلاف سـياسي"(11) وهـي حـصرا مـن تحـدد الأعـداء والأصدقـاء وامتـلاك حـق الحـرب والسـلام وأدواتهـا، والدولـة هنـا سـلطة مطلقـة بـدون منـازع في مواجهـة شـؤون مواطنيهـا ورعاياهـا والدفـاع عنهـم داخليـا، ولا تخضـع لسـلطة أعـلى منهـا في المجتمـع الـدولي، والسـيادة بهـذا تأخـذ عـدة أبعـاد:

- قانـوني: سـلطات الدولـة هـي المخولـة بممارسـة السـيادة الدسـتورية والقانونيـة وإصـدار الأوامـر النهائيـة.

- سـياسي: حـق الشـعب باختيـار نظـام الحكـم الملائـم والاختيـار بإرادتـه الحـرة حكامـه لممارسـة السـلطة السياسـية كأسـاس للشرعيـة الشـعبية.

- فعـلي: خضـوع المواطنـون للسـلطة وتنفيـذ أوامرهـا كأمـر واقـع طوعـا أو بالقـوة، وهـي تنظـم العلاقـة بالمواطنـين داخليـا وبالإقليـم وخارجيـا بالـدول الأخـرى. وتظهـر إشـكالية السـيادة في واقـع كثـيرا مـن الـدول ومنهـا الدولـة اليمنيـة بعـدة أوجـه:

- في عالـم اليـوم المعولـم يصبـح المفهـوم المجـرد والنظـري للسـيادة المطلقـة منقوصـا ومقيـدا، فلـم يعـد هنـاك إمكانيـة كاملـة وواقعيـة للدولـة كوحـدة سياسـية مسـتقلة منفصلـة وقائمـة بذاتهـا منغلقـة عـن العالـم، في ظـل تداخـل وتشـابك وتعقد المصالـح والعلاقـات والارتباطـات والاحـلاف الدوليـة المعـاصرة، خاصـة للـدول الضعيفـة والفقـيرة، الـتي لا تمتلـك ركائـز القـوة السـيادية: الاقتصاديـة والتكنولوجيـة والسياسـية والعسـكرية، لـكي تحـد مـن التدخـل والعبـث المبـاشر وغـير المبـاشر في شـؤونها وأوضاعهـا وقرارهـا ونهـب ثرواتهـا وأراضيهـا، مـن الـدول الأخـرى والمنظمـات/ الاحـلاف الدوليـة المسـيطرة عليهـا مـن الـدول المتقدمـة، وفـرض التبعيـة والتمحـور وإن كان بدافـع الحاجـة والمصلحـة.

- غيـاب الاسـتقرار السـياسي والشرعيـة الديمقراطيـة القائمة عـلى التعددية والمشـاركة الشـعبية، لاسـتمرار وتكـرار الحـروب والنزاعـات المسـلحة منـذ قيـام الثـورة اليمنيـة 1962/1963 بأشـكال مختلفـة في كل شـطر عـلى حدة وبين الشـطرين، ثـم حرب 1994م ضـد الجنـوب، فحـروب صعـدة 2004-2010 والحـرب الجاريـة منـذ 2014م، بسـبب أزمـة النظـام والحكـم و (شـخصنة وتسـيس) مؤسسـات الدولـة العسـكرية والأمنيـة العدليـة وامتـلاك السـلاح مـن القبائـل والجماعـات والاحـزاب الدينيـة والعصبيـة

السياسية، وبقاء مشاريع تجارة الحروب مشرعة الأبواب لتعطيل وإعاقة الاستقرار وبناء الدولة المدنية الديمقراطية والتنمية الشاملة والعادلة، لتوجد مبرر للتدخل الخارجي، وهو ما يضعف وينتقص السيادة الفعلية القانونية والشرعية والسياسية للدولة.

هذا المفهوم في بعده الخارجي في ظل النظام العالمي- القطبي يأتي من تأكل مفهوم السيادة والأمة في النظام العالمي الجديد(12)، حيث تتزايد وتتنوع التدخلات الدولية في شؤون الدول الضعيفة المتسمة أوضاعها بالحروب والصراعات العنيفة وبزعزعة الأمن والاستقرار المحلي والإقليمي والدولي، وهو ما يبرر صيغة الحروب العالمية الجديدة ضد الإرهاب والنازية الجديدة وغيرها والتدخل وإذكاء واتساع واستمرار النزاعات الداخلية العنيفة وفقا لمبررات دينية وعرقية (سلالية - عنصرية) وقبلية وجهوية وأيديولوجية.

وتتنازع إشكالية السيادة الوطنية الداخلية والفعلية بالمعنى القانوني والسياسي وتتوزع بين سلطات وسيطرة الأمر الواقع كأطراف وواقع مفروض تعكس ووقائع الحرب القائمة من جهة، وأطراف التدخل والتواجد والعبث الخارجي من جهة أخرى، إضافة إلى وضع اليمن تحت الفصل السابع لميثاق الأمم المتحدة. فموقع اليمن وفعالية شعبه وثروته وإمكاناته تجعله تاريخيا وحاضرا عرضة للأطماع وتحت التأثير والاستقطاب والتدخل للدول المجاورة والإقليمية والعالمية، وهذا يلحق الضرر بحاضر ومستقبل الكيان السياسي السيادي للدولة الوطنية والمصالح الحيوية للشعب في الحفاظ على استقراره واستقلاله وحق استثمار ثروته وموقعه الاستراتيجي، وتحقيق السيادة والمكانة المستقلة في محيطه العربي والإقليمي والدولي بعيدا عن التبعية والارتهان والتمحور المضر بمصالح اليمن المختلفة، وألَّا تكون اليمن ساحة حرب ونزاع بالوكالة للدول والقوى المتصارعة على مصالحها ونفوذها إقليميا ودوليا.

الإشكالية الرابعة: فصل أو تحييد الدين عن السياسة والاستخدام السياسي للدين

تتخذ إشكالية العلاقة بين السياسي والديني في المجتمع المعاصر والدولة الحديثة أوجه معقدة ومركبة، أبرزها:

* الأول: ضرورة التمـيّز الواضـح للمجـال الخـاص بالديـني والسـياسي؛ فالديـني- الأخـلاقي يُمـيّز نوعيـا بـين الخـير والـشر، ومجالـه هـو السـلوك والقيـم الأخلاقيـة والروحيـة "مـلاذ روحـي للإنسـان" بحسـب ماركـس، أمـا السـياسي- الدولـتي فيُمـيّز نوعيـا بـين الصديـق والعـدو ... والعـدو هنـا معـه نـزاع موجـود موضوعيـا أو إمكانيـة حـدوث القتـال الواقعـي مقابـل جماعـة أخـرى، والعـدو العـام الـذي يقاتلنـا والعـدو الخـاص الـذي يكرهنـا، أي أن الحـرب تظهـر العـدو، أمـا الصديـق لابـد أن يكـون خـير ونافـع وجميـل.(13) والسياسـة مجالهـا الدولـة بسـلطاتها ووظائفهـا وخدماتهـا الحياديـة وهـو مـا تسـعى إليـه الأحـزاب أيضـا عبرهـا.

* الثـاني: وجاهـة فصـل السـياسي / الدولـتي العـام عـن المـدني الخاص، ومـبرر تحييد أو فصـل السياسـة عـن الديـن، نجـده في التميـيز بـين الدولـة (السـلطة السياسـية) والمجتمـع (المجتمـع المـدني) فالمسـائل الاجتماعيـة والدينيـة والثقافيـة، تعـبر عـن مصالحهـا التنظيمـات والجماعـات الاجتماعيـة المدنيـة، الـتي لا تخضـع للسـلطة السياسـية للدولـة، كونهـا مسـتقلة في تكوينهـا ووظائفهـا وأنشـطتها، والإشـكالية، هنـا لا بـد مـن التميـيز بـين الدولـة والمجتمـع وعـدم (دولنـة) الديـن والثقافـة والجماعـات المدنيـة ومنظمـات المجتمـع المـدني، الـتي لا تخضـع للدولـة وسـلطتها، ممـا يعـني عـدم المطابقـة بـين السـياسي والدولـتي.(14).

إن علاقـة الدولـة كظاهـرة سياسـية بالمجتمـع المـدني الحـضري ومـن خـلال السـلطة السياسـية يمـيز تاريخيـا الدولـة الحديثـة، الـتي فصلـت الديـني عـن السـياسي بفصـل السـلطة الدينيـة عـن السـلطة السياسـية الزمنيـة، كمـا فصلـت السـياسي العـام عـن المـدني الخـاص بعـد حـروب سياسـية طاحنـة بغطـاء ديـني بـين دول أوروبـا القديمـة دامـت لثلاثـة عقـود، ونشـأ عـلى إثرهـا النظـام الجديـد للدولـة. وبهـذا فالسياسـة والمسـالة الأساسـية فيهـا موجهـة نحـو السـلطة السياسـية في: كيفيـة الوصـول للسـلطة وممارسـة الحكـم والإدارة السياسـية العليـا وكيفيـة تداولهـا.

وتعـد إشـكالية السـياسي والديـني مـن أكـثر الإشـكاليات الحـاضرة سـجالا وتعقيـدا بـين التيـارات الفكريـة والسياسـية في دول الوطـن العـربي كافـة، بدعـاوى ومـبررات:

- النظـرة الدينيـة المقدسـة للدولـة والحاكـم تنطلـق مـن ادعـاء أن اللـه اصطفـى الحـكام للدولـة وأن مصدرهـا ربـاني، فيمـا النظـرة والفكـر السـياسي للدولـة والحـكام يقـوم عـلى أن الشـعب/ الأمـة هـي مصـدر السـلطة والحكـم.

- نظرية "الحق الإلهي" أو الشرعي للحكم في الواقع ما هي إلا تجسيد لنظرية القوة والغلبة (الحرب) في الحكم، وقيامها على العلاقة العصبية (الدم) والقبلية والعائلية والدينية والسلالية والطائفية المذهبية، فيما النظرية السياسية (العقد الاجتماعي أو التعاقدية الدستورية) تجعل الإرادة الحرة الجماعية للشعب والتداول السلمي للسلطة السياسية عبر الانتخابات الحرة والنزيهة هي الأساس والطريق إلى السلطة والحكم، وهو ما يجعل فصل السياسة وسلطتها الزمنية الدنيوية عن الدين وسلطته الدينية مثار جدل متواصل كإشكالية مركبة معرفية وسياسية وقانونية في آن واحد.

* الثالث: الاستخدام السياسي للدين يظهر بوضوح في التوظيف السياسي للدين من المؤسسة الدينية والاحزاب/الجماعات السياسية الدينية من خلال التنافس البرامجي وفي التأثير على الوعي والممارسة السياسية برفع شعارات من قبيل: "الاسلام هو الحل" ودولة "الخلافة" أو "الولاية" و"الاسلام دين الدولة" وإصدار الفتاوى الدينية للحروب والقتال في الأوطان وتكفير المفكرين وممارسة الإرهاب عنفا وقتلا من الجماعات الدينية، وتعيين السلطة للمفتين والدعاة والوعاظ، هذا خلط مضر بين الديني والسياسي، وتسيس الدين و (تديين) السياسة، ونجد عمق الإشكالية والصراع في إطاره المعرفي والواقع السياسي العربي حول الدولة جليا في علاقة الدولة بالإسلام السياسي والأحزاب الدينية على أشكالها واختلافها الظاهري، حيث تستمر التوجهات السياسية للإسلام السياسي لفرض الدولة الدينية بصيغتها التراثية والمذهبية كدولة الخلافة بالنسبة للسنة، أو دولة الإمامة (الولاية) بالنسبة للشيعة. وجعل الدولة شخصية طبيعية لها دين، رغم أن الدولة بسلطاتها لها وظائف أساسية سياسة واقتصادية واجتماعية وثقافية تقدم خدمات إسعاد المجتمع أفرادا وجماعات في الدنيا وليس في الآخرة.

* الرابع: إشكالية علاقة الدولة بالمدنية والعقلانية أو العلمانية، التي فصلت الديني الدعوي عن السياسي الدنيوي وحسمته نهائيا الدولة الحديثة منذ قرون، ولا تزال حاضرة في واقع الدول العربية واليمن جزء منها ليس على صعيد الفكر السياسي والقانوني بل وفي واقع الممارسة السياسية خلال القرن العشرين وبداية القرن الوحد والعشرين، وبروزها أكثر قبيل واثناء ثورات "الربيع العربي"، واستمرارية الصراع السياسي حول السلطة السياسية وانزلاقها إلى نزاع وحرب

عسكرية مدمرة وبغطاء ديني مذهبي.

إن تجاوز هذه الإشكالية بمدنية وعلمانية الدولة في ماليزيا وتركيا كأنموذج ناجح للحداثة السياسية والتنمية الاقتصادية، يعني منطقيا وواقعيا وجاهة رفض استخدام الدين لتحقيق أهداف سياسية وإدخال الدين عالم المصالح الدنيوية وتسيس الدين "المقدس" والثابت بالسياسي "المدنس" المتغير، وتأكيد أن الدين ليس أداة للسياسة وتحقيق المصالح"(15) والعلمانية في جوهرها ليست دينا، ولا هي ضد الأديان، إنما تعني حيادية الدولة تجاه الأديان وفصل السياسية عن الدين، وهذا يعني ان الفصل أو التحييد يكون من قبيل(16):

- الدولة بسلطاتها السياسية لا تمارس سلطة دينية ولا تتدخل في الشؤون الدينية، والمؤسسة الدينية باختلاف مسمياتها لا تمارس سلطة سياسية ولا تتدخل بشؤون السياسة.

- حماية الدين من التوظيف السياسي من السلطة والأحزاب أو استغلاله للمصالح الاقتصادية الخاصة.

- الحيلولة دون الدولة الدينية العنصرية أو الطائفية أو أحزاب وحركات بمرجعية دينية أو طائفية أو عرقية سلالية أو قبلية أو جهوية أو ممارسة العنف والقتل بدعاوي وفتاوي دينية.

الإشكالية الخامسة: إعاقة القوى الحاكمة للتحديث السياسي والتحول الديمقراطي في بنية الدولة والمجتمع

يُعرف التحديث السياسي بأنه "عملية الانتقال من نظام سياسي تقليدي إلى نظام سياسي حديث"، أي استبدال النظرة والسلطات والبنى التقليدية العصبوية العرقية والقبلية والعائلية والدينية الطائفية بسلطة وطنية علمانية مدنية واحدة، أي علمنة الثقافة والسياسة.

وهو جزء من التحديث الاقتصادي والاجتماعي والثقافي، الذي يبدأ مرتكزه من مجال السياسة والإدارة السياسية، كظاهرة اجتماعية مرتبطة بتأسيس أنساق وقيم جديدة لبنية المجتمع :الثقافة السياسية الهادفة إلى تغيير عقلية السلطة وبناء النظام السياسي الديمقراطي؛ البناء المؤسسي الدستوري التخصصي المحقق لكفاءة وفاعلية ونزاهة إدارة الدولة، تقدم النظم الاقتصادية المحققة للتنمية

الشاملة والعادلة لتجاوز مظاهر التخلف.(17)

وبما أن الإشكالية تكمن في إعاقة التحديث السياسي في بنية الدولة والمجتمع من القوى التقليدية الحاكمة والمسيطرة، لا بد من فهم وتحديد الرابطة الاجتماعية للسكان القائمة والسائدة سياسيا في الدول العربية ومنها اليمن المتسمة بالتقليدية، كونها من قبيل العائلة والعشيرة والقبلية والطائفة، وسلطتها كبير العائلة وشيخ العشيرة والقبلية وسيد أو مفتي الطائفة. أما كيان الدولة الحديثة وبنيته الاجتماعية فقد وجدت فيه السلطة السياسية في البناء الفوقي للمجتمع، كنتاج للثورة الصناعية وظهور وتكون الطبقات الاجتماعية والمدن، حيث ظهرت هناك الدولة كأداة لضبط العلاقة الاجتماعية الشديدة التنوع والتعقيد.(18)

ورغم ظهور الطبقات والفئات الاجتماعية كبنية جديدة في الدول العربية، إلا إنها لم تتبلور بشكل واضح ومتميز عن الروابط التقليدية، فتظل متصلة ومتداخلة معها، والإشكالية المعرفية السياسية هنا تظهر بجلاء في بقاء صور التخلف الشامل وعدم تحقيق التحديث السياسي لبنية الدولة السياسية والتركيبة الاجتماعية بفعل استمرار التأثيرات والتوازنات الاجتماعية القديمة للقبيلة والعشيرة والطائفة الدينية على عقلية وثقافة وبنية الدولة وسلطتها المدنية والعسكرية.(19)

إن علاقات التوازنات، التي فرضتها وكرستها الدولة التقليدية العربية عامة أظهرها ككيان عصبوي: فئوي (عائلي)، قبلي، طائفي وجهوي يؤطر لبنية المجتمع في جماعات وبنى تقليدية مؤثرة سياسيا ودينيا في الدولة، بالضد من الحديثة، وكرس أنظمة الحكم الملكية الأسرية من جانب، وأفرغ النظام الجمهوري في حكم "جملوكي" كرس العلاقات الاجتماعية التقليدية وقوها السياسية لقيادات مؤسسات الدولة الفاعلة والمؤثرة: العسكرية والأمنية والقضائية والدبلوماسية، ومكنها للممانعة العنيفة للتحديث والتغيير السياسي، وأنتج الدولة الفاشلة والفاسدة من جانب أخر، وتكريس التخلف وإعاقة التنمية لتبقي الدول العربية على الاقتصاد التحولي والسوق الاستهلاكية التابع للرأسمالية المتوحشة العالمية من جانب ثالث.

إن البنية السياسية للدول العربية كما هو الحال في اليمن، يُظهر بقاء وهيمنة

تحالف العصبيات التقليدية المتخلفة على البنية السياسية لسلطة الدولة و" أوجد صعوبة في تفكيك البنية السياسية التقليدية للدولة، بل ولم تستطيع الدولة تأسيس بنى جديدة كي تقوم كدولة حديثة منتجة ومنسجمة لمجتمع حديث"(20) لتكون الحامل السياسي الناظم للحداثة والمعاصرة.

إن إشكالية التخلف السياسي لبنية الدولة اليمنية كنتاج للتخلف الاقتصادي والاجتماعي، تبرز في جملة من الجوانب:

- التأثير القوى للعلاقات الاجتماعية المتخلفة العصبوية: القبلية والطائفية والمناطقية على مكونات المنظومة السياسية (السلطة والأحزاب والوصولية الدينية) وبنية مؤسسات الدولة الصلبة واستخدامها في الحروب والصراعات الداخلية المختلفة لزعزعة الأمن والاستقرار الداخلي.

- التعبير القانوني المتخلف تجاه مشاكل المجتمع وفي القضاء والإدارة والحكم المحلي(21) ، فالعرف والعادات القبلية يطغيان على سيادة القانون ومؤسسات الدولة العدلية،

- سيطرة ونفوذ الاتجاهات والمراكز القائمة على الجغرافية الجهوية (الهضبة الشمالية) القبلية العشائرية والمذهبية الطائفية في مشهد ومنعطفات الصراع السياسي حول السلطة، وامتداده إلى التقسيم الاجتماعي للعمل والتوظيف والإدارة، فسكان هذه المناطق يحترفون غالباً العسكرة وحمل السلاح والعمل المزدوج في المؤسسات العسكرية والأمنية والقبلية وغيرها كمصدر لحياتهم ، ولا يتأثرون كثيرا بالأزمات المعيشية التي تصيب فئات الشعب، فيما سكان مناطق وسط البلاد والسهول الساحلية تمارس العمل الإنتاجي الزراعي والسمكي والصناعات والحرف التحويلية واقتصاد الخدماتية كمصدر لمعيشتها الحياتية، وهي مهمشة ومُقصاة من التواجد والتأثير المتعادل والنسبي في سلطات ومؤسسات الدولة القوية،

- الاضرار بالمواطنة المتساوية للحياة وفرص العمل والتوظيف في مؤسسات الدولة القيادية ذات الطبع الوطني كنقيضة للصبغة التقليدية القبلية- المشيخية والعسكرية والدينية والمتحالفة مع الرأسمال الطفيلي التجاري والعقاري من ذات منشأ القوي التقليدية،

- هشاشة القوى الاجتماعية الجديدة ذات المصلحة في التحديث السياسي: الرأسمال الوطني الإنتاجي والطبقات الشعبية الكادحة من العمال والفلاحين

والموظفين والمثقفين والشباب والنساء، وبالتالي اختلاف وضعف القوي السياسية الجديدة وبقائها أسيرة اختلافاتها الفكرية وصراعاتها السياسية الثانوية وتشتتها البرامجي والتنظيمي وعدم نجاحها في العمل السياسي المنظم وفقا للقواسم المشتركة للحداثة السياسية والثقافية والاقتصادية والاجتماعية.

والخلاصة أن كل العصبيات التقليدية المسيطرة على البنية السياسية للدولة تعيق للتحديث السياسي والاقتصادي والاجتماعي، لإمساكها بقوة وعنف بعصبوياتها وموروثاتها التاريخية والمؤسسات الفاعلة في الدولة، عقبة تحول دون بناء لدولة الحديثة واللحاق بالعصر والسير نحو المستقبل.

إن المعالجة الموضوعية الممكنة للإشكالية يتحدد في بناء دولة الحداثة بما ينسجم ومستوى التطور الواقعي دون شطحات أو تعدي للتدرج المناسب، وفك الهيمنة التقليدية على المؤسسات الدولة وإحداث التحول التدريجي للنظام السياسي الديمقراطي التشاركي وتحقيق التنمية الشاملة والمتوازنة والمستدامة والعادلة بالاستفادة من التجربة السياسية العالمية في التغيير السياسي والحداثة.

الإشكالية السادسة: الامتهان وعدم الاحتكام للشرعية الدستورية القانونية والديمقراطية في بناء وحياة الدولة

تأسست الدولة الحديثة على نظرية القعد الاجتماعي والتعاقدية الدستورية أو الشرعية الدستورية القانونية، فيما قامت الدولة القديمة التقليدية على "الحق الإلهي" كنظرية " للقوة والغلبة" في الحكم، وعلى إرادة وإدارة الحاكم وتفوق سلطته الشخصية على سلطة الدولة، والمعتمدة على خليط من الأعراف والعادات التقليدية: الفئوية، القبلية، الطائفية أو الدينية الفقهية (كالمبايعة)، وسادها فيها الحكم الوراثي: ارستوقراطيا لخواص الناس (أعيان وأشراف) أو ثيوقراطيا (لرجال الدين)، وبالعموم هو تعبير عن سيادة حكم القلة النخبوية (الاوليغاركية) من ذوي التأثير والنفوذ المالي أو الاجتماعي أو الديني أو السياسي.

وعادة ما تكون الشرعية معروفة وقائمة كدستور ونظام وقانون وهي مستقرة في المدى الزمني ومتغيرة ومتطورة لتوافق المتطلبات الجامعة لكل مرحلة وواقع المجتمع داخليا وخارجيا.(22)

والدولة الحديثة كمفهوم قانوني تعد كيان سياسي منظم بعقد الاجتماعي،

ودولة دستورية قانونية، وأداة ملائمة لتنظيم العلاقة في الكيان الاجتماعي المعبر عنه بالسكان بين الحاكم والمحكومين على أساس المساواة، والحاكم هنا هو السلطة السياسية القانونية المنظمة، التي ينص عليها الدستور كقانون أعلى للدولة. والشرعية الدستورية القانونية قامت وتستند على نظرية العقد الاجتماعي، التي سادت في الدولة الحديثة للعالم المعاصر.

والدولة الحديثة كتنظيم سياسي للمجتمع ومفهوم مركزي تطبيق الأسس والمنطلقات الشرعية الدستورية القانونية، أهمها:

- انتقال الناس والمجتمعات من حالة الفطرة الطبيعية (كالعشيرة والقبيلة) إلي المجتمع المنظم (الأمة/الشعب)، الذي يخضع للدولة ممثلة بالسلطة السياسية المنظمة بموجب دستور، ينظم العلاقة بين الحاكم والمحكومين وينظم دولة المواطنة المتساوية أمام القانون دون أي تميز.

- الانتقال من الفوضى والحروب والشخصنة إلى النظام والسلم والتعايش وسلطة القانون والمؤسسات.

- انتقال السيادة من الإرادة الفردية لشخص للحاكم إلى الإرادة العامة للشعب عبر النظام السياسي الديمقراطي.

- فصل وتجريد السلطة ووظائفها العامة من الطابع الشخصي للقائمين عليها، فسلطة الأفراد في وظائفهم محددة، والكل يستمد صلاحياته ووظائفه من القواعد الدستورية والقانونية الموحدة.

- أساس ومصدر شرعية السلطة والنظام السياسي هي الإرادة الشعبية الحرة، عبر موافقة أفراد الشعب (الشرعية الشعبية) على أفراد ومجموعة السلطة بالتعبير المباشر بالتصويت الانتخابي لممثليه وبالاستفتاءات وعن طريق الأحزاب السياسية ومنظمات المجتمع المدني.

- التشريع من اختصاص السلطة التشريعية المنتخبة ديمقراطيا من الشعب بموجب الدستور.

- شرعية المعارضة تجاه النظام السياسي بالتطابق وأهدافها ومطالبها ومبادئ وقيم فئات وشرائح المجتمع.

هكذا فـ" العلاقة الاجتماعية في الدولة تنظم على أساس سيادة واحترام القانون والدستورأعلاها(23) والمجسد للأسس والمنطلقات والمعاني السابقة لمفهوم وممارسة

الشرعية والسيادة الدستورية القانونية في الدولة الحديثة، وهي تمثل إشكالية قانونية وسياسية في الدول العربية عامة وفي اليمن خاصة، والمتميزة بكونها أقرب إلى الدولة التقليدية القديمة، لسيطرة نظام الحكم الاستبدادي والفردي- الشخصي، وانتشار الفوضى وعدم الاستقرار وعدم المساواة القانونية، وانتهاك الإرادة الشعبية كأساس للشرعية والحكم وغياب دولة الشرعية والنظام والقانون الدستوري.

إن إشكالية الشرعية الدستورية القانونية للديمقراطية الناشئة، التي حاولت اليمن اجتراحها اقترنت بإعلان الوحدة السلمية الديمقراطية في 22 مايو 1990م ودستورها المستفتى عليه، والمجهض للتو من قبل تحالف قوى التخلف العصبوي القبلي والطائفي والديني والعسكري، وتتداخل مع إشكاليتي البناء لدولة الوحدة الجديدة والتحول الديمقراطي، وواقعيا تغلب عليه سمات اختلاط التخلف مع تطلعات الحداثة المُعَرقلة، وتبرز الإشكالية في المعوقات والتحديات الشاخصة أمام حلم وهدف الدولة المدنية الديمقراطية غير المحققة، ومنها:

- عدم التطبيق الراسخ للأساس التشريعي لدستور دولة الوحدة وتعديله المبكر، وغياب الأساس المرجعي الدستوري الثابت والواضح والمستقر أمام تصرفات السلطة النافذة، وثغرات وتعدد المرجعيات الشخصية والقبلية والدينية والعسكرية، الأمر الذي أوصل إلى حالة الفراغ والميوعة والانعدام الدستوري الشرعي.

- عدم التقيد والاحترام للقوانين والأنظمة التشريعية النافذة، في ظل هيمنة وسيادة العرف القبلي وفتواها الشريعة الدينية، التي تفرض أحكامها بالحكم والحق الإلهي والقوة والغلبة مجسدا ذلك في حرب 1994م ضد الوحدة والجنوب وأساسها الدستوري، ثم حروب صعده الستة -2004 2010 والحرب القائمة.

- الانتقال الديمقراطي السريع والفوضوي وعدم التدرج المناسب في بناء النظام السياسي الديمقراطي القائم على الإرادة والمشاركة الشعبية والتشاركية السياسية الفاعلة المتوازنة.

- اقتصار الشرعية الدستورية على الانتخابات الصورية النيابية والرئاسية وإجرائها في ظروف وأضاع غير مستقرة أو ملائمة للديمقراطية الناشئة، فما بالكم بالديمقراطية الناضجة التنافسية، والبيان في هذا كثير كالطعن في نزاهتها وممارسة الفساد السياسي الانتخابي والاختلال في النظام الانتخابي الفردي.

فالبناء للشرعية الدستورية والتحول الديمقراطي بحاجة إلى مرحلة تأسيس مناسبة

وكافيه ليس بقصيرة، يُنمى فيها الوعي والثقافة السياسية الدستورية والديمقراطية وتوفّر وبناء ظروفها، فالديمقراطية اختيار واختبار الحلول الملائمة للمشكلات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية على أساس من الحوار والتوافقات والتسويات السياسية الطويلة الأجل.(24) قد حكم وساد المرحلة التاريخية منذ الفترة الانتقالية للوحدة ظروف وصراعات وأزمات لم تمكن التوافقات السياسية الوحدوية من النفاذ بإخلاص وصبر وجدية في البناء الدستوري والقانوني الوحدوي الديمقراطي، حيث أقدم تحالف القوى التقليدية غير مرة وبإصرار ممنهج على الحروب والإرهاب والعنف والانقلاب، كما حدث في حرب صيف 1994م ليحول دون تنفيذ وثيقة العهد والاتفاق، والحرب التدميرية الجارية منذ 2014م حتى اليوم على مخرجات الحوار الوطني الشامل، والموجهة في جوهرها لمنع إصلاح وتغيير الأساس التشريعي الدستوري والقانوني لدولة وطنية مدنية اتحادية جديدة للنظام والقانون والمؤسسات، هذا في ظل تدخل وعبث خارجي فض لإذكاء الخلافات والصراعات، خلافا للادعاءات بدعم الخيارات الشرعية التوافقية والمستقلة للشعب واستعادة دولة اليمن الحرة.

والمعالجة للإشكالية يكمن في اتباع مسار دستوري متكامل، يبدأ بصياغة دستور جديد وفقا لمخرجات الحوار الوطني وإقراره شعبيا والعمل المستقر بموجبه، وبتطبيق "وحدانية السيادة للدستور والقانون والمؤسسات على كامل أجزاء الدولة ومواطنيها في الداخل والخارج والرعايا الأجانب" (25) والشراكة الوطنية لتحقيق بناء للدولة والتحول الديمقراطي للنظام السياسي، القائم على الإرادة والمشاركة الشعبية والتعددية السياسية الحزبية والفكرية والتداول السلمي للسلطة وضمان حريات الأفراد والجماعات ومنظمات المجتمع المدني والإعلام الحر والمستقل، على قاعدة تأسيسية للشرعية الدستورية والديمقراطية الناشئة التشاركية والتوافقية لمرحلة انتقال وتحول تدريجي طويل يُوصل إلى مسار ديمقراطي مباشر متطور يقوم على التنافس السلمي والحر والكامل.

الإشكالية السابعة: استشراء الفساد السياسي المؤسسي والإداري والمالي في إدارة الدولة

في النماذج القديمة (الكلاسيكية) لإدارة الدولة سادت العشوائية والتداخل

والفـوضى والفسـاد والمصالـح والقيـم الفرديـة الشـخصية، وعملهـا وفقـا للكفايـة، بتحقيـق مـا يطلـب (بالمسـطرة) دون زيـادة أو نقصـان والانصيـاع للقواعـد القانونيـة الرسـمية فقـط بشـكل جامـد(26)، أمـا الإدارة في الدولـة الحديثـة فتقـوم وفقـا للكفـاءة والفعاليـة المؤسسـة عـلى النظـام والقانـون والمبـادرة والنزاهـة والشـفافية والمسـائلة والمحاسـبة عـن المسـؤولية السياسـية أو الإداريـة أو الماليـة أو الفنيـة.

والإشـكالية المدروسـة هنـا بعلاقتهـا بـإدارة الدولـة الحديثـة في اليمـن، هـي اسـتشراء الفسـاد الشـامل: المؤسـسي السـياسي والتشريعـي والبيروقراطـي- الإداري والمـالي، وهـذا ليـس حكـم أو تجـني مـن العامـة والخاصـة ومنظمـات الشـفافية العالميـة، وتوثيقاتهـا الدوريـة، إنـه الواقـع المُـر والسُـم القاتـل لـكل أخـلاق سـوية، فاليمـن تقـع مـع الأسـف في القائمـة (القاتمـة) الأشـد فسـاداً في دول العالـم، وضمـن أسـوأ ثلاثـة دول عـلى خارطـة الفسـاد إلى جانـب الصومـال وجنـوب السـودان، والصـورة قاتمـة ومفجعـة في كل مـؤشرات الفسـاد مـن فقـر وجـوع وأمـراض وجهـل وحـروب وفـوضى إداريـة وتنمويـة وسياسـية، إنهـا كارثـة محدقـة يسـلكها بوقاحة المسـؤولون السياسـيون الحكوميـون سـواء كأشـخاص أو كشـلل وعصابـات وشـبكات منظمـة ومحميـة.

وعـلى اختـلاف أنـواع وأشـكال ودرجـات ومظاهـر الفسـاد وأسـبابه الشـخصية والأخلاقيـة أو الثقافيـة أو التنظيميـة أو المؤسسـية، فإنـه كأخـذ أو عطـاء غـير مـشروع لأشـياء نقديـة أو عينيـة أو معنويـة أو صفقـات غير أخلاقية وغسـيل للأمـوال، وكاحتيال ومعامـلات تميزيـة ونهـب الأمـوال والممتلـكات العامـة خيانـة للأمانـة وخـرق فاضـح للمسـؤولية والواجـب وإسـاءة في اسـتعمال واسـتغلال السـلطة، والفـوضى والانفـلات والغـش والتعطيـل لفاعليـة الإدارة المؤسسـية. ويتضـح عمـق واتسـاع هـذه الإشـكالية في اليمـن كالآفـة خبيثـة وطاحونـة مدمـرة في معالمهـا، ومـن مظاهرهـا ألبـارزة في اليمـن:

- إنشـاء كيانـات مؤسسـية وإداريـة ووظائـف وأعمـال مُفَصَّلـة لأنـاس مقربـين مـن شـخص الحاكـم وأقربائـه، وعـادة مـا تكـون متداخلـة مـع مـا هـو قائـم وموجـود، والحيلولـة دون اسـتقلالية وحياديـة ومهنيـة وولاء سـلطة ووظيفـة المؤسسـات في تكوينهـا ومهامهـا وخدماتهـا.

- الخلـط بـين الإدارة السياسـية القياديـة العليـا والبنيـة الإداريـة المؤسسـية التخصصيـة والمهنيـة، وهـو مـا يضعـف قـدرات وفاعليـة مؤسسـات الدولـة وجعلهـا شـخصية للحاكـم وتابعيـه وأنصـاره مـن كل شـاكلة دون اعتبـار لمعايـير الكفـاءة

والنزاهـة.

- ممارسـة الابـتزاز بمـا يطلـق عليـه الشراكـة بالحمايـة للاسـتثمار الوطـني والأجنـبي والمصالـح.

- اسـتغلال النفـوذ ومراكـز القـوة الفاضـح لتجـير سـلطة المؤسسـات الحكوميـة للمصالـح الشـخصية للمسـؤولين وقـوى الحكـم المهيمنـة: السياسـية والعسـكرية والأمنيـة والدينيـة ... الـخ،

- الارتبـاط والعلاقـة الفاسـدة وغـير المشروعـة بـين شـخوص السـلطة المسـتحكمين بالـثروة والتجـارة المهربـة والمتهربـة والنهـب للأمـوال والممتلـكات والأراضي العامـة والسـطو والتملـك لآبـار وحقـول النفـط ومناجـم الذهـب والمعـادن، وإبـرام الصفقـات... المشـبوهة، لتحـرم الدولـة والشـعب مـن عوائـد الـثروة في تحسـين المعيشـة، وتصعيـب خيـارات الإرادة الحـرة، واعاقـة التنميـة والاسـتثمار للإبقـاء التخلـف فقـراً وجهـلاً ومرضـاً وتبعيـةً.

- تسـيس وإفسـاد الوظيفـة والخدمـة العامـة المدنية والعسـكرية والأمنيـة والقضائية والدبلوماسـية، وكسـب الـولاءات وشراء الذمـم والازدواج والتضخـم الوظيفـي، واقصاء وتهميـش الكفـاءات المؤهلـة والنزيهـة والمقتدرة.

- انتهـاك سـيادة القانـون والنظـام والأحـكام القضائيـة والإجرائيـة والمماطلـة والتعقيـد في القضايـا القانونيـة للدولـة والخاصـة، والتحايـل عليهـا بـكل السـبل وسـلما وارغامـا.

- السـيطرة المركزيـة السياسـية والإداريـة والماليـة، المـضرة بالوحـدة الوطنيـة واليمنيـة عـلى السـواء، أوصلـت البلـد إلى طريـق مسـدود، مهـددة حـاضر ومسـتقبل اليمـن باسـتمرار التخلـف والتفـكك والتشـظي والانفصـال والارتهـان والتبعيـة.

إن حـدة واسـتشراء إشـكالية الفسـاد في الإدارة المؤسسـية للدولـة يزيـد مـن مضاعفـة تـأكل السـيادة الوطنيـة واسـتقلالها والتعـدي عـلى الشرعيـة الشـعبية وحكمهـا وإعاقـة التنميـة وإهـدار مواردهـا مـن الاسـتخدام الكفـؤ والمسـتمر، وهـو مـا يزيـد مـن التحديـات وإضعـاف فـرص بنـاء وإدارة الدولـة الحديثـة لذاتهـا داخليـا وخارجيـا في المحيـط والعالـم.

والمعالجـة المفترضـة لتغيـير البنـاء المؤسـسي وتطويـر الإدارة الحكوميـة بمكافحـة الفسـاد ولتصـير كفـؤة وفاعلـة ونزيهـة لتسـير وظائـف الدولـة الحديثة وحسـن اسـتثمار

واستخدام الموارد، متأتي بتطبيق حزمة من الأسس والقواعد في النظام السياسي الديمقراطي والمعيارية المؤسساتية الشرعية ومبادئ الحكم الرشيد.(27).

المعالجات لإشكاليات بناء وإدارة الدولة الحديثة في اليمن

في سياق البحث اجتهدت وحاولت ما استطعت استنباط واستنتاج أفضل المتاح لما انتجته واعتصرته المراجع والأفكار المفيدة حول المفاهيم الأساسية المحددة لإشكاليات المعرفية والسياسية والقانونية المرتبطة ببِناء وإدارة الدولة الحديثة، مقرونة بملامسة ومقاربة لواقع وحال الدولة اليمنية خاصة والعربية عامة مع السبل الممكنة لمعالجاتها.

فحالة الدولة في اليمن، بما تحمله من خصائص وبنية كامنة وواضحة في إشكالياتها، تظهر كخليط وازدواج لدولة تقليدية قديمة طاغية، تعبر عن سيطرة وعقلية القوى الاجتماعية والسياسية للعصبويات القبلية العشائرية والعنصرية العرقية والمذهبية والطائفية الدينية وحتى الجهوية المناطقية، وكقوى اقطاعية وتجارية طفيلية وبيروقراطية فاسدة، مع وجود بعض ملامح شكلية للدولة الوطنية الحديثة ولفكر وقوى اجتماعية وسياسية جديدة ذات توجه حداثي.

وخلصت الدراسة إلى نتائج تؤكد فداحة الإشكاليات الأساسية وتداخلها وتعقيداتها معرفيا وسياسيا وقانونيا، كعقبات موضوعية وذاتية تعيق بناء وإدارة الدولة الحديثة في اليمن كغيرها، والمتمثلة في:

اولا: نقص وضعف الوعي واختلاف وتباين الثقافة السياسية لنخب وقيادات الأحزاب والتنظيمات السياسية بالضرورة الموضوعية والحاجة المعاصرة لبناء الدولة اليمنية الحديثة.

ثانيا: التفكك والانهيار وعدم الاستقرار لكيان الدولة اليمنية كوحدة سياسية ثابتة أو نهائية.

ثالثا: انتقاص وتأكل السيادة والاستقلال الوطني للأرض والشعب اليمني.

رابعا: الاستخدام السياسي للدين من الأحزاب والجماعات والقوى الدينية وعدم الفصل بين السياسة والدين في قضايا وأمور السلطة السياسية للدولة.

خامسا: إعاقة القوى والعصبيات التقليدية للتحديث والتحول السياسي الديمقراطي في بنية الدولة والمجتمع.

سادسا: الامتهان وعدم الاحتكام للشرعية الدستورية القانونية الديمقراطية.

سابعا: استشراء الفساد السياسي المؤسسي والإداري والمالي في بنية وإدارة الدولة.

وفي سياق بحث الإشكاليات لبناء الدولة الوطنية المدنية الحديثة وإدارتها كل على حدة، توصلت إلى عدد من المعالجات الممكنة والحلول المقترحة في الحاضر والمستقبل، تتطلب استيعابها وتفعيلها للتغلب على إعاقات القوى التقليدية المسيطرة الرامية إبقاء الوطن في جراحات ومآسي لا تنتهي ولم تعد مواتية ولا منسجمة مع حقائق الحياة المعاصرة، وهي تتسق مع مخرجات الحوارات الوطنية التاريخية في منعطفات تجربة دولتي اليمن شمالا وجنوبا منفردة ومعا أيضا، وآخرها الحوار الوطني الشامل 2014م، وتتحدد بالآتي:

أولاً: الوعي والتقدير الموضوعي والاعتراف العملي بالتنوع والتعدد والاختلاف الفكري، الذي تستوعبه الدولة المدنية الحديثة، بما يُنمي ويُثري المعرفة والثقافة السياسية في التعايش والتسامح والتنافس الحر والديمقراطي، واستمرار عملية الحوار حول المشتركات والممكنات التوافقية في الحياة السياسية لحل إشكاليات بناء الدولة المدنية الحديثة وإدارتها بالاستفادة من التجربة الوطنية المُرة والفكر والتجارب الإنسانية، والحاجة ملحة لمفكرين ومثقفين وسياسيين وطنيين ورجال دولة كنخب سياسة وقادة من طراز وطني متجاوزين وعابرين للعصبيات التقليدية المتخلفة ما دون الوطنية وفوق المصالح الضيقة المعرقلة والمحبطة لبناء الدولة، ويعملون مخلصين لأجلها بروح وثقافة سياسية جديدة ووعي الحاجة لبناء الدولة، وارتقاء والتقاء الأحزاب السياسية على مشروع وطني انقاذي تاريخي لبناء الدولة الوطنية المدنية الحديثة متكاملة الأركان والبنى والخصائص، وبربط فكر وثقافة الثورة والتغيير والإصلاح بفكر وممارسة بناء الدولة المدنية الديمقراطية كحاجة موضوعية، تراعي خصائص الواقع الموضوعي وحاجة المستقبل للشعب اليمني، مستفيدة من الحقائق الثابتة للفكر والممارسة العالمية الإنسانية للدولة الحديثة.

ثانياً: التوجه الصادق لبناء الدولة المدنية الديمقراطية الحديثة الحقيقية بمسار دستوري تعاقدي متكامل من خلال برنامج عمل سياسي وطني ديمقراطي لكتلة وطنية وإنقاذيه عريضة هدفها تحقيق السلام والاستقرار الشامل والعادل والمستدام وبناء الدولة المدنية في أساسها وأسها، كالتالي:

1. دولة السلام والاستقرار والأمن الشامل والدائم والعادل، يبدأ بوقف الحرب والعدوان والتدخل وإعادة الإعمار وبناء ما دمرته الحرب وإزالة الاقصاء للمحليات وإنهاء أسبابها، وبعقد التصالح والتسامح بمصالحة وطنية عادلة ودائمة وشاملة، والاحتكار حصرا ومطلقا للقوة والسلاح ومختلف القوات العسكرية والأمنية لمؤسسات الدولة الوطنية المتخصصة والمستقلة.

2. دولة اتحادية فيدرالية لا مركزية، تحافظ على وحدة وسلامة الوطن وتحل جذريا القضية الجنوبية العادلة وتحقق شراكة وطنية منصفة، يكون فيها الجنوب نِدّاً في الشراكة ومناصف في السلطة مع الشمال، ولتقوم بالتوزيع العادل للسلطة والثروة بين مناطق الوطن وأبناء الشعب ووفقا للمواطنة والحقوق المتساوية دون تمييز لأي نوع وصفة، مع الاحتفاظ للشعب في الجنوب والشمال بحق تقرير مستقبله الحر.

3. دولة وطنية مستقلة ذات سيادة كاملة على أراضيها وموقعها وثرواتها ومقدراتها وشعبها وقرارها وغير ممتهنة ولا متمحورة، وتحول دون التبعية والارتهان لكل أشكال التدخل في الشأن السيادي الكلي للدولة.

4. دولة تحقق الشرعية الدستورية للنظام والقانون غير (مشخصنة)، الوحدانية فيها لسيادة وحكم الدستور والقانون، والشروع بصياغة وإقرار شعبي لعقد اجتماعي دستوري جديد يجمع صفات وخصائص الدولة الحديثة ومستقر العمل به دون خرق أو حتف من أحد أي كان منصبه أو مكانته.

5. دولة ديمقراطية، يكون فيها الشعب وإرادته الحرة مصدر السلطة وشرعيتها، وقائمة على التعددية السياسية الحزبية والفكرية والتداول السلمي للسلطة والمشاركة الشعبية، تبدأ بالديمقراطية التشاركية التوافقية لتحقيق التأسيس والتحول الديمقراطي السلمي والتدرجي للدولة والمجتمع.

6. دولة مؤسسات مستقلة مقتدرة وجديرة بالاحترافية المهنية المتخصصة والحيادية لخدمة الوطن والمجتمع بعيدة عن التدخل والتوظيف السياسي للأحزاب والشخصي للمسؤولين، تبدأ بتوحيد وإعادة هيكلة المؤسسات الضامنة والحامية للسيادة والأمن والتمثيل والعدل.

7. دولة المواطنة المتساوية في كل الحقوق والواجبات والحريات والحياة والكرامة والعيش دون تميز من أي نوع، ويتساوى فيها الحكام والمسؤولين مع المحكومين والمواطنين.

8. دولة مدنية عقلانية علمانية تفصل فيها السياسة عن الدين وفصل مؤسسات ووظائف وأنشطة مؤسسات السلطة السياسية للدولة عن منظمات ومؤسسات ووظائف وأنشطة المجتمع المدني، وألا تكون الأحزاب بتكوينها وسياستها البرامجية والعملية مصبوغة أو موجهة دينيا أو مذهبيا أو عرقيا أو جهويا أو عسكريا أو تابعة للخارج وفصل الخطاب والإعلام السياسي عن الديني، ومكافحة / مواجهة الإرهاب والتطرف والتكفير السياسي الديني والمذهبي ورعاية التعايش في التنوع والاختلاف السياسي والاجتماعي والثقافي.

9. دولة العدالة الاجتماعية، تحقق الإنصاف والمساواة والعدل في الحقوق السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية والتوزيع العادل للثروة والدخل وعوائد التنمية وتكافؤ الفرص أمام جميع الموطنين وعلى أساس الكفاءة والنزاهة.

10. دولة الحداثة والتنمية الشاملة والمتوازنة والمستدامة والعادلة، لا سيطرة سياسية فيها لقوى التخلف والعصبيات الضيقة والعنصرية والقبلية والطائفية العسكرية والدينية على مراكز وقيادات مؤسسات الدولة الحديثة وإدارتها.

11. دولة رشيدة نزيهة ونظيفة في إدارتها من كل أنواع وأشكال الفساد المؤسسي والشخصي، يراقب ويُساءل ويحاسب فيها جميع المسؤولين دون استثناء عن تصرفاتهم المخلة بمسؤوليتهم والخارجة عن الدستور والقانون، وتبدأ بحوكمة القيادات السياسية الإدارية.

إن تحقيق المعالجات المقترحة كحلول استراتيجية تاريخية ومرحلية بالبدء بخطواتها المذكورة، عبر مرحلة تأسيسه حقيقة مناسبة، تحقق البناء الدستوري والتشريعي والمؤسسي، والديمقراطية الناشئة التشاركية التوافقية وتمهد للتحول الديمقراطي السلمي التدريجي نحو التنافس الديمقراطي السلمي الحر.

الهوامش:

1. الموسوعة الجزائرية للدراسات السياسية والاستراتيجية (2018).
2. جيلان، محمد أمين (2016).
3. قراءة في كتاب "بناء الدولة"، أفكار فرانسيس فوكوياما (2017).
4. ماير، توماس (2013).
5. العلاق، بشير(2008).

6. المركز اليمني للحقوق المدنية (2012)، الإصلاح السياسي في اليمن.
7. امزيان، محمد (2019).
8. الموسوعة الجزائرية للدراسات (مرجع سابق).
9. الموسوعة السياسية، مفهوم الدولة.
10. الصلوي، عبدالجبار (2013).
11. شميت، كارل(2017).
12. قراءة في كتاب "بناء الدولة". مرجع سابق.
13. الموسوعة السياسية، مفهوم الدولة، مرجع سابق.
14. شميت، كارل(2017). مرجع سابق.
15. الإصلاح السياسي في اليمن، مرجع سابق.
16. هل هو فصل الدين عن الدولة أم فصل الدين عن السياسية.
17. يحي، عمر (2018).
18. الموسوعة السياسية، مفهوم الدولة.
19. المرجع نفسه.
20. العيدي، عمر جمعه (2013).
21. كتابات معاصرة حول بعص القضايا الراهنة في اليمن. مرجع سابق.
22. مفهوم وأنواع الشرعية (تدوينه).
23. الموسوعة السياسية، مفهوم الدولة. مرجع سابق.
24. بشارة، عزمي: الانتقال الديموقراطي وإشكالياته.
25. كتابات معاصرة حول بعص القضايا الراهنة في اليمن. مرجع سابق.
26. عساف، عبد المعطي (2005)، 116-114
27. مؤتمر الحوار الوطني الشامل (2014)، أسس بناء الدولة المدنية الحديثة في اليمن.

المراجع والمصادر:

1. امزيان، محمد (2019)، مفهوم الدولة الوطنية وإشكالية التحديث السياسي مدخل إلى فهم التحولات السياسية في العالم العربي، ارتباط موقع إلكتروني: https://democraticac.de

2. بشارة، عزمي: الانتقال الديموقراطي وإشكالياته، ارتباط موقع: https://www.do-hainstitute.org

3. جيلان، محمد أمين (2016)، بناء الدولة: المفهوم والنظرية واسئلة الراهن، المعهد العربي للدراسات.

4. شميت، كارل(2017)، قراءة في كتاب "مفهوم السياسي": السياسية ليست الدولة، موقع اضاءات: https://www.ida2at.com

5. الصلوي، عبدالجبار (2013)، كتابات معاصرة حول بعض القضايا الراهنة في اليمن، العصر للنشر، صنعاء.

6. عساف، عبد المعطي (2005)، نظرية التفوق الإداري، دار دائل للنشر، عمان الأردن.

7. العلاق، بشير(2008)، الإدارة الحديثة نظريات ومفاهيم، رابط إلكتروني: book.google.com

8. العيدي، عمر جمعه (2013)، إشكالية البنية السياسية لنظم الجمهورية في المنطقة العربية.

9. قراءة في كتاب "بناء الدولة"، أفكار فرانسيس فوكوياما (2017)، موقع qposts.com

10. مايـر، توماس (2013)، مستقبل الديموقراطية الاجتماعية، مؤسسة فريدريش ابيرت، مكتبة العمل الخيري.

11. المركز اليمني للحقوق المدنية (2012)، الإصلاح السياسي في اليمن.

12. مفهوم وأنواع الشرعية (تدوينه)، ارتباط موقع: https://www.tadwina.com

13. مؤتمر الحوار الوطني الشامل (2014)، أسس بناء الدولة المدنية الحديثة في اليمن. ارتباط موقع: https://www.ndcdoc/book one/

14. موسوعة الجزائرية للدراسات السياسية والاستراتيجية (2018)، https://www.pol-itics-dz.com

15. الموسوعة السياسية، مفهوم الدولة، ارتباط موقع : Political-encyclopedia.org

16. قراءة في كتاب "بناء الدولة"، أفكار فرانسيس فوكوياما (2017)، موقع: qposts.com/

17. يحي، عمر (2018)، مفهوم التحديث السياسي والمقاربات النظرية. ارتباط موقع: https://m-aheear.org

الدولة الفدرالية .. مقاربة قانونية

د. يحيى قاسم سهل
استاذ القانون العام كلية الحقوق، جامعة عدن

أختبر اليمنيون في جنوب البلاد قبل الاستقلال التجربة الفدرالية؛ فقد قام الانجليز بالسعي الحثيث إلى تكوين ما عرف بـ(الاتحاد المزيف) وذلك في 11 فبراير1959م وقد تكون (اتحاد إمارات الجنوب العربي) في البداية من ست إمارات هي: - إمارة بيحان، الضالع؛ سلطنة الفضلي؛ العوذلي؛ يافع السفلى والعوالق العليا، وفي اكتوبر 1959م انضمت إلى الاتحاد لحج؛ وفي فبراير 1960م التحقت بالاتحاد العوالق السفلى؛ العقربي؛ دثينة؛ وفي مارس 1962م التحقت إمارة الواحدي من المحمية الشرقية؛ ثم انضمت بقية المشيخات إلى الاتحاد وفي 16 يناير 1963م انضمت عدن إلى الاتحاد وسعت بريطانيا إلى استباق الأحداث الجارية في البلاد؛ بمحاولتها إنشاء (جمهورية للجنوب العربي) من خلال إصدار (مسودة قانون تنص على دستور مؤقت لجمهورية الجنوب العربي وتدخل على دستور اتحاد الجنوب العربي أية تعديلات مترتبة على الدستور المؤقت كما قد تكون ضرورية) (وذلك في الملحق رقم 3 لجريدة حكومة اتحاد الجنوب العربي رقم (2) بتاريخ 1 يوليو 1967م).

أما الاتحاد الفدرالي الذي يسعى اليمنيون في اليمن الطبيعية إلى تشكيله يمثل حفاظا على وحدة اليمن وتنوعه وفرضته تحولات الواقع السياسي الذي عاشته بعد تحقيق الوحدة اليمنية وما واجهته من قبل القوى التقليدية والقديمة المتضررة

مـن تطـور المجتمـع نحـو الحداثـة والعصرنـة الـتي لا تـرى في المسـتقبل سـوى نهايتهـا وموتهـا.. وهـذا المبحـث معنـون) الدولـة الفدراليـة مقاربـة قانونيـة (يحـاول التعريـف بالنظـام الفـدرالي) كنظـام سـياسي ودسـتوري بـدأ يتوسـع في العالـم وتـزداد مسـاحته.

ونتناول ذلك على النحو الاتي :

المطلب الأول: أساليب التنظيم الإداري للدول.

المطلب الثاني: أنواع الدول.

المطلب الثالث: ماذا تعني كلمة (الفدرالية).

المطلب الرابع: مظاهر الدولة الفيدرالية.

المطلب الخامس: السلطات الدستورية للدولة الفدرالية.

المطلب السادس: اختصاصات ووظائف الدولة الفدرالية.

المطلب السابع: الأقاليم أو الولايات المكونة للدولة الفدرالية.

المطلب الثامن: مظاهر استقلال (الولايات - الأقاليم) في الدولة الفدرالية .

المطلب التاسع: أنماط توزيع السلطة التشريعية في الدولة الفدرالية.

المطلب الأول

أساليب التنظيم الإداري للدول

المركزيـة واللامركزيـة أسـلوبان للتنظيـم الإداري للدولـة ولـكل مـن هذيـن الأسـلوبين فلسـفته وأهدافـه، وتأخـذ الـدول الحديثـة في إدارة شـئونها الإداريـة والسياسـية والاقتصاديـة والتنمويـة بـأي مـن هذيـن الأسـلوبين؛ أو تجمـع بينهمـا وفقـاً لظـروف كل دولـة.

المركزية الإدارية:

أسـلوب المركزيـة الإداريـة في إدارة الـدول: يقـوم عـلى تركـيز السـلطة والوظيفـة الإداريـة للدولـة بيـد سـلطة إداريـة واحـدة في عاصمـة الدولـة بحيـث تمـارس الوظيفـة الاداريـة في جميـع مناطـق الدولـة مـن قبـل مسـئولين إداريـين يمثلـون الحكومـة المركزيـة في العاصمـة دون مشـاركة مجتمعيـة وتقـوم المركزيـة الإداريـة عـلى حـصر سـلطة التقريـر والبـت النهـائي في كافـة الشـئون بيـد السـلطة المركزيـة في العاصمـة.

اللامركزية:

اللامركزية في إدارة الدول إما أن تكون: لامركزية إدارية أو لامركزية سياسية.

اللامركزية الإدارية هي: الإدارة المحلية واللامركزية السياسية هي الفيدرالية.

اللامركزية الإدارية:

يقوم هذا النظام على توزيع الوظيفة الإدارية (التنفيذية) بين الحكومة المركزية في العاصمة؛ ووحدات محلية تتمتع بالشخصية الاعتبارية وتمارس هذه الوحدات وظائفها واختصاصاتها في النطاق الجغرافي المرسوم لها تحت إشراف ورقابة الحكومة المركزية ومصطلح اللامركزية الإدارية مرادف للإدارة المحلية.

المطلب الثاني
أنواع الدول

تنقسم الدول من حيث الشكل الدَسَتوري إلى نوعين: دول بسيطة (موحدة) ودول مركبة اتحادية.

الدولة البسيطة (الموحدة): تتميز بوجود سلطة واحدة تدير شئونها الداخلية والخارجية في إطار سلطة سياسية واحدة وتخضع لدستور واحد وقوانين واحدة لا تتجزأ فيها سوى الوظيفة الإدارية) التنفيذية (التي تتوزع بين الحكومة المركزية والوحدات المحلية).

السلطة القضائية. واحدةٌ وتتدرج محاكمها في الوحدات المحلية وصولا إلى المحكمة العليا التي توجد في العاصمة.

والسلطة التشريعية في الدولة البسيطة واحدة يملكها مجلس النواب صاحب الحق في سن القوانين التّي يخضع لها أفراد الشعب جميعا ولا تشاركه في هذا الحق أي هيئات محلية).

لا تمتلك الوحدات المحلية أي سلطة سياسية أو تشريعية عامة في مواجهة السلطة المركزية.

السلطة المركزية: تستطيع في أي وقت إلغاء الوحدات المحلية أو دمجها أو تغيير حدودها أو اختصاصاتها أو سلطاتها الإدارية، ومن أمثلة للدولة البسيطة الموحدة (فرنسا تركيا - اليابان - جميع الدول العربية (باستثناء العراق - جزر القمر – الإمارات العربية المتحدة).

معظم دول العالم تعد دولا بسيطة وعددها (164) دولة من مجموع (192) منضوية في عضوية الأمم المتحدة.

الدولـة المركبـة أو (الاتحاديـة / الفيدراليـة): تنشـأ مـن خـلال اتحـاد عـدد مـن الدويـلات أو الأقاليـم أو الولايـات وتقـوم عـلى أسـاس تجزئـة السـلطة السياسـية والإداريـة بـين الدولـة الاتحاديـة والأقاليـم أو الولايـات المكونـة لهـا ولـكل إقليـم أو ولايـة سـلطات تشريعيـة وقضائيـة وتنفيذيـة.

في حـين يكـون للدولـة الاتحاديـة – أيضـاً – دسـتورها الخـاص وسـلطاتها التشريعيـة والقضائيـة والتنفيذيـة.

المطلب الثالث

ماذا تعني كلمة (الفيدرالية)

كلمـة (لاتينيـة) معناهـا اتفـاق بـين طرفـين أو أكـثر أو ميثـاق أو تحالـف أو عقـد في مجـال القانـون الـدولي: الاتفـاق المـبرم بـين دولتـين أو أكـثر أو قيـام اتحـاد بـين أقاليـم أو ولايـات أو مقاطعـات فـإن هـذا الاتفـاق يسـمى (اتحـادا فيدراليـا).

وأقرب ترجمة لكلمة الفيدرالية هي (الاتحاد).

تعريـف الدولـة الفيدراليـة: دولـة واحـدة تضـم كيانـات دسـتورية متعـددة لـكل منهـا نظامهـا القانـوني الخـاص، واسـتقلالها الـذاتي وتخضـع في مجموعهـا للدسـتور الاتحـادي المنـشئ لهـا والمنظـم لبنائهـا القانـوني والسـياسي والإداري.

مفاهيم للفيدرالية:

الفيدراليـة: شـكل مـن أشـكال الحكـم تكـون فيـه السـلطات والصلاحيـات مقسـمة دسـتوريا بـين حكومـة مركزيـة اتحاديـة ووحـدات محليـة (أقاليـم أو ولايـات).

الفيدراليـة: اتحـاد اختيـاري؛ وتعايـش مشـترك بـين شـعب واحـد في أقاليـم أو ولايـات متعـددة بحيـث تكـون نتيجـة هـذا الاتحـاد دولة واحـدة هـي الدولـة الإتحاديـة الفيدراليـة.

الـدول الفيدراليـة عـلى مسـتوى العالـم (28) دولـة يقيـم فيهـا حـوالي (40%) مـن مجمـوع سـكان العالـم.

1. الولايـات المتحـدة الامريكيـة 2 – سـويسرا -3 المانيـا -4 اثيوبيـا -5 روسـيا الإتحادية -6 الهنـد -7 المكسـيك -8 النمسـا -9البوسـنة والهرسـك -10 بلجيـكا -11 جنـوب افريقيـا -12 كنـدا -13الإمـارات العربيـة المتحـدة -14 ماليزيـا -15 اسـبانيا -16 السـودان -17 الكونغـو الديمقراطيـة -18 باكسـتان -19 فنزويـلا -20 بـالاو -21 ميكرونيسـيا

المتحـدة -21 البرازيـل -23 نيجيريـا -24 جـزر القمـر -25 سـانت كيتـس ونفنيـس -26 الأرجنتـين 28 - العـراق .

ولكـن هـل للفيدراليـة شـكل تطبيقـي واحـد صالـح لـكل زمـان ومـكان يمكـن أن تأخـذ بـه أنظمـة الحكـم في العالـم ؟

تختلـف الـدول الفدراليـة في دسـاتيرها وعـدد الوحـدات المكونـة لهـا وأصولهـا التاريخيـة وتوزيـع السـلطات فيها باختـلاف الظروف الثقافيـة والاجتماعيـة والاقتصادية والسياسـية الـتي أدت إلى تأسيسـها.

كيف تنشأ الدولة الإتحادية (الفيدرالية)؟

بإحـدى طريقتـين، الأولى: طريقـة الانضمـام : أي الانضمـام الاختيـاري بـين عـدة دول مسـتقلة؛ أو بـين ولايـات؛ او أقاليـم إلى بعضهـا بحيـث تتنـازل كل منهـا عـن سـلطاتها الخارجيـة وبعـض سـلطاتها الداخليـة ثـم تتوحـد ثانيـة لتشـكل الدولـة الاتحاديـة (الفيدراليـة) عـلى أسـاس الدسـتور الفيـدرالي الـذي يقيـم اتحـاداً نابعـاً مـن رضاهـا وإرادتهـا في العيـش المشـترك، وأغلـب وأعـرق الـدول الفيدراليـة نشـأت وفقـا لهـذه الطريقـة مثـل: ألمانيـا والولايـات المتحـدة الأمريكيـة وسـويسرا ودولـة الإمـارات العربيـة المتحـدة .

الثانيـة: طريقـة التفـكك أو إعـادة الترتيـب: أي تفـكك أو إعـادة ترتيـب (دولـة بسـيطة) موحـدة بحيـث تصـير دولـة اتحاديـة مكونـة مـن عـدة ولايـات أو أقاليـم أو مقاطعـات، ومـن أمثلـة الـدول الـتي نشـأت وفقـا لهـذه الطريقـة :البرازيـل – العـراق - الهنـد - المكسـيك –الأرجنتـين.

المطلب الرابع
مظاهر الدولة الفيدرالية

تتميز الدولة الفيدرالية بثلاثة مظاهر رئيسية هي:

1. الوحدة:

وتعـني أن الدولـة الفيدراليـة تظهـر في نظـر القانـون الـدولي وفي علاقاتهـا الدوليـة مع الـدول الأخـرى كدولـة بسـيطة؛ تملـك وحدهـا الشـخصية الدوليـة وتتحمـل المسـئولية الدوليـة عـن الولايـات أو الأقاليـم المكونـة لهـا.

ومـن مظاهـر هـذه الوحـدة أيضـا عـدم قـدرة الأقاليـم أو الولايـات عـلى الانفصـال،

وكل الدساتير الاتحادية تقريبا تؤكد على وحدة كيان الدولة الفيدرالية؛ وتمنع الانفصال ولا تملك الأقاليم حق الانفصال عن الدولة الفيدرالية من جانب واحد لم يتم تثبيت هذا الحق في الدستور الاتحادي.

2. الاستقلال:

أن يكون للوحدات المكونة للدولة الاتحادية سلطاتها الدستورية المستقلة عن السلطات الدستورية الاتحادية.

3. المشاركة:

تعني مشاركة الأقاليم أو الولايات في تكوين المؤسسات أو الأجهزة الاتحادية باعتبارها الكيانات الدستورية التي تقوم عليها الدولة الفيدرالية.

المطلب الخامس
السلطات الدستورية للدولة الفيدرالية

أولاً: السلطة التشريعية الفيدرالية:

للدولة الفيدرالية سلطتها التشريعية العليا التي تمثل دولة الاتحاد وتقوم بالوظيفة التشريعية في كافة الشؤون الداخلة في مجال اختصاصها.

وما يصدر عن هذه السلطة من تشريعات يكون ملزما لجميع سكان الدولة الفدرالية.

في معظم دساتير الدول الفيدرالية تتكون السلطة التشريعية من مجلسين هما:

المجلس الأول: مجلس النواب الفيدرالي: ويتم انتخاب أعضائه انتخاباً مباشرا من المواطنين؛ وتوزع مقاعده على أساس عدد السكان في الوحدات المحلية لذلك؛ يتفاوت عدد الأعضاء من إقليم لآخر وفقا لعدد سكان كل منها.

المجلس الثاني: مجلس التمثيل الإقليمي: ويقوم على أساس التمثيل المتساوي في عدد الأعضاء أي أن كل إقليم يمثل بعدد متساوي من الأعضاء بغض النظر عن مساحة أو عدد سكان كل إقليم، والحكمة من المساواة في التمثيل هدفها تبديد ما قد يتولد من خوف أو هواجس لدى الأقاليم الصغيرة؛ من أن تتعرض للظلم أو الإقصاء بسبب نفوذ أو هيمنة الأقاليم ذات الكثافة السكانية الكبيرة، كما أنه لا يشترط التمثيل المتساوي في بعض التجارب الدولية.

ثانيا: السلطة التنفيذية الفيدرالية:

للدولـة الفيدراليـة سـلطتها التنفيذيـة المركزيـة؛ ويختلـف تركيبهـا باختـلاف شـكل نظـام الحكـم الـذي تأخـذ بـه الدولـة الفيدراليـة (نظـام رئـاسي أو برلمـاني).

ثالثًا: السلطة القضائية الفيدرالية:

وتمثلهـا المحكمـة العليـا الاتحاديـة وهـي هيئـة دسـتورية محايـدة ومسـتقلة؛ مـن أبـرز مهامهـا:

- الرقابة على دستورية القوانين والأنظمة.
- الفصل في القضايا التي تنشأ عن تفسير نصوص الدستور.
- تطبيق القوانين الفيدرالية.

الفصـل في المنازعـات أو تنـازع الاختصاصـات الـتي تنشـأ بـين الحكومـة الفيدراليـة والوحـدات المكونـة لهـا.

الفصـل في تنـازع الاختصـاص بـين الهيئـات القضائيـة الاتحاديـة والهيئـات القضائيـة في الوحـدات المكونـة للإتحـاد.

المطلب السادس

اختصاصات ووظائف الدولة الفيدرالية

تختلـف الدسـاتير الفيدراليـة في توزيـع الاختصاصـات والمهـام بـين الحكومـة الفيدراليـة والولايـات أو الأقاليـم المكونـة لهـا. فـلا توجـد صيغـة موحـدة يتـم إتباعهـا لتوزيـع هـذه الاختصاصـات.

ولكـن معظـم الدسـاتير الفيدراليـة اتبعـت في توزيـع الاختصاصـات بـين الحكومـة الفيدراليـة ومكوناتهـا (الأقاليـم) طريقـة تقـوم عـلى تحديـد اختصاصـات السـلطات المركزيـة الفيدراليـة عـلى سـبيل الحـصر في الدسـتور ويـترك بـاقي الاختصاصـات للأقاليـم.

أهـم الاختصاصـات الحصريـة للدولـة الفيدراليـة كمـا وردت في بعـض الدسـاتير الفيدراليـة:

- الشؤون الخارجية:

مثل عقد المعاهدات والاتفاقيات الدولية وتعيين أعضاء السلك الدبلوماسي.

- - شؤون الدفاع:

مثـل إنشـاء وإدارة القـوات المسـلحة والجيـش الوطـني وإعـلان الحـرب وإنشـاء

وإدارة جهـاز المخابـرات الوطـني والشرطـة الاتحاديـة.

- الفصـل في المنازعـات والقضايـا الـتي تهـم الدولـة الفيدراليـة عـن طريـق المحكمـة العليـا الفدرالية.

- شـؤون الجنسـية والتجنيـس وقضايـا الإقامـة للأجانـب وحـق اللجـوء السـياسي، ويتمتـع مواطنـو الدولـة الفيدراليـة في مختلـف أقاليـم الدولـة بجنسـية واحـدة هـي جنسـية الدولـة الفيدراليـة؛ وهـذا الاختصـاص منصـوص عليـه في كل الدسـاتيرّ الفيدراليـة.

- رقابة السلطة التشريعية على المالية العامة للدولة الفيدرالية.
- البريد والاتصالات والسكك الحديدية الفيدرالية والنقل والملاحة الجوية.
- شؤون الجمارك والتجارة الخارجية والسياسة العامة الاقتصادية.
- المواصفات والمكاييل والأوزان والمقاييس.
- إصدار العملة.
- إنشاء البنك المركزي الاتحادي وإدارته.
- حماية حقوق الملكية الصناعية وحقوق المؤلفين والنشر.
- تنظيم الانتخابات العامة الاتحادية.
- سياسات الاقتراض من الخارج والتوقيع عليها.

المطلب السابع
الأقاليم أو الولايات المكونة للدولة الفيدرالية

لـكل إقليـم أو ولايـة سـلطات محليـة: تشريعيـة وتنفيذيـة وقضائيـة، ولـكل إقليـم أو ولايـة (دسـتور خـاص) وفقـا لتجـارب معظـم الـدول الفيدراليـة.

السلطة التشريعية المحلية للإقليم أو الولاية تتكون من مجلسين:

مجلس نواب الإقليم أو الولاية.

مجلـس التمثيـل المحـلي/ شـورى/ الإقليـم أو الولايـة (في بعـض التجـارب الدوليـة) يكـون مجلسـاً واحـداً فقـط.

مهـام السـلطة التشريعيـة المحليـة: سـن القوانـين المحليـة في كافـة الشـؤون المحلية دون رقابـة أو وصايـة أو إشراف مـن الدولـة الاتحاديـة؛ وبمـا لا يتعـارض مـع أحـكام الدسـتور الاتحـادي.

السلطة التنفيذية (الحكومة المحلية للإقليم أو الولاية) تتكون من رئيس وزراء الإقليم أو الولاية وعدد محدد من الوزراء المتخصصين في مجالات الخدمات والشؤون المحلية.

يتم اختيار رئيس وزراء الإقليم من قبل السلطة التشريعية المحلية في تجارب بعض الدول الفيدرالية.

السلطة القضائية للإقليم أو الولاية:

لكل إقليم أو ولاية نظام قضائي خاص يشمل المحاكم بكافة درجاتها.

يتولى تطبيق القوانين الصادرة عن السلطة التشريعية المحلية والقوانين الاتحادية .

الموارد المالية في الدولة الفيدرالية: تحدد العديد من الدوال الفيدرالية في دساتيرها أسس وقواعد تخصيص الموارد المالية والطبيعية؛ كما تحدد الدساتير الفيدرالية طريقة جباية الأموال وإنفاقها وتقاسمها أو توزيعها بين الحكومة الاتحادية والوحدات المكونة لها (الولايات أو الأقاليم)

هل تناسب الفيدرالية الدول الكبيرة فقط؟

الفيدرالية قابلة للتطبيق في الدول الكبيرة والصغيرة على حد سواء وليس المهم مساحة الدولة أو عدد سكانها إنما الاعتبارات السياسية والإدارية والتنموية هي الأكثر أهمية.

المطلب الثامن

مظاهر استقلال الولايات

تتمتع كل ولاية - إقليم من الأقاليم في الدولة الاتحادية المكونة للاتحاد بقدر كبير من الاستقلال الذاتي اذ تختص كل منها بدستور ، وبحكومة خاصة وبمجلس نيابي، وكذلك قضاء خاص يتولى تطبيق القوانين التي تصدرها السلطة التشريعية لكل (ولاية - أقليم) في النطاق الإقليمي لها.

1. الدستور: لكل ولاية - أقليم عضو في الدولة الاتحادية الحق في أن يكون لها دستور خاص بها

2. السلطة التشريعية: يقوم سكان كل (ولاية - أقليم) بانتخاب برلمانها لكي يتولى السلطة التشريعية فيها؛ عن طريق سن القوانين الخاصة (بالإقليم -

الولاية) والمنظمة للحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية فيها وذلك في الحدود الدستورية التي رسمها دستور (الولاية - الإقليم) ومن فوقه الدستور الاتحادي.

3. السلطة التنفيذية: تتولى المهام السياسية والإدارية في كل (ولاية - أقليم) حكومة خاصة بها؛ وتعمل بصفة مستقلة عن الحكومة الاتحادية دون إن تخضع أي نوع من الرقابة أو التوجيه من جانب السلطة المركزية في العاصمة الاتحادية.

4. السلطة القضائية تنشئ كل (ولاية – إقليم) محاكم خاصة بها تتولى تطبيق قوانينها والفصل في المنازعات الي تثور بين مواطنيها في النطاق الجغرافي لحدودها الإقليمية؛ وذلك إلى جوار القضاء الاتحادي.

النماذج الاتحادية (الفدرالية) العريقة في البلدان المتقدمة.

وتتمثل هذ النماذج في الدول الآتية:

1. الولايات المتحدة الأمريكية (1789)
2. سويسرا (1848)
3. استراليا (1901)
4. النمسا (1920)
5. ألمانيا (1949)

وسوف نتناول بإيجاز الولايات المتحدة الأمريكية بوصفها النموذج الأول تاريخياً، إذ تعد الولايات المتحدة الأمريكية أول بلد فيدرالي؛ فقد كانت الولايات المتحدة الأمريكية في بادئ الأمر تتكون من 13 ولآية وتطورت بعد ذلك لتصل إلى اتحاد فدرالي يضم (50) ولاية. وقد استطاع هذا الاتحاد الفيدرالي ان يصمد أمام حرب أهلية ضروس ويتجاوزها خلال القرن الأول من وجوده.

وبوصفه أكثر الفيدراليات صمودا في العالم أجمع فهو يمثل أهمية مرجعية كبيرة في أية دراسة مقارنة تتناول الاتحادات الفدرالية.

تتميز الفدرالية الأمريكية عن غيرها من الفدراليات الأخرى بأنها تضم مجتمعا متجانسا نسبيا فعلى الرغم من وجود أقليات كبيرة من السود وذوي الأصول الإسبانية إلا إنهم لا يشكلون أغلبية في أيٍّ من الولايات. وعلى الرغم من ذلك فإنه يوجد تنوع إقليمي في الثقافة السياسية وتركيز هائل على أهمية حكومة الولاية.

ومن الناحية المقارنة فإن الحكومة الفدرالية تتميز بقدر معقول من اللامركزية ويتم منح سلطات قانونية متساوية للولايات الخمسين والسمة الرئيسة لتوزيع

السلطات هي النسق الذي يقضي بأن يحدد الدستور الموضوعات التي تخضع للسلطة الفدرالية - معظمها متلازمة وبعضها فيدراليا خالصا من خلال منع الولايات من وضع تشريعات بشأنها وتترك الموضوعات المتبقية غير المحددة للولايات .

وتعتمد المؤسسات الفدرالية على مبدأ الفصل بين السلطات فيما يتعلق بالسلطة التنفيذية والهيئة التشريعية مع وجود مؤسسات تابعة للكونجرس تضم نظاما للضوابط والتوازنات ويضم الكونجرس (الهيئة التشريعية العليا) مجلساً للشيوخ يتم فيه تمثيل الولايات بالتساوي بواسطة أعضاء يتم اختيارهم بالانتخابات المباشر منذ عام 1912م).

واكتسبت الولايات المتحدة الأمريكية؛ وعبر ما يزيد على القرنين من الحكم الفدرالي كاتحاد فدرالي مزيدا من التكامل وأصبحت الحكومة الفدرالية أكثر قوة.

وجرى في العقود الحديثة توصيف الدور المسيطر للحكومة الفيدرالية والممارسة الشاملة كحق الأولوية الفدرالية على أنه تحول من الفيدرالية التعاونية إلى الفدرالية القسرية وفي الوقت ذاته؛ كانت ثمة ضغوط سياسية معارضة تطالب بمزيد من اللامركزية؛ على الرغم من أن التقدم في هذا الاتجاه كان محدودا وقد أجمعت المحاولات التي جرت بعد ذلك على أرض الواقع لإقامة اتحادات فدرالية على الاقتداء ببعض ما جاء في النظام والتطبيق الدستوري للولايات المتحدة الأمريكية عند وضع هياكلها الفدرالية الخاصة بها مما جعلها مثالاً هاما يحتذى به.

المطلب التاسع
أنماط توزيع السلطة التشريعية في الدول الفدرالية

لا يمكن أن تكون هناك وصفة واحدة للفدرالية فكل مجتمع يتسم بالتعقيد وتساهم عدة عوامل في تشكيل ملامحه والقاسم المشترك بين كافة الفيدراليات الموجودة اليوم هو وجود دوافع قوية للاتحاد لأغراض معينة وفي ذات الوقت وجود دوافع عميقة الجذور لحكومات إقليمية ذاتية الحكم لأغراض أخرى.

وهكذا، فقد تمثلت السمة المؤسسية المميزة لهذه الاتحادات الفدرالية في الجمع بين الحكم المشترك والحكم الذاتي في نظام سياسي واحد من خلال التوزيع الدستوري للسلطات بين الحكومات الفدرالية والإقليمية، وتختلف الدول الفدرالية اختلافاً كبيراً فيما بينها من حيث تكوينها الاقتصادي والاجتماعي ومؤسساتها فمن

بين الدول الفدرالية دولاً كبيرة للغاية ودولاً صغيرة للغاية ودولاً غنية ودولاً فقيرة ودوال متجانسة السكان ودولاً متنوعة السكان.

وتعد بعض الدول الفدرالية دولاً ديمقراطية راسخة منذْ زمن طويل بينما تعد دول أخرى حديثة الديمقراطية ومضطربة والجدير بالذكر أنه كلما ازدادت درجة التجانس في المجتمع؛ ازدادت السلطات الممنوحة للحكومة الفدرالية وكلما ازدادت درجة التنوع، ازدادت السلطات الممنوحة للوحدات المكونة للحكومة.

المصادر القانونية للسلطات:

يحدد الدستور عادة نظام توزيع السلطات التشريعية وغيرها ويمكن في بعض الأنظمة الفدرالية السماح بتفويض المسؤوليات التشريعية بين مستويات الحكومة بينما لا تسمح اتحادات فدرالية أخرى بذلك. وتتضمن كافة الأنظمة الفدرالية في دساتيرها مواد تعالج قضية تقسيم السلطات بين الحكومة المركزية وحكومات الوحدات المكونة وتختلف الدساتير اختلافاً كبيراً من حيث مستوى التفاصيل والمنهج مثال؛ يتضمن دستور الولايات المتحدة الأمريكية (18) عنوانا رئيسيا للحكومة الفدرالية؛ ومعظمها في الواقع متزامنة مع السيادة للقرار الفدرالي، وتبقى كافة السلطات الأخرى(السلطات المتبقية) للولايات.

وخلافاً لذلك يتضمن الدستور الهندي(3) قوائم طويلة:

- القائمة الاتحادية وتضم (97) عنواناً رئيسيا
- والقائمة المتزامنة وتضم (47) عنواناً
- وقائمة الولايات التي تضم (66) عنواناً

ويذكر الدستور الاسباني صلاحيات قد تخصص لمجتمعات الحكم الذاتي ولكن هذا يتم قانونيا من خلال سن قُوانين تشريعية للحكم الذاتي لكل مجتمع وقد تختلف تلك القوانين من مجتمع لآخر.

السلطات التشريعية الخالصة:

يتم في سويسرا وكندا وفي بلجيكا مؤخراً، منح معظم السلطات التشريعية بصفة خالصة الى الحكومة الفدرالية أو حكومات الوحدات المكونة للفدرالية وسجالات الاختصاص الخالص هي الأكثر تحديدا في حالة سويسرا أو بلجيكا.

وعلى النقيض من هذه الاتحادات الفدرالية الثلاثة فإنه في الولايات المتحدة

الأمريكية واستراليا تعد السلطات الممنوحة بصفة خالصة للحكومة الفدرالية محدودة وضئيلة مع تحديد معظم السلطات الفدرالية كسلطات مشتركة ومتلازمة وفي النمسا وألمانيا والهند وماليزيا ثمة تصنيفات واسعة للغاية لكل من السلطات الخالصة المحددة دستورياً.

وقد أوضحت تجارب بلدان مثل سويسرا وكندا أنه لا مفر من تداخل الاختصاصات السيادية لأنه يكاد يكون من ضروب المحال تحديد مجالات محددة المعالم للاختصاص السيادي الخالص.

السلطات التشريعية المتلازمة:

أدى الاعتراف بحتمية وجود تداخل في الكثير من المجالات الى تخصيص مجالات واسعة من الاختصاص التشريعي المتلازم في دساتير الولايات المتحدة الامريكية وأستراليا وألمانيا، والهند وماليزيا، وعلى النقيض من ذلك فإنه في كندا تتمثل مجالات الاختصاص المتلازمة المحددة دستوريا في الزراعة والهجرة ومعاشات وإعانات الشيخوخة ومنتجات الغابات والطاقة الكهربائية؛ وللتلازم عدد من المزايا في الاتحادات الفدرالية حيث إنه يضفي قدرا من المرونة على توزيع السلطات؛ مما يتيح للحكومة الفدرالية تأجيل ممارسة السلطة المحتملة في مجال بعينه حتى يكتسب أهمية فدرالية.

وعلى هذا الأساس يمكن إتاحة الفرصة لحكومة الوحدة المكونة في هذا الوقت للاهتمام بمبادراتها الخاصة، ويمكن للحكومة الفدرالية استخدام الاختصاص المتلازم لتقنين المعايير على المستوى الاتحاد الفدرالي وفي ذات الوقت إتاحة الفرصة للحكومات الإقليمية لتقنين التفاصيل وتقديم الخدمات بطريقة تراعي اختلاف الظروف المحلية وفي واقع لا تصنيف دستوري خاص للاختصاص يحدد سلطة فدرالية لسن (تشريع إطاري) في بعض المجالات على أن تترك للولايات مهمة سن قوانين تناولها بقدر أكبر من التفصيل وبالإضافة إلى ذلك ففي ألمانيا أضاف تعديل دستوري جرى عام 1969م تصنيف (المهام المشتركة) بالنسبة للتعليم العالي وتحسين الهياكل الاقتصادية الإقليمية والتحسين الزراعي والحفاظ على السواحل والتي تشارك فيها الحكومة الفدرالية في النهوض بمسؤوليات الولايات وتجب الإشارة؛ إلى أنه عادة حيثما يتم تعيين الاختصاص المتلازم يحدد الدستور أنه في حالات التنازع بين القانون الفدرالي وقانون الوحدة المكونة

للفدرالية فإن السيادة تكون للقانون الفدرالي وتعد من بين الاستثناءات البارزة حيث تعد معاشات الشيخوخة أحد مجالات الاختصاصات المتلازم ولكن في حالات تنازع القوانين يسود قانون الإقليم على القانون الفدرالي.

وقد مكن ذلك من الحفاظ على نظام المعاشات الخاص بها ومكّن الأقاليم الأخرى من قبول الاختصاص الفدرالي للمعاشات.

ويعد الدستور العراقي، الذي تمت الموافقة عليه في الاستفتاء الذي جرى في شهر أكتوبر 2005م فريدا من نوعه من حيث زيادة مساحة الاختصاص المتلازم والتي يسود فيها القانون الإقليمي على جميع مجالات الاختصاص المتلازم تقريبا ويجب الإشارة إلى إنه في معظم الاتحادات الفدرالية؛ ولاسيما تلك التي تم إنشاؤها من خلال تجميع وحدات كانت منفصلة فيما سبق؛ يتم منح السلطة المتبقية لحكومات الوحدات المكونة للفدرالية؛ ومن أمثلة ذلك الولايات المتحدة الأمريكية واستراليا والنمسا وألمانيا وماليزيا ولكن في بعض الاتحادات الفدرالية؛ فإنه عادة حيثما تتميز عملية التكوين الفدرالي بتعويض السلطة من نظام غير فدرالي - مركزي - يتم ترك السلطات المتبقية في يد الحكومة الفدرالية ومن أمثلة ذلك كندا والهند واتحاد الملايو الفدرالي السابق.

وفي بعض الاتحادات الفدرالية يوفر الدستور للحكومة الفدرالية سلطات خاصة للسيادة أو الطوارئ بحيث تتجاوز أو تحد في بعض الظروف من السلطات الدستورية الممنوحة للأقاليم في الأحوال الطبيعية وقد كان ذلك نتيجة للمخاوف التي اعترت مؤسسيها بشأن احتمالات التعرض للتفكك وتوجد الأمثلة الأشمل لهذه السلطات في الدستورين الهندي والماليزي؛ بيد أن الدستور الكندي أيضا يتضمن مثل هذه السلطات (مثل سلطات التحفظ والمنع؛ والسلطة التفسيرية).

الخاتمة:

الدول الفدرالية في العالم، ليست على قلب واحد فلكل دولة اعتباراتها السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية ...الخ وهذا التنوع يسمى بالمرونة والقدرة على التطور والاستمرار؛ وفي اليمن ستتكون دولة فدرالية لا شك لها سماتها وخصائصها ومبرراتها التي فرضتها وحتمتها؛ وفي ذلك دون ريب ثراء وإثراء للنظام الفدرالي الذي سيؤثر في التجربة اليمنية مع الفدرالية وسيتأثر بها.

المراجع:

1. مقدمة عن الفدرالية؛ منتدى الاتحادات الفدرالية كندا 2007م.
2. رونالدل واتس، ترجمة غالي برهومة ومها بسطامي ومها تكال، الأنظمة الفدرالية» منتدي الاتحادات الفدرالية؛ طبعة خاصة؛ المعهد الديمقراطي الوطني، كندا 2006م
3. د. قائد محمد طربوش، التجارب الوحدوية في العالم العربي كونفدرالية فيدرالية اندماجية -2004 1922م تحليل قانوني مقارن، المكتب الجامعي الحديث.
4. د. عبد الغني بسيوني عبد الله، النظم السياسية والقانون الدستوري، منشأة المعارف، الاسكندرية 1994م.
5. أمين محمد المقطري، شكل الدولة الأنسب لتعزيز الحكم الديمقراطي في اليمن، ورقة قدمت للمؤتمر العام لدعم مؤتمر الحوار الوطني والنقاش حول إصلاح الدولة في اليمن وجهة نظر حقوقية قانونية؛ نظم المؤتمر مركز المعلومات والتأهيل لحقوق الإنسان وملتقى النساء والشباب ومنظمة برجوهوف، صنعاء 31 أغسطس الى الأول من سبتمبر 2013م.
6. جورج اندرسون، ترجمة مها تكال، الفكر القانوني في النظام الفيدرالي، سبتمبر 2014م.
7. محمد رفعت عبدالوهاب مبادئ النظم السياسية منشورات الحلبي الحقوقية، بيروت، لبنان، 2002م.
8. البرفسور رفيق سليمان، وصافية زفنكي، الفيدرالية ومشكلاتها التطبيقية في العالم المعاصر ، المركز الديمقراطي العربي ، برلين ، المانيا الطبعة الأولى 2021م.
9. د. يحيى قاسم علي سهل، المجتمع المدني في عدن، 1839 1967-م ، مكتبة ومركز الصادق للطباعة والنشر والتوزيع صنعاء ، 2014م.
10. ملخص المقترحات الدستورية، للجنوب العربي 1966من الناشرون، اتحاد الجنوب العربي.

التحديات البنيوية أمام تحقيق المواطنة المتساوية في اليمن

أ. عيبان محمد عبدالرحمن
باحث وناشط مدني

المواطنة المتساوية مفهوم حديث نسبياً، ظهر بالتزامن مع التحولات الثورية التي شهدتها أوروبا في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، التي نقلت الفرد من موقع الهامش إلى قلب العملية السياسية والاجتماعية، وبذلك اكتسب الإنسان صفة المواطن، لأنه أصبح كائناً حراً يتمتع بالأهلية السياسية والقانونية، أي يتمتع بجميع الحقوق ويؤدي الواجبات، ويمنح ولائه التام للدولة الحديثة، دولة العقد الاجتماعي.

لم تعرف اليمن مفهوم المواطنة المتساوية إلا في نهاية ستينيات القرن العشرين بالترافق مع نشوء الدولة الحديثة، وإصدار الدستور والقوانين الوطنية المنظمة لحقوق المواطنة.

وبدلاً من أن تكون هذه النشأة المتأخرة للمواطنة المتساوية في اليمن قياساً بالعالم دافعاً لتجسيدها، والحرص على تقليص الفجوة الزمنية والحضارية التي تفصلنا عن الآخرين، إلا أن واقع الممارسة يشير بخلاف ذلك، إذ وقفت ولا تزال تقف عوائق وتحديات بنيوية أمام تحقيق المواطنة المتساوية في اليمن.

هذه المادة هي محاولة متواضعة للوقوف على أبرز تلك التحديات.

المواطنة المتساوية (Equal Citizenship):

هي تلك العلاقة بين الفرد والدولة كما يحددها القانون، وبما تتضمنه من حقوق وواجبات. وتعد قيمة المساواة جزءاً أصيلاً في المواطنة، فهي التي تجسد مضامينها.

وتقتضي المواطنة المتساوية أن ينظم القانون العلاقات بين الأفراد فيما بينهم البين من جهة، وبينهم وبين الدولة على قاعدة الحصول على الحقوق وأداء الواجبات بكيفية معيارية واحدة.

فالمواطنون والمواطنات أمام القانون متساوون، ولا فرق بينهم على أساس اللون أو الدين أو المعتقد أو المذهب أو اللغة أو المنطقة أو النوع الاجتماعي أو الموقع الاقتصادي أو الموقع الطبقي أو المكانة الاجتماعية أو غير ذلك.

التحديات البنيوية (Structural Challenges):

يقصد بالتحديات البنيوية هي تلك المعوقات أو الصعوبات السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية التي تتصل بالنظام الاجتماعي الكلي، وتحول دون تحقيق المواطنة المتساوية، مما يتطلب الاستجابة لهذه التحديات وتجاوزها.

ويمكن إجمال تلك التحديات فيما يتعلق باليمن على وفق ألآتي:

أولاً: التحديات السياسية:

1. الاستبداد السياسي:

عانى المجتمع اليمني لعقود طويلة التسلط السياسي، واحتكار النخب الحاكمة لمصادر القوة في المجتمع. فقد عَمَدتْ تلك النخب إلى إخضاع المجتمع عبر السيطرة الخشنة (Solid Control)، والسيطرة الناعمة (Soft Control).

وتتحقق السيطرة الخشنة من خلال وسائل القوة المادية (Physical Force) مثل: الجيش، والشرطة، والمخابرات ...إلخ، بينما تتجسد السيطرة الناعمة الهيمنة الثقافية (Cultural Domination)، من خلال توظيف الإعلام، والتعليم، ووسائل النشر الثقافي المختلفة لتطويع عقول المواطنين بما يخدم بقاء واستمرار النخبة السياسية الحاكمة.

إن النظم الاستبدادية لا ترى في المواطن الحر، المواطن الذي ينشط بفاعلية في

المجال العام إلا خصماً لها، ومصدر تهديد مباشر لاستمراريتها، ولهذا فإنها لم تدخر جهداً في محاصرته ومراقبته وكتم أنفاسه وتدجينه وتطويعه بشتى السبل، لأن المواطن المسلوب في إرادته والمُستَلب في وعيه هو الشرط الموضوعي لاستمرار تسلّطها السياسي.

لقد فات على ذهنية هذه النظم الاستبدادية أن السير في هذا المنحى يؤدي حتماً إلى انفجارات اجتماعية يصعب السيطرة عليها، وها نحن نعيش المآل الكارثي منذ 8 سنوات. فقد تحولت اليمن إلى مسرح للجماعات (الهوياتية) المتصارعة، ودخلت في نفق مظلم ينذر بالتفكك والتشرذم إلى دويلات متناحرة.

2. هشاشة البنى الحزبية ومنظمات المجتمع المدني:

يعتبر (أنطونيو غرامشي) الحزب السياسي بمثابة "العقل الجماعي". فالأحزاب السياسية تلعب دوراً هاماً في رفع الوعي السياسي للمواطنين، وتمثل القناة الرئيسة للمشاركة السياسية الديمقراطية، وتعزيز قيم الحداثة، والمواطنة، والانتماء الوطني، والاختيار الطوعي الحر. فالأحزاب السياسية هي هياكل تنظيمية حديثة، ينتمي إليها الفرد بشكل طوعي، على خلاف القبيلة أو الطائفة أو المنطقة أو العائلة التي تعد تنظيمات اجتماعية أولية ينتمي إليها الفرد بصورة غير طوعية تحت اعتبارات مكان الولادة، أو الدين، أو المعايير الاجتماعية.

كما أن تنظيمات المجتمع المدني تُعدُّ قنوات حديثة لتنظيم المواطنين، وتنمية وعي الأفراد وقدراتهم، وخدمتهم وتعزيز مصالحهم المشتركة.

غير أن واقع حال الأحزاب السياسية ومنظمات المجتمع المدني في اليمن على نقيض ذلك، فهذه التنظيمات تعاني من ضعف كبير في بُنَاها، وفي أدائها، فهي مُعرّضة غالباً لاختراقات السلُّط السياسية والاجتماعية والدينية، فبعض الأحزاب والمنظمات تعمل بذهنية الجماعة الدينية أكثر من ذهنية الحزب السياسي، وبعضها الآخر كانت ولا تزال بمثابة ذراع للسلطة أو القبيلة في السيطرة على المواطنين؛ عوضاً عن أن تكون معبّرة عن همومهم ومدافعة عن مصالحهم.

والأحزاب السياسية ومنظمات المجتمع التي نَجَتْ من هذه المثالب، وقعت في مثالب أخرى؛ تتمثل بتقادم نظمها ولوائحها الداخلية وآليات عملها التي تقف حائلاً أمام التجديد، وإمكانية خلق بديل وطني ديمقراطي يتجاوز الاستبداد

السياسي والتخلف الاجتماعي، باتجاه انبثاق مجتمع المواطنة المتساوية.

3. ضعف المشاركة السياسية:

ترتبط المشاركة السياسية بالمواطنة المتساوية ارتباطاً عضوياً، فهي من جهة تجعل من كل مواطن مشاركاً فاعلاً، يمتلك خصوصية فردية، وله كيان خاص يحمل في طياته تطلعات ورغبات إنسانية. ومن جهة ثانية تحقق مبدأ المساواة، حيث يحصل الجميع على الحقوق نفسها، كما يخضع للقواعد والقوانين نفسها، ومن جهة ثالثة تمكّن أفراد المجتمع من تحمُّل المسئولية تجاه مصيرهم الجمعي، والإسهام في بناء أوطانهم وفقاً لقدراتهم وكفاءاتهم الذاتية.

ولكننا في الحالة اليمنية، نجد أن المشاركة السياسية للمواطنين في أسوأ حالاتها، ويرجع ذلك إلى تسلط الجماعات المسيطِرة، ومصادرتها المجال العام، وممارسة العنف السياسي والاستبعاد الاجتماعي للمواطنين، فضلاً عن فقدان ثقة المواطنين بالأحزاب السياسية التي أخفقت في أن تكون المعبّر عن تطلعاتهم نحو مجتمع الديمقراطية التشاركية والعدالة الاجتماعية.

وفي ظل معادلة مختلَّة كهذه، فإنه من المتوقع سقوط المواطنين في مصيدة الإحباط وغياب المعنى، والعزوف عن المشاركة السياسية.

4. ضعف سيادة القانون وغلبة العرف الاجتماعي:

تُعدُّ سيادة القانون من الركائز الأساسية لدولة المواطنة المتساوية، فالقانون هو المنظِّم لحياة المجتمع والدولة، وهو السياج الذي يحمي الأمن والاستقرار وحقوق الإنسان؛ غير أن الواقع اليمني يشير بخلاف ذلك. حيث تكتسب الأعراف الاجتماعية قوة مادية في الأوساط المجتمعية بما يفوق في غالب الأحيان قوة القانون، ويعود ذلك إلى أسباب عديدة، منها غياب الإرادة السياسية لدى القائمين على السلطة بتطبيق القانون وإنفاذه.

وهناك سبب آخر يتعلق بطبيعة البنية الاجتماعية، إذ تشكّل القبيلة نسقاً رئيساً فيها، وهو ما يتيح للنخبة القبيلية "المشائخ" احتكار تمثيل قطاعات واسعة من السكان أمام الدولة، وإخضاع المجتمعات المحلية للنخبة الحاكمة، وتصبح علاقات الإخضاع والسيطرة هي العلاقات السائدة في المجتمع الأمر الذي يقلل

مـن فـرص تحقيـق المواطنـة المتسـاوية.

ثانياً: التحديات الاجتماعية:

1. بنية اجتماعية رعوية:

تتصـف البنيـة الاجتماعيـة في اليمـن بأنهـا بنيـة تقليديـة رعويـة تقسّـم النـاس إلى "سـادة وأتبـاع" و"مشـائخ ورعيـة"، وترتكـز عـلى روابـط عصبويـة: قبليـة وطائفيـة ومناطقيـة وعائليـة وسـلالية، بخـلاف البنيـة المدنيـة الـتي قوامهـا المواطنـة المتسـاوية حيـث النـاس متسـاوون أمـام القانـون وينصهـرون في إطـار الهويـة الوطنيـة الجامعـة.

إن جـذر أزمـة المواطنـة المتسـاوية في المجتمـع اليمـني تكمـن في شـكل العلاقـات الاجتماعيـة والسياسـية المتمثلـة في وجـود أشـكال توسـطية "كزعمـاء القبائـل والطوائف" الـتي تقـف حائـلاً أمـام إمكانيـة بنـاء علاقـة مبـاشرة تربـط المواطـن بمؤسسـات الدولـة.

فالمواطنـة تقتـضي محـو كل الأشـكال التوسـطية وتفتيـت كل عصبيـة "وحـدة اجتماعيـة" سـواء أكانـت طائفيـة، أم قبليـة، أم عائليـة، أم جهويـة، أم مناطقيـة، لصالـح "الفرديـة"، حيـث يشـكّل المواطـن الفـرد نـواة المجتمـع، وهـو شرط أسـاس وأوّلي في سـبيل تحقيـق مجتمـع المواطنـة المتسـاوية.

2. التفاوت الاجتماعي الشامل:

إن التفـاوت الاجتماعـي هـو النقيـض الموضوعـي للمواطنـة المتسـاوية، ويتخـذ التفـاوت الاجتماعـي في الحالـة اليمنيـة صـوراً مختلفـة، أبرزهـا:

- التفـاوت عـلى أسـاس الـثروة: إذ تسـيطر الأقليـة عـلى الـثروة، فيمـا الأغلبيـة الـتي تشـغل قاعـدة الهـرم تعـاني الفقـر المدقـع.

- التفـاوت عـلى أسـاس المكانـة الاجتماعيـة: إذ تحتـل بعـض الفئـات الاجتماعيـة موقعـاً اجتماعيـاً مرموقـاً إمـا بسـبب قربهـا مـن السـلطة الحاكمـة، أو بسـبب تمتعهـا بامتيـازات "الرأسـمال الرمـزي" والأصـل الاجتماعـي، فعـلى سـبيل المثـال: تشـغل بعـض الشرائـح الاجتماعيـة كشريحـة السـادة مركـزاً اجتماعيـاً متقدمـاً بسـبب ادعاءهـا الانتسـاب لآل البيـت، أو شريحـة المشـائخ الـتي تحتـل مكانـة اجتماعيـة عليـا بحكـم أنهـا تمثـل المرجعيـة الاجتماعيـة التقليديـة في المجتمـع. وعـلى النقيـض مـن ذلـك يحتـل المهمشـون "الاخـدام" مرتبـة دنيـا في السـلم الاجتماعـي بسـبب التميـز

الاجتماعي الذي يمارسه المجتمع عليهم وانتقاصه من آدميتهم، فيعمل على تنميطهم، ويسند لهم الأعمال المحتقرة اجتماعياً كتنظيف الشوارع ورفع القمامة والمخلفات، ومسح الأحذية... إلخ.

- التفاوت بين المركز والأطراف: إذ تستأثر عاصمة الدولة بالمشاريع التنموية والخدمية والبنى التحتية فيما تحرم بقية البلاد من تلك المشاريع وهو ما يولد إحساس بالغبن والضيم لدى أبناء المناطق الأخرى وتسبب حالة من الاضطراب والفوضى يفقد معها المجتمع القدرة على التطور والتقدم.

- التفاوت بين الريف والحضر: هناك فجوة كبيرة بين المناطق الحضرية والمناطق الريفية، وكأننا إزاء عالمين مختلفين، ففي الوقت الذي تتركز الخدمات والمؤسسات الحكومية وفرص العمل في المناطق الحضرية، يُحرم الريف من كل ذلك. إذ يعاني سكان المناطق الريفية من غياب خدمات المياه والكهرباء والتعليم والصحة ووعورة الطرق، ومن فرص العمل حيث لا تتوفر إلا بشكل موسمي، في موسم الزراعة فقط وبشكل محدود لا يغطي الأعداد الهائلة من سكان الريف، مع العلم أن الريف يشكل نسبة 65 إلى 70% من إجمالي سكان اليمن، وهو ما يدفع بشباب الريف وفقرائه إلى الهجرة إلى المدن بحثاً عن فرص عمل، وغالباً ما تكون هذه الهجرات بأعداد كبيرة، وكأنها موجات من النزوح القسري بسبب ضآلة مقومات الحياة في الريف، وينتج عن هذه الموجات الكبيرة من الهجرة تكدّس المهاجرين الريفيين في أحزمة السكن العشوائية في المدن، وهي مناطق تنتشر فيها الأوبئة وتكدّس المخلفات والافتقار للصرف الصحي والخدمات العامة، بالإضافة إلى أنها تعمل على تشويه البيئة الحضرية، وتعيق عملية الاندماج الاجتماعي، من خلال تحول هذه الأماكن إلى ما يشبه "كانتونات مناطقية"، يضم كل "كانتون" أو حي أبناء قرية أو مديرية واحدة، وهو ما يمثل كابحاً كبيراً أمام تجسيد المواطنة كعملية تفاعل اجتماعي بين مواطنين ـ أفراد.

ثالثاً: التحديات الاقتصادية:

1. الاقتصاد الريعي:

يعتمد النظام الاقتصادي الريعي بشكل رئيس على استخراج الثروة الجاهزة (النفط والغاز) من باطن الأرض، أي إنه اقتصاد غير إنتاجي، لا يساهم فيه

المجتمع بدور قيادي، بل يظل رهناً لمصالح النخب المسيطرة المتواشجة مع مصالح الشركات الاحتكارية الأجنبية، وهو ما يعني ترسيخ واستمرار العلاقات (الرعوية) على حساب علاقات المواطنة. إذ إن أسلوب تحديد المواقع الاجتماعية لكلٍّ من الفرد والجماعة لا يتحدد موقعهما الاجتماعي ويكتسبا قيمتهما الاعتبارية ومكانتهما الوجودية في المجتمع - كما يفترض - من معايير موضوعية مهنية كالجدارة والإنجاز النابعين من تقسيم عادل للعمل الاجتماعي، بل على النقيض من ذلك تماماً، حيث يتحدد الموقع الاجتماعي للفرد أو الجماعة الاجتماعية بناءً على معايير أولية فاسدة: كالقرابة الأسرية، أو العشائرية، أو القبلية، أو المذهبية، أو السلالية، أو المصلحية النفعية تعتمد على درجة الاقتراب من دائرة صنع القرار، وعلاقات شخصية تتوقف على القدرات الذاتية التي يبديها الفرد أو ممثل الجماعة الاجتماعية ومواهبه (الفهلوية) في نسج وتشبيك علاقات شخصية اخطبوطية مع كبار المسئولين والمشائخ والنافذين.

2. الفساد المعمم:

إن الفساد الكبير أو المعمم (Grand Corruption) هو الابن غير الشرعي للاقتصاد الريعي، وهذا النمط من الفساد قد تحول إلى هوية بالنسبة للنظام للسياسي، كما ذهب إلى ذلك محقاً المفكر الكبير د. أبوبكر السقاف، بل إنه "مؤسسة" قائمة بذاتها لها قوانينها وقيمها الخاصة، والمفارقة التي تدعو للدهشة أن هذه "المؤسسة" هي "المؤسسة" الوحيدة القائمة في البلد، في الوقت الذي يجري فيه تدمير شامل لمؤسسات الدولة.

لقد استفحل الفساد بصورة مهولة في ظل تحكُّم (سلطة الغنيمة)، التي تزاوج بين ممارسة المسؤولية الحكومية، وممارسة النشاط التجاري، والاستثماري. وتشكّلت شبكة مصالح انتفاعية زبائنية، شملت: مسؤولين حكوميين، وقادة عسكريين، وقادة ميليشياويين، ومشائخ قبائل، ورجال دين، ورجال أعمال، وقادة سياسيين، سعوا إلى مراكمة الثروة والذهاب بها إلى خارج البلاد، لبناء مشاريع استثمارية، وشركات عقارية خاصة.

هذا الوضع يكاد يكون هو الثابت خلال الأربعة العقود الماضية، وإن طرأت بعض التغيرات خلال فترة الحرب، لاسيما نشوء جماعات طفيلية جديدة

واقتسامها بقوة السلاح ثروات البلاد وأموال الشعب؛ وهي تغيرات جزئية لم تغيّر من النهج العام الذي يرى في السلطة "غنيمة" ينبغي الظفر بها إما سلماً أو حرباً.

إن هذا النهج (المافيوي)، هو المدخل لكل المشاكل، وفقدان الاستقرار الداخلي، وعدم شعور المواطن بمواطنته، وفقدان ثقة الناس بالنظام السياسي، وذلك ما يؤدي إلى فقدان شرعية النظام وانهيار الدولة.

3. السياسات الافقارية:

بُعيد حرب 1994 المشؤومة انتهجت الحكومات المتعاقبة سياسات نيوليبرالية من خلال تطبيق ما يسمى "برنامج الاصلاح الاقتصادي والتكيّف الهيكلي"، وكان له مآلات كارثية على الاقتصاد الوطني، فقد دُمِّر القطاع العام بفعل الخصخصة؛ حيث جرى خصخصة ما يزيد عن (65) منشأة صناعية، وتجارية، وزراعية في الجنوب، وتسريح ما يزيد عن (200) ألف عامل وموظف عام، وإحالتهم إلى التقاعد القسري وبأجور متدنية، ورفع الدعم الحكومي عن السلع الغذائية، والمشتقات النفطية، وتعويم قيمة العملة الوطنية. وقد أفضى كل ذلك إلى تآكل الطبقة الوسطى، وتزايد أعداد الفقراء، وتقلص فرص العمل، وارتفاع مستوى البطالة، وتردي مستوى المعيشة، وتدهور الخدمات العامة: التعليم والصحة والكهرباء والمياه والسكن والطرق والبنية التحتية، وهو ما يعني في المحصلة النهائية إهدار حقوق المواطنة، ولاسيما الحقوق الاقتصادية والاجتماعية.

رابعاً: التحديات الثقافية:

1. ضعف الثقافة السياسية الحديثة:

يصنّف عدد من الباحثين أنماط الثقافة السياسية إلى ثلاثة أنماط، هي:

١. الثقافة الرعوية: يبقى الفرد فيها مشدوداً للانتماءات الأولية كالانتماء للقبيلة أو العشيرة أو المذهب أو المنطقة أو العائلة، وهي ثقافة تعيق تحقيق الاندماج الوطني والمواطنة المتساوية.

٢. ثقافة الخضوع: حيث يكون الفرد فيها خاضعاً للسلطة الاستبدادية، فاقد القدرة على التعبير عن رأيه، ولا يتمتع بحقوقه كمواطن.

٣. ثقافة المشاركة: يتحول فيها الفرد من كائن تابع وخاضع إلى كائن حر وفاعل، يتفاعل مع قضايا الشأن العام، ويكون مشاركاً فاعلاً في صنع القرار، وفي عملية التغيير.

من الواضح أن النمطين الأول والثاني يسودان في الواقع اليمني، فيما النمط الثالث غائب، ويعود ذلك لأسباب عديدة، وفي مقدمتها تخلُّف مؤسسات التنشئة الاجتماعية: الأسرة، ومؤسسات التعليم، المؤسسة الدينية ... إلخ، وهي مؤسسات تقوم على ثقافة أبوية، وتكرّس قيم الطاعة، والامتثال، والتبعية، وتعزّز الاتجاهات التي تميل إلى تقدّيس الماضي، وتثبيت واقع الحال، الأمر الذي يستحيل معه تحقيق المواطنة بوصفها علاقة اجتماعية وقيمة حضارية تنزع نحو الحرية، والتغيير، وتحقيق المساواة، والتقدم، والازدهار.

إنّ غياب الثقافة السياسية الحديثة يعني غياب ثقافة الحقوق لدى المواطن، وغياب الشعور بالمسؤولية الاجتماعية، حيث يغيب عن ذهن الفرد أنه صاحب حق، ومادام الأمر كذلك فإنه يستطيع التصرف ضمن حدود هذا الحق من دون استئذان من أحد، مادام يمتلك الحصانة الأخلاقية والحماية القانونية لذلك.

2. التدجين بواسطة التعليم:

يُعدُّ التعليم من أهم قنوات التغيير والتقدم الاجتماعي، ولكن ليس كل تعليم يؤدي إلى التقدم، فهناك التعليم البنكي الذي يقف حجرة عثرة أمام طريق التقدم، ووفقاً لـ "باولو فرايري" يقوم هذا النمط من التعليم على التلقين والتنميط والحفظ والمحاكاة، وبالتالي يصبح وسيلة من وسائل ممارسة القاهرين القهر على المقهورين.

ويدعو (فرايري) إلى التعليم التحرري كبديل للتعليم البنكي، فالتعليم التحرري يكفل تنمية العقل التحليلي النقدي، ويمثل أداة التحرر من أوضاع القهر واللا مساواة، باتجاه خلق مجتمع المواطنة المتساوية.

3. التعصب والإلغاء:

يقوم الوعي العصبوي على نظرة اختزالية للعالم، فهو ينظر إلى الذات نظرة تفضيلية، في مقابل النظر إلى الآخر المختلف نظرة عدائية.

فالـذات هـي مطلـق الكمـال، وعـين الصـواب، وصاحبـة المحجـة البيضـاء والحقيقـة المطلقـة، والآخـر هـو الجحيـم، والـشر، والشـيطان الـذي يسـتحق الإلغـاء مـن الوجـود!

وبذلـك يمثّـل التعصـب عقبـة كأداء أمـام تحقيـق المواطنـة المتسـاوية، الـتي تقتـضي تجسـيد قيـم التعايـش في الخطـاب والممارسـة اليوميـة، ومـا يسـتتبع ذلـك مـن تجسـيد علاقـات التعـاون والتوافـق والتكافـؤ والعيـش المشـترك بـين المواطنـين بمختلـف توجهاتهـم السياسـية ومشـاربهم الفكريـة ومنابتهـم الاجتماعيـة ومواقعهـم الاقتصاديـة، والإقـرار بمبـدأ التعدديـة، والقبـول بالآخـر المختلـف، ومـا يتضمـن ذلـك: التعامـل مـع الآخـر ككيـان لـه هويتـه المسـتقلة لا كمـا نريـده، نحـن، أن يكـون، وبالتـالي الإقـرار بحقـه في النشـاط والتعبـير عـن نفسـه بـكل حريـة.

إشكالية مفهوم المواطنة في الثقافة السياسية العربية

سماح ابو الليل
مدرس العلوم السياسية والقانون

نشرنا في العدد الثاني _ ديسمبر 2022م، من مجلة الناصية، الحلقة الأولى من هذه الدراسة، ونستكمل في هذا العدد نشر الحلقة الثانية والاخيرة منها.

المحور الثالث: الأسباب التاريخية والسياسية والاقتصادية والثقافية والاجتماعية التى تقف وراء هشاشة مفهوم المواطنة فى الثقافة السياسية العربية

إشكاليات المواطنة فى السياق العربى المعاصر:

ما إن يتم طرح هذا المفهوم فى التداول السياسى العربى إلا وتطرح مجموعة من الإشكالات والقضايا، يمكن تقسيمها إلى إشكاليات خاصة على مستوى المفهوم وإشكاليات فى سياق الثقافة السياسية العربية وإشكاليات على مستوى التطبيق.

فعلى مستوى المصطلح، فلفظ المواطنة فى اللغة العربية مأخوذة من كلمة الوطن، أى المنزل أو المكان الذى يقيم فيه الفرد. وإذا كان بعض أهل اللغة قد فهم دلالة لفظ المواطنة على مفهومها الحديث؛ إذ إن (واطن) فى اللغة تعنى مجرد الموافقة وواطنت فلانا يعنى وافقت مراده، فإن آخرين من المعاصرين رأوا إمكانية بناء دلالة مقاربة للمفهوم المعاصر بمعنى المعايشة فى وطن واحد من لفظة (المواطنة) المشتقة من الفعل (واطن) لا من الفعل (وطن) فواطن فلان فلانا يعنى عاش معه فى وطن واحد كما هو الشأن فى ساكنه يعنى سكن معه فى مكان واحد. والمواطنة بصفتها مصطلحا معاصرًا تعريب للفظة (Citizenship) التى تعنى كما تقول دائرة المعارف البريطانية (علاقة بين فرد ودولة كما يحددها قانون تلك الدولة وبما تتضمنه تلك العلاقة من واجبات وحقوق متبادلة فى تلك الدولة،

متضمنة هذه المواطنة مرتبة من الحرية مع ما يصاحبها من مسؤوليات.(1).

وتمثّل مصطلحات (الوطن، المواطن، المواطنة، الوطنية) تعبيرات شائعة يختلط فى معناها الوصف بالقيمة، لكنها تنطوى على إشكاليات اساسية، مصدرها التطور خارج الإطار المعرفى العربى، وتطبيقها على نحو متغاير مع حاجات الناس فى العصر الجديد.

وعلى جانب المدلول، يعد مفهوم "المواطنة" كغيره من المفاهيم السياسية، مفهوم غربى المنشأ والمدلول، أي إن هناك ترابط وثيق بين المفهوم وبين الوسط الحضارى الذى انبثق منه، ومن ثم فإن منظومة المفاهيم لا يمكن أن تقوم بوظائفها على الوجه الأكمل إلا إذا توافقت مع طبيعة المجتمعات التى تتواجد فيها. ومن هنا تنبع أهمية الخصوصية الثقافية للمفاهيم، عن طريق تحرير مضامين المصطلحات واكتشاف مناطق التميز فى معانى ومفاهيم هذه المصطلحات وخصوصا تلك المصطلحات الأكثر شيوعا والأكثر إثارة للجدل بين تيارات الفكر المعاصر، والبعد عن القوالب النمطية واستيراد المفاهيم بدون محاولة تطويعها بما يتناسب مع طبيعة المجتمعات العربية لتتلاءم مع مكوناتها الثقافية والاجتماعية(2).

يرتبط مفهوم المواطنة بشبكة كبيرة من المفاهيم الأخرى، ولعل أبرز المفاهيم ذات الصلة الوطيدة مع مفهوم المواطنة هو كل من مفهوم الديمقراطية ومفهوم بناء الدولة، والجدير بالذكر أن هذه المفاهيم تحمل من مساحات التمايز أكثر من مساحات التباين. وإن كل من هذه المفاهيم حجر زاوية وأحد شرط وجود الأخر.

ويثير مفهوم المواطنة إشكالية كبيرة فى سياق الثقافة السياسية العربية، إذ إن لكل مجتمع خصوصية تعكسها ثقافته السائدة بين أبنائه، تلك الثقافة التى طورتها مجموعة القيم والمفاهيم والمعارف التى اكتسبها عبر ميراثه التاريخى والحضارى وواقعه الجغرافى والتركيب الاجتماعى وطبيعة النظام السياسى والاقتصادى، فضلاً عن المؤثرات الخارجية التى شكلت خبراته وانتماءاته المختلفة، فالثقافة السياسية هى جزء من الثقافة العامة للمجتمع وهى تختلف من بلد إلى آخر. فكل نظام سياسى، عند (ألموند) ((يترسخ حول أنماط محدده من التوجهات التى تضبط التفاعلات التى يتضمنها النظام الاجتماعى، وبالمثل تعتبر الثقافة السياسية بمثابة التنظيم غير المقنن للتفاعلات السياسية))(3).

وفى هذه الإطار تثار قضيتان مهمتان، هما الانتماء والهوية من جانب والمشاركة

السياسة من جانب آخر. ويقصد بالانتماء علاقة نفسية فى المقام الأول، وهو الشعور بمفهوم "النحن"، وتنبثق من ذلك العلاقة بين "النحن" و "الهم". فالانتماء هو شعور الإنسان بالانخراط فى جماعة بشرية ما واعتناقه لرموزها وتقاليدها. هذا الشعور هو الذي يعطيه ذاتية ثقافية وخصوصية ما، كما إنه هو الذي يضع الحدود بين الجماعات الإنسانية(4)

وللانتماء مستويات متعددة منها مستوى الأسرة الممتدة، ومستوى العشيرة والقبيلة، ومستوى الجماعة الدينية أو الطائفية، ومستوى الأمة والوطن. وفى المجتمعات النامية، ومنها العربية، نجد أن قيمة الولاءات التحتية (دون الدولة) تكون أحيانا من القوة بحيث تتنافس مع الولاء للدولة. يبرز هذا بوضوح فى المجتمعات التعددية مثل المجتمع اللبنانى، حيث يعرف المواطن نفسه من منطلق الطائفة التى ينتمى إليها كشيعى، أو كسنى(5).

فلا تزال الأسرة النووية هى الكيان الأساسى الذى يستمد منه المواطن العربى معظم قيمة وتعاليمه، لكن ضعف علاقة انتماء المواطن بالدولة، ليس هو المظهر الوحيد لأزمة الهوية، فهناك بُعد أخر يتمثل فى أن بعض الجماعات ترفض حدود الدولة وتتجه بانتمائها إلى نطاق أوسع، سواء كان قوميا (عربياً) أو أمميا (إسلاميا).

والملاحظة المهمة فى هذا الخصوص، هو أن عدم التناسق بين تلك الدوائر أو الانتماءات (دون الدولة والقومية والأممية) مع الولاء للدولة ذاتها، وغياب وضوح الرؤية لترتيبها قد يؤدى إلى رفع السلاح فى وجه الدولة.

وعليه، فإن التأصيل النظرى لمفهوم المواطنة والانتماء يبين أن المواطنة هى الدائرة الأوسع التى تستوعب مختلف الانتماءات فى المجتمع، كما إنها تضع المعايير التى تلزم الأفراد بواجبات والتزامات معينة تحقق الاندماج والمشاركة فى تحقيق مصالح الأفراد والوطن، ومن ثم تعد المواطنة البوتقة التى تضمن انصهار جميع الانتماءات لصالح الوطن ضمن أطر نظامية، ومن خلال الالتقاء على أرضية المصلحة الوطنية العامة(6).

ومع الاقتراب من قضية المشاركة السياسية، والتى يقصد بها تحديدا الأنشطة الإدارية التى يقوم بها أفراد المجتمع بهدف التأثير فى العملية السياسية. كالتصويت، وحضور المؤتمرات والندوات، ومطالعة الصحف وبيانات الأحزاب وبرامجها، والاتصال بالجهات الرسمية، والانخراط فى المؤسسات الوسيطة مثل

الأحـزاب والنقابـات، والترشـيح للمناصـب العامـة، وتقلـد المناصـب السياسـية. وقـد يلجـأ الفـرد إلى نـوع مـن المشـاركة غـير المشروعـة كالتظاهـر، والاعتصـام، وأعمـال الشـغب عندمـا يشـعر أن الوسـائل القانونيـة غـير ذات فعاليـة(7).

وتصنـف الثقافـة العربيـة بأنهـا ثقافـة ضيقـة وفقـا للتصنيـف الـذى وضعـه (ألمونـد وفيربـا)؛ فالمشـاركة السياسـية فى غالبيـة البلـدان العربية تتصف بالشـكلية، والموسـمية، وعـدم الفعاليـة، إذ إن القـرارات السياسـية عـادة مـا تتخـذ مـن قبـل النخـب الحاكمـة وتـترك للجماهـير العربيـة مهمـة إضفـاء الشرعيـة الصوريـة عليهـا مـن خـلال انتخابـات معلومـة النتائـج سـلفا. كمـا إن ظاهـرة المرشـح الواحـد مسـألة واسـعة الانتشـار فى الواقـع العـربى حـتى فى إطـار النظـم الـتى تأخـذ بالتعدديـة الحزبيـة، ويشـار أيضـا إلى أن المشـاركة السياسـية فى البلـدان العربيـة هـى مشـاركة متقطعـة لا تتخـذ شـكلا منتظمـا، بمعـنى أنهـا ترتبـط أكـثر بعمليـة التعبئـة الاجتماعيـة أثنـاء الأزمـات منهـا بالمبـادرة الفرديـة، بحيـث يعـود المواطـن بعدهـا إلى سـلبيته، وبخاصـة مـع تواضـع دور المعارضـة الفعالـة.

لكـن العلامـة الفارقـة أن السـلو الفعـلى للجماهـير العربيـة شىء ومشـاعرها غـير المعلنـة شىء أخـر، بمعـنى أن الجماهـير قـد تحجـم عـن المشـاركة شـعورا منهـا بعـدم جدواهـا، وهـى قـد تشـارك لا تعبـيرا عـن نـوع مـن الوعـى السـياسى إنمـا مقابـل تلقيهـا خدمـات معينـة مـن المرشـحين بحيـث تصبـح المشـاركة فى هـذه الحـال بمثابـة تزييـف للوعـى السـياسى.

يـرى المنظـرون أن العالـم العـربى قـد بقـى خـارج دائـرة الحداثـة والعقلانيـة ولـم تتوفـر فيـه الـشروط الأساسـية لبنـاء الدولـة، ولعـل أهـم مظاهـر تعـثر تجربـة بنـاء الدولـة مشـكلة الشرعيـة ومشـكلة الهويـة والمسـاواة.

تسـعى الـدول إلى تركـيز علاقـة تربويـة مـع المواطـن أساسـاها الاحتـواء السـياسى عوضـاً عـن المشـاركة وحـق الاختـلاف ولـم يتولـد عـن ذلـك مواطنـة فاعلـة بقـدر مـا اتسـمت العلاقـة بـين المواطـن والدولـة بالحـذر(8).

لـم تتشـكل الأوطـان فى المنطقـة العربيـة نتيجـة تفاعـل عنـاصر ثقافيـة وسياسـية واجتماعيـة كمـا حـدث فى الغـرب بـل تشـكلت نتيجـة قـرارات سياسـية أو بالأحـرى مقايضـات سياسـية مـن قـوى خارجيـة وهـى الـدول الكـبرى بعـد الحـرب العالميـة الاولى، فمـن المعـروف أن دولاً مثـل العـراق وسـوريا ولبنـان وفلسـطين والأردن، قـد تشـكلت تشـكلت بعـد محادثـات (سـايكس و بيكـو) وزيـرى خارجيـة إنجلـترا وفرنسـا

بعد الحرب العالمية الأولى، واتفاقهما على تقسيم المنطقة وفق مصالحهما من جهة، ووفق ترتيبات إقليمية كيهود فلسطين من جانب آخر.

وتُردُّ أهمية موضوع المواطنة في المجتمع العربي إلى عدد من العوامل، أهمها أن هذا المجتمع يتشكل من مجموعات متنوعة من الأعراق والأقليات وتسوده ثقافات فرعية متعددة بالإضافة إلى ثقافته العامة.

فلدينا البربر في المغرب العربي ولهم لغتهم الخاصة وهي الأمازيغية التي اعترف بها أخيرا في المغرب والجزائر لتكون لغة للتعلم بالإضافة الى اللغة العربية. ولدينا الأكراد في المشرق العربي، وهم أيضا لهم لغتهم الخاصة وثقافتهم المتميزة ولدينا المارونيون في لبنان ولدينا في السودان جماعات سلالية متنوعة بالإضافة الى الجنس العربي. ومعنى ذلك إن قضية المواطنة لابد أن تشغل الباحثين العرب وصناع القرار العرب على السواء.

ومن ثم فيمكن القول، أن مفهوم "المواطنة" هو مفهوم ذو مضمون ثقافي وسياسي واجتماعي واقتصادي وديني. ولا يعني فقط فكرة الولاء وحب الوطن، فهي مجموعة من العوامل التي تتضافر وتتفاعل في فترات زمانية متوالية. ويمكن القول إن الفكر القومي العربي الذي قاد المنطقة العربية في المائة السنة الماضية قد أعاق ترسيخ مفهوم المواطنة لدى شعوب المنطقة، وذلك لعدة أسباب:

1) عدم القدرة على تحديد عوامل بناء الأمة واللجوء إلى الروابط التحت قومية من طائفية وقبلية والاعتماد عليها من أجل إحكام السيطرة على شعوب المنطقة.

2) فشل القيادات القومية العربية في إنشاء روابط جديدة لبناء الأمة، لتتغلب على التقسيم السياسي للدول العربية الذي تمَّ دون اعتبار لأي قيم ودون مراعاة للمعايير الموضوعية عند تقسيم هذه الدول.

3) عملت القيادات العربية على تدمير الكثير من الروابط القديمة، حينما ألغت دور الدين في بناء الأمة، والاعتماد على عنصرى اللغة والتاريخ المشترك، على الرغم من أهمية الدين كمكون أساس في ترسيخ مفهوم المواطنة(9).

4) تجاهل الخصوصيات الثقافية الفرعية العربية لإضفاء سمة التشابه بين كل المجتمعات العربية وإغفال الفروق المميزة لبعض الجماعات الفرعية دفعتهم إلى عدم المناقشة الصريحة لوضع أبناء هذه الجماعات باعتبارهم مواطنين لهم جميع الحقوق مثلهم في ذلك مثل المواطنين الذين ينتمون الى الأغلبية بغض النظر عن الاختلاف في العرق أو الدين.

5) الخطابات الراديكالية والأفكار المتطرفة والتى عملت على خلق أقطاب متنافرة داخل الأمة ما بين مفهوم "التخوين" و"التكفير"، والمتتبع للتاريخ العربى يستطيع أن يميز بين مرحلتين من الفوضى تنقلت بينهما المنطقة بعد حرب فلسطين، الأولى فوضى الخمسينات والستينات من القرن الماضى بما شهدته من الاختراق على الشعارات القومية، وشعار هذه الفترة هو "التخوين"، والثانية فوضى المشروع الدينى أو الإسلام السياسى الذي تشهده المنطقة الآن التي جعلت شعارها التكفير. وظلت المنطقة تتأرجح ما بين الشعارين، على أن الأزمة الحقيقة تتجلى فى المنطقة العربية خاصة فى مرحلة ما بعد الثورات العربية، وقد تحدث عن هذا المفهوم الدكتور (وحيد عبدالمجيد) فتحدث عبد المجيد «عن إنه إذا اجتمعت الحالتان (احتكار الوطنية واحتكار الدين) فى لحظة تاريخية واحدة، يصبح العقل فى أزمة خطيرة. والحقيقة إن مفهوم التخوين ومفهوم التكفير هما وجهان للعملة نفسها بكل ما تنطوى عليه من إرهاب وما تؤدى إليه من تسميم المجتمع وتدمير العقل، فالاتجاه الذي يحترف تخوين المختلفين فى الرأى، وتشويههم لعجزه عن مناقشتهم، وهذا التخوين القائم على ادعاء احتكار الوطنية لا يقل ضحالة وخطرا عن التكفير القائم على زعم احتكار الدين(10).

يثير مفهوم المواطنة عدد من الإشكاليات فى السياق العربى المعاصر خاصة بعد ثورات الربيع العربى، منها:

1) المواطنة والدين والشريعة والأقليات:

تعتبر قضية العلاقة بين الشريعة والمواطنة من المسائل المركبة لا باعتبار الجمع بينهما على صعيد واحد، ولكن باعتبار ما حُملتْ فيه قضية الشريعة ومسألة المواطنة بما لا تحتمل، وأدى ذلك إلى تصور حقيقية هذه العلاقة ضمن رؤى تفترض تناقضا فى العلاقة بين الشريعة والمواطنة، على الرغم من أن قضية الشريعة تنتمى إلى دائرة المرجعية والقواعد المتعلقة بالنظام العام، بينما قضية المواطنة ترتبط بأسس المرجعية (المعاش الواقعى) التى تتعلق بالواقع الذى يجمع المواطنين ضمن وطن واحد وحالة من المواطنة؛ ترتب أصول التعامل ضمن قاعدة المساواة العامة فى الحقوق والواجبات.

ومن الضرورى أن نحدد منهج النظر للعلاقة بين المواطنة والشريعة، ضمن

دوائر عدة تتراوح بين التراحم والتزاحم والتصادم، فقد يرى البعض إن الشريعة والمواطنة صنوان، وقد يرى البعض الآخر أن العملية السياسية لا تتسع لكلاهما ولكل مجاله، بينما يرى فريق ثالث أن الشريعة والمواطنة مفترقان/ متمايزان، ويتبنى رابع أن الشريعة والمواطنة متصادمان متنافيان، وذلك ضمن ضغوط تتعلق بواقع يعيش فيه النظام الاستبدادى على توليد الاختلافات بين طوائف الأمة واستغلال ذلك الخلاف لمصالحة الاستبدادية، صناعة الخلاف والاختلاف عملية يقوم بها النظام السياسى الاستبدادى ضمن عمليات متراكمة، فتفتعل خلافًا، وتختلق اختلافًا، وتؤجج تناقضًا، بحيث تصرف النظر عن جملة القضايا الحقيقية التى ترتبط بكيان المواطن والإنسان، وتتعلق بحقوقه المهدرة، وكيانه المهدور.

ولا يمكن التعارف على المبادئ التأسيسية التى تتعلق بالشريعة إلا فى إطار منظور عام وكلى يرتبط أول ما يرتبط بالمقاصد الكلية العامة للشريعة، وبما يحدد العلاقة بين الدينى (الشريعة) والسياسى (المواطنة)، والشريعة فى مبادئها (مرجعية النظام العام)، والمواطنة فى جماعتها السياسية (جماعة المواطنين عبر الوطن)، هذه الرؤية هى التى تكشف مسار ووسط العلاقة بين حقائق التأصيل ومداخل التزييف، والذى يتخذ مسارات عدة، وتوجهات تحمل فى طياتها أحكام وتعميمات تحتاج فى حقيقتها إلى مراجعة وتأمل، من مثل أن الدينى لا علاقة له بالسياسى، الخلط بين تأثير الدينى الجوهرى والحقيقى فى الاجتماع الإنسانى وعمليات تسييس الدين وتوظيف قدراته، الشريعة بين الفرض والرفض، الشريعة ومداخل الأقلية والطائفية، الدستور بين الوحدة الكيانية وصراع الموارد وفكرة التوازنات.

وقد تكون هذه القضايا جميعها خاصة فى حال تشوشها وتشوهها، تعانى ضمن سياق عام من التضمينات السلبية والتى تولد كثيرًا من تلك الهواجس، هذا السياق قد يؤثر تأثيرًا سلبيًا أو إيجابيًا فى سياق تراكمات معينة على النظر للجماعة الوطنية والسنن التى تؤدى إلى تماسكها والنظر فى تلك الأمور التى تؤدى إلى تفككها، وهو يشكل سياقا تاريخيا يجب النظر فيه، والتعامل معه بدقة وحساسية ورؤية، كذلك يجب أن يؤخذ فى الاعتبار السياق الإعلامى ولغة الخطاب السائدة التى تحتوى على مفجرات ومفخخات، وكذلك البحث فى السياق عن تلك المداخل التربوية والتثقيفية التى تحيط بهذه العملية التى تشكل شروطًا لتأسيس

الجماعـة الوطنيـة وتشـكيل وعيهـا.

كمـا إن هنـاك بعـض المهتمـين بهـذا الأمـر ممـن أضـاف إلى ملـف الطائفيـة معالجـة جديـدة لا تقـل خطـرا عـن المعالجـة الأمنيـة السـائدة فى التعاطـى مـع هـذا الملـف، فبعـد أن كانـت المعالجـة الأمنيـة هـى فقـط الـتى تسـيطر عـلى معالجـة ملـف الفتنـة الطائفيـة أضـاف البعـض المعالجـة بالفتنـة الـتى قـد تزيـد الأمـور اشـتعالاً، ومـن هنـا وجـب علينـا أن نضـع الأمـور فى أحجامهـا الحقيقيـة مـن دون إقحـام الديـن مـن غـير ميـدان واللجـوء إلى خطـاب الاسـتنجاد والاسـتغاثة وكأننـا نولـول عـلى انتهـاك حـق هنـا أو حـق هنـاك بسـبب الديانـة أو مـا شـابه ذلـك، أصبـح هنـاك مـا يمكـن تسـميته معالجـة فتنويـة لكثـير مـن الأحـداث والـتى يمكـن أن تنتمـى إلى دائـرة العلائـق الاجتماعيـة والاقتصاديـة حيـث يُقحـم الديـن فيهـا ومـن أقـرب طريـق(11).

2) المواطنة والحرية والمسئولية:

تحتـاج الحريـة، ضمـن مـا تحتـاج إليـه بالـضرورة، إلى إطـار دسـتورى يقرهـا نصًـا، ويصـون احترامهـا تطبيقًـا. وحيـث أن الدسـتور موسـوم بطبيعتـه بالسـمو والعلويـة، فقـد نيطـت بـه فى كل التجـارب الديمقراطيـة، وظيفـة إخضـاع الجميـع، أفـرادا وجماعـات ومؤسسـات، لأحكامـه ومقتضياتـه، كمـا أن الحريـة تتحقـق حـين يضمـن مبـدأ فصـل السـلطات ويحـترم عـلى صعيـد الممارسـة، علمـا أن ديمقراطيـة الدسـاتير لا تُقـاس بمـدى إقرارهـا للحقـوق والحريـات فحسـب، بـل تتحـدد أيضـا بدرجـة حرصهـا عـلى تأكيـد الشرعيـة الدسـتورية، أي جعـل مـا هـو مـدرج فى بـاب الحقـوق والحريـات، محترمـا عـلى صعيـد التطبيـق والممارسـة؟(12).

تتعلـق المواطنـة فى علاقتهـا بالحريـة بالمسـئولية الاجتماعيـة، وتتضمـن المسـئولية الاجتماعيـة العديـد مـن الواجبـات عـلى الفـرد مثـل: احـترام القانـون، واحـترم حريـة وخصوصيـة الآخريـن، وغيرهـا مـن الواجبـات. وتعـد المسـئولية الاجتماعيـة بنيـة مـن الواجبـات والحقـوق تحـدد السـلوك الـذى ينبغـى أن يطرقـه الفـرد تجـاه المجتمـع. فالمجتمـع يشـكل الإطـار الشـامل الـذى تسـعى كافـة الأطـراف لأداء مسـئولياتها الاجتماعيـة بهـدف تأكيـد بقائـه واسـتقراره. وبالتـالى فإطـلاق الحريـات دون قيـود يـؤدى بشـكل حتمـى إلى الفـوضى مـن خـلال الاسـتخدام العشـوائى لهـذه الحريـة. فهنـاك قيـم معنويـة تعتـبر أساسـا لمشروعيـة حريـة الـرأى والتعبـير، وبسـبب مخالفـة هـذه

القيم ظهر تجريم الانحرافات الناتجة عن هذه الحرية، فالفرد حر ولكن ليس له حرية إلحاق الضرر بالآخرين، والحرية في ظل المجتمع السياسي هي حرية في ظل القانون، وهي بالتالي مقيدة بالقانون(13).

3) المواطنة والمساواة والعدالة:

مما لا شكَّ فيه أن جوهر المواطنة هو المساواة أمام القانون، واعتبار المواطن تحت حماية الدولة بشكل متساو مع الجميع طبقًا للقانون، فمضمون هذه المواطنة يدور حول كيفية اكتساب الحقوق وكيفية ممارستها. لذا فلمفهوم الأوسع للمواطنة هو المرتبط بفكرة المساواة وعدم التمييز وقبول التنوع والاختلاف وانعكاسها في حزمة الحقوق الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والمدنية التي يجب أن يتمتع بها المواطن، وتجاوز النظر إليه من زاوية ضيقة تحصره في حل الصراعات أو المشكلات بين المختلفين.

فمن البديهي أن يترتب على المواطنة إقرار قيمة المساواة القانونية بين جميع المواطنين، وانتماء المختلفين دينيًا أو عرقيًا وإثنيًا إلى وطن واحد يدينون له بالولاء ويتضح الارتباط العضوي بين فاعلية المواطنة على مستوى الممارسة وبين شرعية النظام السياسي القائم، فكلما كانت قدرة النظام كبيرة على مواجهة مشكلات المواطنة وإيجاد حلول لها، وكفالة تمتع أكبر عدد ممكن من المواطنين بها، زادت قدرته على الاستمرار، وتداعمت شرعيته السياسية، واتسع نطاق الرضا الاجتماعي عنه، والعكس صحيح. وكما هو واضح، فإن المواطنة تنتقل من مجرد كونها توافقًا اجتماعيًا سياسيًا تجسده نصوص قانونية لتصبح قضية المساواة بين المواطنين في الحقوق والواجبات هي القيمة العليا في المجتمع(14).

وبالتالي، فوجود فجوة بين النصوص التشريعية والقانونية، والواقع أو التطبيق الفعلي، يؤدي إلى الإحساس بالتهميش وغياب الدور الذي يمكن أن يقوم به الأفراد ويتمتعون به داخل مجتمعاتهم، وذلك لأن القيمة المحورية التي تقوم عليها المواطنة هي "قيمة المساواة"، لذلك فمن المهم التأكيد على عدم وجود فجوة بين ما هو موجود في الدساتير والنصوص والمبادئ التشريعية وبين الممارسة العملية والفعلية في واقع الحياة وخاصة بالنسبة لتطبيق العدالة والمساواة في توزيع الثروة وخطط التنمية وعوائدها سواء بين الفئات الاجتماعية

أو بين النطاقات الجغرافية فى البلد الواحد. وبناء على ذلك، لا تكتمل المواطنة إلا إذا تحقق شرط المساواة فى الحقوق والواجبات بين المواطنين دون تمييز لأى سبب كان؛ فإن واقع الممارسة العملية يشير دائمًا إلى وجود فجوة بين ما يجب أن يكون وما هو كائن، الأمر الذى تشهده كل المجتمعات وإن كان بنسب متباينة فى درجة اتساع هذه الفجوة. وقد تكمن جذور اللامساواة فى نظم التعليم، أو فى بعض النصوص القانونية، أو فى نمط الثقافة السائدة(15).

وتعتبر القوانين مهمة لإدارة العدالة حتى يكون هناك إمكانية لحماية حقوق الأفراد، فهى مهمة لا كغاية فى حد ذاتها، ولكن لأن تطبيقها قيد على المجتمع يمكن عن طريق تحقيقه أن يكون لكل فرد دوره فى المجتمع. فإذا كفت القوانين عن عملها يصبح الأفراد فى حالة فوضى مع عدم وجود نظام أو رابطة أو وضوح رؤية، وبالتالى لا تصبح هناك إدارة للعدالة لحماية حقوق الأفراد، ولا توجد هناك إمكانية لحماية الأفراد والمحافظة على حرياتهم.

حاصل القول، المواطنة باعتبارها الرابط الاجتماعى والقانونى بين الأفراد والمجتمع السياسى الديمقراطى تستلزم - إلى جانب الحقوق والحريات – مسئوليات والتزامات أساسية، لا تقوم للديمقراطية قائمة دونها، وهذه المسئوليات تنقسم إلى نوعين:

مسئوليات تفرضها الدولة على مواطنيها مثل دفع الضرائب، والخدمة فى القوات المسلحة، وطاعة القوانين، ومسئوليات يقوم بها المواطنون طوعًا مثل ممارسة النقد البناء للحياة السياسية والمدنية، والمشاركة فى تحسين نوعية الحياة والدفاع عن الصالح العام والخير المشترك(16)

إن ترسيخ المواطنة وتكريسها لا يرتكز فقط بالدستور والقوانين والتشريعات المختلفة ، ولكن فضلاً عن ذلك، فهو يعتمد بشكل كبير على وجود نوع من أنواع التسامح فى المجتمع والحوار والمشاركة وتقبل الرأى والرأى الآخر وقبول وتقبل التنوع والاختلاف والتعامل التعايش مع هذا الاختلاف، سواء اختلاف ثقافى أو دينى أو مذهبى أو قومى أو طبقى، وغيرها من الاختلافات، فالمواطنة تهدف إلى تحقيق الاندماج بين جميع المواطنين على اختلافهم . هذا بالإضافة إلى العمل على نشر الوعى الفردى والجماعى فى المجتمع، وهذا الوعى يجب أن يرتبط بالحقوق والواجبات، والتأكيد على أن الحرية ليست مطلقة، فالحقوق تتوقف عندما تبدأ حقوق الآخرين، وتتفاعل مع حقوق المجتمع.

الخاتمة:

يمكن أن نسلط الضوء في ختام هذا البحث على مجموعة من النقاط هي:

أن مبدأ المواطنة مفهوم تاريخي شامل ومعقد له أبعاد عديدة ومتنوعة يتأثر بالتطور السياسي والاجتماعي وبعقائد المجتمعات وبقيم الحضارات، ومن هنا يصعب وجود تعريف جامع مانع له. ولكن بالرغم من صعوبة تعريف مبدأ المواطنة، إلا أن ذلك لا يعني بأي حال من الأحوال أن مصطلح المواطنة يمكن استخدامه من دون دلالة ملزمة. فمثله مثل مفهوم الديمقراطية مفهوم يتطلب وجوده إقرار مبادئ والتزام بمؤسسات وتوظيف أدوات وآليات، تضمن تطبيقه على أرض الواقع.

يمكن رصد ثلاثة تحولات كبرى متداخلة ومتكاملة مرت بها التغيرات السياسية التي أرست مبادئ المواطنة في الدول القومية الديمقراطية المعاصرة:

_ أولها: تكوين الدولة القومية.

_ ثانيها: المشاركة السياسية وتداول السلطة رسمياً،

_ثالثها: إرساء حكم القانون وإقامة دولة القانون والمؤسسات(17).

إن المواطنة هي استحقاقات تنال والتزامات تؤدى، فمن حيث هي استحقاقات: احترام التعدد والتنوع والاختلاف، الفرص المتكافئة، سيادة حكم القانون، المساواة ما بين المواطنين. وهي ليست فقط إقرار الحقوق بل هناك التزامات تقع على عاتق المواطن، فهي على سبيل المثال السعي لمعرفة الحقوق، والمثابرة في طلب الحصول عليها، والأهم هي ممارسة هذه الحقوق في إطار الصالح العام.

في ظل الأوضاع في المنطقة العربية، تبقى التربية على المواطنة وترسيخ مبدأ المواطنة في صفوف الأفراد والشباب وتأهيل مؤسساتنا التعليمة من أهم الوسائل البيداغوجية، فالمؤسسات التعليمية تأتي في مقدمة الوسائط التربوية – لاسيما في مراحل التنشئة الأولى – من خلال المقررات الدراسية والأنشطة المدرسية... الخ، التي يمكن من خلالها إكساب الأفراد قيم المواطنة (قيم الحوار، التسامح، العقلانية، الحقوق، الواجبات....ألخ) . إضافة إلى دور الإعلام ومختلف الوسائط المعلوماتية في ترسيخ مبدأ المواطنة(18).

لا يمكن حصر التربية على المواطنة في شكل مادة دراسية فحسب، بل هي أكثر

مـن ذلـك، فهـى نهـج ينبغـى تطبيقـه عـلى صعيـد كل المـواد الدراسـية مـن خـلال تعليـم الناشـئة القـدرة عـلى التعليـل والمناقشـة والحـوار واحـترام الآخـر، وتمكينهـا مـن معرفـة المبـادئ الأساسـية للقانـون، ومعرفـة ثقافـة المجتمـع ونظامـه ومؤسسـاته، وكـذا تدريبهـا عـلى التفكـير فى حـل مشـاكل المجتمـع والبحـث عـن السـبل الناجعـة لتنميتـه وتطويـره عـبر المشـاركة فى مختلـف أبعادهـا الاجتماعيـة والسياسـية.

لا يوجـد مـا يحتـم التصـادم فيمـا بـين الانتمـاءات والـولاءات فى المنطقـة العربيـة، بعضهـا مـع بعـض، فليـس هنـاك مـا يمنـع أن يعـزز المواطـن انتمـاءه إلى جماعتـه اللغويـة، أو المذهبيـة، أو القبليـة بـشرط ألا يكـون انتمـاؤه لدولتـه محـل خيـار أو مفاضلـة، فالمجتمـع الأمريـكى رغـم تعـدد ثقافاتـه إلا إن ولاءه الأول للدولـة، كمـا أن تبـنى فكـرة الوحـدة العربيـة لا ينبغـى أن يكـون مسـوغا للاسـتخفاف بالـولاء للدولـة.

تعـد الدراسـة الـتى قـام بهـا (ألمونـد وفيربـا) فى كتابهمـا "الثقافـة المدنيـة" مـن أهـم الدراسـات الـتى تناولـت مفهـوم "الثقافـة السياسـية" بالتحليـل مـن الناحيـة النظريـة. فقـد اسـتخدما التحليـل النفسـى لتحديـد توجهـات الأفـراد الأساسـية حيـال أربعـة محـكات أو موضوعـات هـى: النظـام السـياسى بصفـة عامـة، والنشـاط السـياسى للمواطنـين مثـل الترشـيح والانتخـاب (جانـب المدخـلات) ، والنشـاط الحكومـى مثـل تقديـم المسـاعدات الاقتصاديـة، وتنظيـم شـؤون الأفـراد ورعايـة مصالحهـم (جانـب المخرجـات)، وأخـيرا تصـور الأفـراد عـن ذواتهـم كمشـاركين فى العمليـة السياسـية.ومن خـلال المـزج بـين هـذه المتغـيرات الثلاثـة يمكـن رصـد ثلاثـة أنـواع مـن الثقافـات السياسـية هـى: ثقافـة سياسـية ضيقـة (parochial)، وتابعـة (subject)، ومشـاركة (participant).

هوامش الجزء الثاني من الدراسة:

(1) سيف الدين عبد الفتاح.

(2) عبد القادر الرن، ص163 ــ 165.

(3) Almond، Gabriel A.، Verba، Sidney The Civic Culture. Boston، MA: (21 . Little، Brown and Company، 1965

(4) على الدين هلال، نفين مسعد، ص284.

(5) المرجع نفسه، ص285.

(6) رويدة دالى خيلية، مرجع سابق، ص93.
(7) على الدين هلال، نيفين مسعد، مرجع سابق، ص286.
(8) للمزيد: شكرى المامنى، مرجع سابق ، ص 51.
(9) عبد القادر الرن، مرجع سابق، ص 161.
(10) للمزيد يُنظر: وحيد عبدالمجيد. ويُنظر: تاج الدين عبدالحق.
(11) طارق البشرى، ص5.
(12) محمد مالكى، ص157-149.
(13) على ليلة، ص3.
(14) على خليفة الكوارى، ص28.
(15) الشيماء عبد السلام.
(16) إبراهيم غانم، ص5.
(17) على خليفة الكوارى، مرجع سابق.
(18) يوسف الكلاخى.

مراجع الدراسة (للجزئين):

1. إبراهيم غانم، الإطار النظرى لعلاقة المواطنة بالتحول الديمقراطى، فى: إبراهيم غانم (محرر)، المواطنة والديمقراطية فى مصر، (القاهرة: المركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية، 2009م.
2. تاج الدين عبدالحق، للخلف در، دار نهضة مصر للطباعة والنشر، القاهرة، 2017
3. خير الدين التونسى، أقوم المسالك فى معرفة أحوال الممالك، مطبعة الدولة لحاضرة تونس المحمية 1284هـ
4. رفاعة رافع الطهطاوى، تخليص الإبريز فى تلخيص باريز: الأعمال الكاملة لرفاعة الطهطاوى، دراسة وتحقيق/ محمد عمارة، بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ج2، 1977م.
5. سمير أمين، فى مواجهة ازمة عصرنا، سينا للنشر، مؤسسة الانتشار العربى، القاهرة، بيروت، 1997م.
6. سمير ساسى، المواطنة فى الفكر الإسلامى المعاصر بين الضرورة والإمكان، مركز آفاق للدراسات والبحوث، مايو 2011.
7. سيف الدين عبد الفتاح، المواطنة فى دولة مسلمة: الإشكالات والتحديات، المعهد المصرى للدراسات، فبراير 2018.

8. سيف الدين عبدالفتاح، الشريعة الإسلامية والمواطنة نحو تأسيس الجماعة الوطنية، في: عمرو الشوبكى (محرر)، المواطنة فى مواجهة الطائفية، (القاهرة: مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية، 2009).

9. سيف عبد الفتاح، الزحف غير المقدس: تأميم الدولة للدين، (القاهرة: مكتبة الشروق الدولية، 2005).

10. شكرى المامنى، فى مفهوم المواطنة فى السياق العربى الإسلامى، المجلة العربية لحقوق الإنسان، العدد -7 المعهد العربى لحقوق الإنسان، تونس، 2000م.

11. الشيماء عبد السلام، المواطنة والقيم الأساسية التى ترتبها فى المجتمع، مجلة الديمقراطية، مركز الأهرام للدراسات السياسية والاستراتيجية، العدد 45، فبراير 2012.

12. طارق البشرى، المسلمون والأقباط فى إطار الجماعة الوطنية، (القاهرة : دار الشروق، ط2، 1988).

13. عبد الجليل أبو المجد، مفهوم المواطنة فى الفكر العربى الإسلامى، (الدار البيضاء: دار إفريقيا الشرق، 2010م.

14. عبد القادر الرن، التحيزات المعرفية فى مفاعيم العلوم الاجتماعية: مفهوم المواطنة نموذجاً، مجلة دفتر البحوث العلمية، المركز الجامعى عبدالله بتيبازة – الجوائر.

15. عبد الوهاب الأفندى، إعادة النظر فى المفهوم التقليدى للجماعة السياسية فى الإسلام مسلم أم مواطن، فى: المواطنة والديمقراطية فى البلدان العربية، (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 2001).

16. عبدالإله بلقزيز، الدولة فى الفكر الإسلامى المعاصر، (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، 2002).

17. عزمى بشارة، فى المسألة العربية مقدمة لبيان ديمقراطى عربى، (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، د.ت).

18. علا أبو زيد، وهبة رؤوف (تحرير)، المواطنة المصرية ومستقبل الديمقراطية، (القاهرة: مكتبة الشروق الدولية، (2005).

19. على الدين هلال، نفين مسعد، على الدين هلال، نيفين مسعد، النظم السياسية العربية، مركز دراسات الوحدة العربية، 2002م.

20. على خليفة الكوارى، مفهوم المواطنة فى الدولة الديمقراطية، فى: على خليفة الكوارى (محرر)، المواطنة والديمقراطية فى البلدان العربية، (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، 2001).

21. على ليلة، المسئولية الإجتماعية: تعريف المفهوم وتعيين بنية المتغير، ورقة مقدمة الى المؤتمر السنوى الذى نظمه المركز القومى للبحوث الإجتماعية والجنائية عام 2009م.

22. وحيد عبدالمجيد، أزمة العقل العربى: التخوين والتكفير ، مركز المحروسة، القاهرة ، 2005.

23. ماجـدة رفاعـة، الخطـاب اليسـارى، المواطنـة المصريـة، ومسـتقبل الديمقراطيـة، أعمـال المؤتمـر السـنوى السـابع عـشر للبحـوث السياسـية 23-21 ديسـمبر، كليـة الاقتصـاد والعلـوم السياسـية 2003.

24. محمـد مالـكى، العلاقـة بـين الدولـة والمجتمـع فى البـلاد العربيـة: المجال العـام والمواطنة، المجلـة العربيـة للعلـوم السياسـية، مركز دراسـات الوحـدة العربية، العدد 13، شـتاء 2007م.

25. وسـام محمـد جميـل صقـر، الثقافـة السياسـية وانعكاسـها عـلى مفهـوم المواطنـة لـدى الشـباب الجامعـى فى قطـاع غـزة، (رسـالة ماجسـتير، جامعـة الأزهـر، كليـة الاقتصـاد والعلـوم الإداريـة، 2010م.

26. يوسـف الكلاخـى، مفهـوم المواطنـة بـين النظريـة والممارسـة، الحـوار المتمـدن، العـدد 3599، 2012م.

المراجع الأجنبية:

Almond، Gabriel A.، Verba، Sidney The Civic Culture. Boston، MA: Little، 1) Brown (21 . and Company، 1965

Turner، bruan، S.، Citizenship and capitalism: The debate over reformism، 2) pb. (8 London. Boston، Allen and unwin 1986، p. 107

.....

(*) نشرت الدراسة في مجلة العلوم السياسية والاقتصادية -المجلد 2، ملحق العدد (1)، يناير 2019 الجزاير.

أبوبكر السقاف

التنوير مكابدة شاقة وانحياز لصوت المقهورين

محمد عبدالوهاب الشيباني
صحفي وأديب وباحث

قبل العشرين السنة الأولى من عمره، لا تتوفر الكثير من المعلومات الدقيقة عن التكوين الثقافي الباكر للدكتور أبوبكر عبدالرحمن السقاف، أستاذ الفلسفة بجامعة صنعاء، غير تلك المتواترة وتقول إنّه وُلِد في منتصف ثلاثينيات القرن الماضي في إثيوبيا لمهاجر يمنيّ من الوهط التابعة للسلطنة العبدلية. حينها، قضى شطرًا من حياته في بلاد المهجر قبل أن يعود منتصف الأربعينيات إلى مسقط رأس والده، ليدرس في (المدرسة الجعفرية)، في قرية الوهط، ثم المدرسة المحسنية العبدلية بالحوطة، قبل أن يكون ضمن بعثة أخرى للاتحاد اليمني، التي ذهبت إلى القاهرة في أوائل 1954م، بعد بعثة أولى في العام 1953م، وقد رشح نادي الشباب اللحجي طلاب هذه البعثة، وتشكّلت من خمسة طلاب ينتمون إلى قرية واحدة في لحج هي قرية الوهط، وهم: أبوبكر السقاف، وعلي عيدروس السقاف، وعمر الجاوي (السقاف)، ومحمد جعفر زين السقاف، ومحمد عمر حسن إسكندر السقاف. وقد وصلوا إلى مصر عن طريق البحر. واستقرّ البعض منهم في الدقّي بالقاهرة، كما قام البعض منهم بتأدية امتحان الشهادة الثانوية في حلوان، وقد انضمّ إليهم فيما بعد عبدالله حسن العالم(1).

في فترة القاهرة، سيكتشف زملاؤه شغفَه بالقراءة، وخاصة الكتب المتصلة بالفكر التقدمي، فقد كان "يتردّد أكثر من غيره على الأكشاك والمكتبات التي تُباع فيها الكتب التقدمية، لا سيّما على كشك كان يقع بالقرب من حديقة الأزبكية، وقد لاقت الكتب الاشتراكية الماركسية رواجًا أكثر فأكثر، بعد تأميم قناة السويس(2). يروي الأستاذ يحيى الشامي لقادري أحمد حيدر، أنّ السقاف وقت كان طالبًا منتصف الخمسينيات في القاهرة، كان لا يُرى إلّا وبيده كتابًا، وأنّه – أي الشامي - استعار

ذات مرة منه كتابًا فكريًّا فوجده مملوءاً بالملاحظات والحواشي التي دوّنها السقاف بقلم جاف.

في منتصف شهر يوليو 1956م، كان ضمن مجموعة من الطلاب اليمنيين يعقدون اجتماعًا تمهيديًّا في منزل محمد جباري بالدقي، وفيه كلف الحاضرون لجنة ضمّت كلًّا من أبوبكر السقاف، وعبدالكريم الإرياني، ومحمد عبدالوهاب جباري، بالعمل على تنظيم عقد اجتماع عام للطلاب اليمنيين بالقاهرة، لمناقشة الأوضاع السياسية في كلٍّ من الشمال والجنوب. كان السقاف ينتمي ولا يزال، إلى اليسار الماركسي، بينما كان الإرياني آنذاك، ينتمي إلى القوميين العرب، لكنه سرعان ما انفصل عنهم، أمّا جباري فينتمي حاليًّا لحزب الإصلاح.

انعقد المؤتمر في 23 يوليو 1956م، بمقرّ رابطة الطلاب الفلسطينيين، وانتخب لجنةً تنفيذية من سبعة أشخاص لمتابعة تنفيذ قراراته، وكان أبوبكر السقاف سكرتيرًا عامًّا للجنة، وبعضوية سعيد الشيباني، وإبراهيم صادق، وعبده عثمان محمد، ومحمد أنعم غالب، ومحمد عبدالله العصار، ومحمد عمر حسن إسكندر السقاف"(3).

في خريف 1959م، كان ضمن العائدين من القاهرة إلى مدينة تعز عبر الحُديدة، بعد تضامنهم مع مطرودي المخابرات المصرية آنذاك (عمر الجاوي، ومحمد عبدالله باسلامة، ومحمد جعفر زين السقاف)، "وكان معه من المتضامنين العائدين: (محمد أحمد عبدالولي، وعلي حميد شرف، وحمود طالب، وأحمد الخربي، وعبدالله صالح عبده، وعمر غزال، ونجيب عبدالملك أسعد، وعبدالرحمن البصري، وعلوي جعفر زين، وخالد فضل منصور، وعبدالله حسن العالم وآخرون)، حيث عمل ولي العهد (محمد البدر)، وبعد مراسلات وتظلمات، وبعد موافقة والده المريض في إيطاليا، على إعادة ابتعاثهم للدراسة الجامعية في عدد من دول المعسكر الاشتراكي، مثل روسيا وألمانيا، ومن الذين ابتُعثوا محمد جعفر زين إلى ألمانيا الشرقية لدراسة القانون، وأبوبكر السقاف وعمر الجاوي ومحمد عبدالولي وعبدالله حسن العالم إلى موسكو، فتخصص الأول بالفلسفة، والثاني بالصحافة، والثالث هرب من الهندسة إلى الآداب، أمّا الرابع (العالِم) فدرس العلوم السياسية والاقتصاد في جامعة موسكو"(4).

سيقيم في هذه الفترة علاقة باكرة مع الراحلَين عبدالقادر هاشم وشقيقه أمين هاشم، اللذَين كانا يمتلكان مطعما بالقرب من المدرسة الأحمدية، وستبقى علاقته

بالأول قوية حتى وفاته، وكان يستضيفه في كل مرة يعود فيها من موسكو، كما أنّه أقام عنده حين عاد بعد إكماله لرحلته التعليمية التي امتدّت لأكثر من عقد من الزمن، وقت كان هاشم موظفًا كبيرًا في البنك المركزي.

كثيرا ما يتذكر فترة إقامته هذه ب في تعز، ويتذكر معها مكتبة الراحل علي بني غازي، التي كانت بالنسبة لشاب شغوف بالقراءة الملاذَ الآمن في مدينة كانت تعيش حالة عزلة كبيرة، حتى وهي عاصمة فعلية للمملكة المتوكلية وقريبة من عدن، بعد ثلاثة أعوام سيعود إلى تعز من موسكو، وهذه المرة وهي تعيش عنفوانها الثوري، حيث سيلتحق هو والجاوي وعبدالله العالم وحسين السقاف، بالمركز الحربي كمترجمين للخبراء الروس، وكانوا يوصفون بالحُمر "أصحاب الهامات المرتفعة ذات الوزن والثقل الثقافي والفكري"(5).

تشارك في موسكو ذات الغرفة في السكن الجامعي مع رفيقه عمر الجاوي، وقد اشترط منذ البداية على عمر، الذي كان يشغل موقع رئيس رابطة الطلبة اليمنيين، أن تترك له خصوصية التفرغ للدراسة في الغرفة طيلة أيام الأسبوع، ماعدا أيام العطل فإنّ الغرفة مفتوحة له وللزملاء الذين يتوافدون إلى عمر وإليه، فدرس دراسة النابه الذي يسير بخطى الواثق على طريق (العالم والمفكر القادم) في مجالات الفلسفة وعلم الاجتماع، وكان نصيبه وافرا ومشهودا في قسم الدراسات الإسلامية طالبا ومعيدا(6)، قبل أن يحصل على شهادة الدكتوراه برسالته عن تيار المعتزلة.

ليس هناك معلومات مؤكّدة عن عودته بشكل نهائي إلى اليمن، وتحديدًا إلى صنعاء، غير أنّ المعلومات القليلة - من هنا وهناك، وخصوصًا من معاصريه وتلاميذه - تقول إنّه غالبا عاد في عام 1974م، والتحق بجامعة صنعاء أستاذًا للفلسفة في سنوات تكوين القسم الأولى. وجد في المنابر الثقافية الوليدة، مثل: "مجلة الحكمة"، و"مجلة الكلمة"، و"مجلة اليمن الجديد"، في تلك السنوات مساحة للتنفس والكتابة في قضايا أدبية وفكرية، أنتجت حراكا حقيقيّا في سنوات السبعينيات، ومنها خرج ما يعرف بجيل السبعينيات الشعري، الذي صار في القراءات النقدية صوت الحداثة المؤسّس. صحيح أنّ كتابات السقاف كانت تقرّب صورة الحالة العامة الثقافية والسياسية خارج اليمن وتفاعلاتها لقارئ ومثقف الداخل، لكنها كانت أشبه بحالة تجسير بين عالمَين تحكمهما ثنائية المركز والهامش التي كانت فاعلة قبل اجتياح الرقمية عالم التواصل اليوم.

تكويـن الناشـط الثقـافي والسـياسي الـذي عُـرف به السـقاف حينمـا كان طالبـا في القاهرة، كـبر معـه حينمـا صـار أسـتاذا جامعيّـا، فلـم يهـادن المؤسسـة الرسـمية، وكان يقـف عـلى الضـدّ مـن خطابهـا الترويجـي والترويعـي، وفي مـرات عديـدة أدار وشـارك في نـدوات تبحـث في قضايـا إشـكالية وحساسـة للسـلطة، تسـبّبت إحداهـا في توقيفـه عـن التدريـس في الجامعـة، فانتقـل للعمـل مُدرِّسـا في المدرسـة الأهليـة، وفي أخـرى فُصـل مـن عملـه، بعـد أن خـاض معركـة كبـيرة ضـدّ عسـكرة الجامعـة وإخضاعهـا للدوائـر الأمنيـة في مسـائل الإدارة والتعيـين، لكنـه عـاد بحكـم قضـائي، غـير أنّ المضايقـات والاعتـداءات الـتي تعـرّض لهـا سـتكون بعيـد حـرب صيـف 1994، واجتيـاح الجنـوب، حينمـا صـارت كتاباتـه تُعـرِّي توجهـات السـلطة في إخضـاع الجنـوب، ومصـادرة حـق أبنائـه.

"لقـد خـاض المعركـة الكـبرى ومـا انطـوت عليـه مـن معـارك متفرقـة في أكـثر مـن جبهـة واتجـاه، ولذلـك تعرّضـت حياتـه للمحـن والمهالـك والصعوبـات والعقوبـات، وتكالـب عليـه الخصـوم بكـثرة لا نظـير لهـا، لكنـه لـم يهُـن ويتراجـع بقـدر مـا شُـحِذَت قدرتـه عـلى التقـاط التفاصيـل المؤلمـة والكاويـة، وحافـظ عـلى مكانتـه كمفكـر ومثقـف رفيـع، وحضـور إنسـاني شـفيف ومتدفـق بالحيـاة والـذكاء والمعرفـة، و (بورتريـه) متجـدّد بطاقـة المقاومـة لسـلطات القمـع والكشـف والتعريـة لخونـة الثقافـة والكتابـة والرسـالة الأكاديميـة مـن عهـد المخبريـن إلى عهـد القنـاص"(7).

الهوامش والمراجع:

(1) د. أحمـد القصـير، إصلاحيـون وماركسـيون- روّاد تنويـر اليمـن، المجلـس الأعـلى للثقافـة، مـصر، الطبعة الأولى 2016، ص137.

(2) د. محمـد جعفـر زيـن، مذكـرات أول رئيـس لجامعـة عـدن، مركـز عبـادي للدراسـات والنـشر، صنعـاء، طبعـة أولى 2007، ص28.

(3) د. القصير، سابق، ص178.

(4) ينظر: محمد عبدالوهاب الشيباني، عبدالله حسن رائدًا منسيًّا.

(5) سـلطان أحمـد زيـد، محطـات مـن تاريـخ حركـة اليسـار في اليمـن (تجربـة شـخصية)، مركـز إرم للتنميـة الثقافيـة والدراسـات التاريخيـة، الطبعـة الأولى 2020، ص53.

(6) د. هشام محسن السقاف، أبوبكر السقاف القادم إلينا من المستقبل،
https://www.alayyam.info/news/3G2QGW00-4UFL19

(7) منصور هائل، في البدء كان السقاف، موقع صحيفة الشارع 5 نوفمبر 2022.

(*) أديب وكاتب.

13/ديسمبر 2022م

قول أبو بكر السقاف في المواطنة المتساوية والمجتمع المدني

د. قاسم عبده المحبشي
استاذ الفلسفة كلية الآداب - جامعة عدن

(الفيلسوف حارس بوابة المعنى إذ ينتظر الناس كلمته على الدوام)

تمهيد

إذا ما تساءلنا الآن؛ ماذا بقي لنا من ذلك المفكر العربي، الذي يرقد في صندوقه الصغير في مقبرة الغرباء في عاصمة روسيا الاتحادية منذ أربعة أيام؟ ماذا بقي من استاذ الفلسفة الرائد في جامعة صنعاء، اليمنية في جنوب الجزيرة العربية الذي غادرها مجبرا بعد سقوط الجمهورية عام ٢٠١٥م غادرها بعد أن أمضى فيها نصف قرن من حياته؛ استاذا ومفكرا وناقدا وكاتبا مثقفا مدافعا عن الإنسان والحرية؟ لا يشق له غبارا! وغدا أشهر من نار على علم في عموم اليمن والوطن العربي منذ سبعينيات القرن الماضي؟ والذي افتتن بأفكاره التنويرية عدد واسع من تلاميذه وقراؤه وأنا منهم؟ ماذا بقي لنا أبوبكر عبدالرحمن السقاف الذي لم يكن يحمل إلا حقيبة وقلم طوال حياته؟

لقد حاولت البحث في سيرته الذاتية في الشبكة العنكبوتية فلم أجد غير بعض الشذرات التي لا تسمن ولا تغني من جوع! فلم تنشر جامعة صنعاء سيرة حياة أحد أبرز مؤسسيها منذ عام ١٩٧٠. كتب منصور هائل؛ " فجر الجمعة 3 أبريل 2015، وصلت إلى موسكو طائرتان روسيتان على متنهما أكثر من 300 مواطنٍ روسي ومن جنسيات أخرى، تم إجلاؤهم من اليمن.. بعدها واصلت الطائرات التابعة لوزارة الطوارئ الروسية عمليات توصيل المواد الإغاثة والطبية إلى صنعاء، وترحيل من تبقى من الدبلوماسيين والرعايا الروس والأجانب إلى موسكو، وكان المفكر أبو بكر السقاف ضمن أولئك "الرعايا"، حيث اضطر إلى مغادرة صنعاء صوب موسكو، ليلوذ برفيقته زهرة ربيع العمر، وشريكة حياته "لينا"، أيقونة الوفاء الروسية

الـتي اعتصمـت بحبـه كمـا لا يحـدث إلا في روايـات القـرن الـ19 الرومانسـية، انتظرتـه طويـلًا لتكتنـف خريفـه الذهـبي بعـد أن ضاقـت "صنعـاء" بمفكـر عبقـري قلمـا جـاد بـه الزمـن عـلى اليمـن الطـاردة لذلـك العقـل الجبـار الـذي تمـيز بتبصراتـه العميقـة وامتلاكـه أدوات الحفـر والتحليـل والتفكيـك والتفسـير، ورسـمه المبكـر لتجاعيـد وأخاديـد التغريبـة اليمنيـة القصـوى والشـتات المريـع الضـارب في أرجـاء البـلاد والعابـر للحـدود والقـارات" (ينظـر ، منصـور هائـل، في البـدء كان السـقاف : بورتريـة متجـدد، صحيفـة النـداء، ٥ نوفمـبر ٢٠٢٢) ثمـة كثـيرون يعرفـون السـقاف أكـثر مـني. إذ إنـني لـم أعرفـه إلا مـن خـلال كتاباتـه الصحفيـة منـذ منتصـف ثمانينيـات القـرن المـاضي. كانـت مقالاتـه الفكريـة والسياسـية هـي نقطـة الضـوء الوحيـدة الـتي تمنـح الأمـل والسـلوى الثقافيـة في الفضـاء العمومـي اليمـني التواصـلي المسـكون بالهرجلـة والضحالـة. حينمـا يكتـب يثـير أمـواج عاتيـة مـن ردود الأفعـال والتسـاؤلات، ومهمـا اختلـف النقـاد في النظـر أليـه فهـو في رأي الجميـع نـص مدهـش يـأسر القـارئ بفيـض خصيـب مـن الاشراقـات المبهجـة. إنـه النـص الـذي يدخـل القـارئ في رحـاب وفضـاءات مسـتعرة بالدهشـة والفـرح والجمـال والمعـنى، إنـه النـص الـذي ينحـدر مـن بحـر زاخـر بالثقافـة الإنسـانية الراقيـة. فمنـذ الوهلـة الأولى تشـعر بتلـك الـروح الحميمـة الجامحـة الـتي تلتهـب في جسـده الرفيـع، حينمـا يتكلـم أو يكتـب تفيـض المعـاني مـن الكلمـات كأنهـا الشـهد بـل هـي أحـلى. كانـت مقالاتـه زادنـا الروحـي في عـدن اليسـارية المهرجانيـة الـتي طغـت فيهـا الايدولوجيـا الضحلـة حـد الاختنـاق. كنـا نتـداول مقالاتـه كمـا يتـداول أهـل الخليـج والمملكـة كتـب الفلسـفة بسريـة تامـة. قبـل الوحـدة المرتجلـة كان السـقاف هـو المفكـر الوحيـد الـذي آخـذ الأمـر عـلى محمـل الجـد والمسـئولية جنبـا إلى جنـب الشـاعر الحكيـم البصـير عبدالله البـردوني. وحدهمـا الذيـن أدركا الكارثـة وحـذرا مبكـرا مـن مخاطرهـا.

كتـب السـقاف سلسـلة مـن المقـالات المطولـة في صحيفـة صـوت العمـال العدنيـة في شرح وتوضيـح معـنى الوحـدة اليمنيـة وشروط وآليـات تحقيقهـا ومخاطـر ومـآلات سـلقها دون تسـوية الـشروط السياسـية والاجتماعيـة لهـا وربمـا كان اليمـني الوحيـد الـذي يعـرف الأهميـة الاسـتثنائية للوحـدة اليمنيـة إذا مـا توفـرت شروط تحققهـا ومـن أهـم تلـك الـشروط تأسـيس المجـال السـياسي المسـتقل الـذي يتيـح نشـوء المجتمـع المـدني وتحقيـق المواطنـة المتسـاوية وتلـك هـي المسـألة الـتي تهمنـا في هـذه العجالـة. فمـاذا كان يقصـد الفيلسـوف أبوبكـر السـقاف بالمجتمـع المـدني والمواطنـة المتسـاوية؟

لقد أدرك السقاف خطورة تلقف المفاهيم الحديثة بمعزل عن فهم سياقات نشأتها ونموها وتطورها ومحاولة تطبيقها في سياقاتنا العربية التقليدية واليمن أشدها تخلفا. و مفهومي " المجتمع المدني والمواطنة المتساوية " كغيرهما من المصطلحات والمفاهيم والنماذج الثقافية الحديثة ألكثيرة (الثورة، الدولة، الدستور، الجمهورية، الديمقراطية، الأحزاب، الشعب، البرلمان، الليبرالية، حقوق الإنسان، النسوية ...الخ) من الكلمات التي تدفقت علينا من سياقات تاريخية واجتماعية وثقافية مختلفة ومغايرة طيلة القرنين المنصرمين، إذ إنه وبعد "صدمة الحداثة التي هز بها التفوق الحضاري الهائل للاستعمار الغربي بنيان الثقافة الشرقية التقليدية، أخذت "الأفكار" و "المفاهيم" والمؤسسات والممارسات والنماذج والأشكال السياسية ومجموع القوانين والوصفات الاقتصادية تغادر شواطئ أوروبا وأمريكا الشمالية باتجاه الشرق أو الجنوب لتبحث لها عن فضاء مغاير تتحقق فيه، ولكن هذه المرة تحققت على الطريقة التي استقبلها بها أهل هذا الفضاء. وبحكم أن الفيلسوف هو الشخص الوحيد الذي يعرف ما هي المفاهيم المجردة وماذا تعني في سياقاتها المختلفة ومعظم الكلمات التي يستخدمها الناس في حياتهم هي مفاهيم مجردة فالإنسان مفهوم والزمان مفهوم والمكان مفهوم والعدالة مفهوم والحرية مفهوم والوجود مفهوم والجمال مفهوم والسياسية مفهوم والوطن مفهوم والدولة مفهوم والقانون مفهوم والتربية مفهوم الحرية مفهوم العدالة والثورة مفهوم والعلم مفهوم؛ تلك المفاهيم الكلية وغيرها كثيرة التي لا وجود لها في الواقع المحسوس الملموس هي من استدعت الحاجة الملحة إلى الفلسفة منذ سقراط ولازالت تستدعيها إلى أبد الآبدين إذ إن المفاهيم لا توجد في فلك الأفكار ومدونات اللغات فحسب، بل هي كائنات تاريخية شديدة الارتباط بسياقاتها الاجتماعية الثقافية المشخصة، ولكل مفهوم مكان وزمان ولادة وسياق نمو وتجربة ممارسة وعلاقات قوة وسلطة معرفة ونظام خطاب ومدونة لغة وفضاء فكر وحساسية ثقافة وحقل تأويل وشفرة معنى وأفق دلالة.. الخ غير إن مشكلة الإنسان مع المفاهيم المجردة تكمن في اعتقاده بأنه يعرفها بمجرد النطق وحينما يسأل نفسه عن معناها؟ يكتشف جهله الحقيقي وتلك هي قضية سقراط الذي أكد أن الفلسفة هي التي تعلمنا جهلنا ومعرفة الإنسان بجهله الذاتي هو الخطوة الأولى لتفتح العقل والفهم وطالما والواقع يتغير ويتطور ويتجدد ويتبدل باستمرار فمن الضروري للفكر أن يتجدد باستمرار. الواقع تتلقف هذه المفاهيم

والمصطلحات الحداثية، ونسعى إلى إقحامها في سياقنا الثقافي، أن نكون على درجة عالية من الاحتراس والحذر، وأن نتخذ منها موقفاً عقلانياً نقدياً لغرض استيعابها وتفسيرها وتعريفها وتصنيفها وإنجاز خطاباً ابستومولوجيا فيها ولن يتم ذلك إلا عن طريق إحداث قطيعة معرفية مع الخطاب الاجتماعي والفكري ألرائج والسوسيولوجيا التلقائية وطغيان الرأي العام، والآراء الجاهزة. وفي أوقات الغليان والتحولات الكبرى، يكون التفكير في الانفصال عن الموضوع ضمانة مساعدة ضد الدوجمائية، وشرط أساس لتناول الظواهر الاجتماعية بعقل متحرر من أي أحكام مسبقة وكليشيات جاهزة ومتحررة ما أمكن من الأفكار القِبلية والأحكام القيمية الوثوقية المطلقة. وحينما ناقش الفيلسوف أبوبكر السقاف فكرة المجتمع المدني كتب" إن فكرة المجتمع المدني هي فكرة وافدة بلا شك من أوروبا وأمريكا ، ومن هنا يجدر الاهتمام بأفكار بعض مفكري التنوير الأوروبي الذين عاشوا في ظروف فيها ما هو مشترك مع تاريخنا العربي المعاصر ومن بين هؤلاء ادم سميث (1723-1790) و ادم فيرجسون (1723-1806) الأول معروف كعالم اقتصاد و بصورة اقل كمؤلف كتاب (نظرية العواطف الأخلاقية) إما الثاني فهو مجهول تماما في التداول العربي والاثنان يمثلان اسكتلندا التي كانت ضعيفة ومستعمرة من قبل انجلترا. إذ تمتد جذور المفهوم المعاصر لمصطلح المجتمع المدني زمانياً ومكانياً إلى دول أوروبا الغربية في القرون السابع عشر والثامن عشر والتاسع عشر الميلادية، وبدأت الكتابات التنظيرية الرئيسة بالظهور في إنكلترا أولاً، لتنتقل بعدها إلى اسكتلندا وألمانيا.

بسط فيرجسون افكاره في كتاب (مقال في تاريخ المجتمع المدني) عام 1768فحدد (شروط مقومات المجتمع المدني ، الذي يجمع هنا بين السياسي والمدني ، والعام والخاص في هذه المرحلة من تطور فكرة المجتمع المدني في الفلسفة السياسية الاوربية)(ينظر، أحمد الصعدي، فكرة المجتمع المدني عند ابي بكر السقاف) ولعل أهم ما جاء في كتابه عن هذا المجتمع هو نقده وتفكيكه وتفنيده للغة والثقافة القدَرية السائدة وقتها، واستبدالها بطروحات تؤكد المسؤولية السياسية للفرد وتُعْلِي من شأنها، لأنه يرى أن تحقيق سعادة الأفراد هو الغاية والمحصلة النهائية للمجتمع المدني.

كان فيرغسون في استعماله لمصطلح المجتمع المدني معنيا بتتبع الظهور التدريجي لملامحه وسِماته الأساسية، وتتمثل تلك السمات في وجود نطاق وتشكيلة من

المؤسسات السياسية والتعاملات الاجتماعية المرتبطة ببعضها بأواصر غير منظمة.

تجدر الإشارة إلى إن الدكتور أحمد الصعدي هو من لفت الانتباه إلى فكرة المجتمع المدني عند أبوبكر السقاف إذ كتب " لأن كتابات ابي بكر السقاف كثيرة ومتعددة المجالات ، ولأن معظمها لم يجمع من المجلات والصحف وينشر في كتب تسهل على المهتم والباحث الوصول اليها لا سيما والسقاف لا يعمد الى لفت انظار الاخرين من طلاب أو زملاء ومهتمين الى ما نشره في اليمن وفي الخارج منذ السبعينات فإنه من المهم التنبيه الى إن ما تتناوله السطور التالية هو ثلاثة مقالات فقط في موضوع (المجتمع المدني) نشرت في صحيفة (الايام)، نثبتها أولا ثم نكتفي بالاحالة الى رقم المقال عند الحاجة .

1. استحالة قيام المجتمع المدني في ظل الدولة التسلطية . 13 ديسمبر 2002
2. المجتمع المدني بين مطرقة الدولة وسندان المجتمع التقليدي . 16 ديسمبر 2000
3. جدل المدني والتجاري في التنوير الاسكتلندي . 24 يناير 2001

في المقالات الثلاثة يحدثنا الكاتب عن انتعاش حركات المجتمع المدني في الأقطار العربية منذ ثمانينات القرن الماضي، والعوامل الداخلية والخارجية التي أسهمت في هذا الانتعاش ، وعن العوائق التي اصطدمت بها هذه الحركات بتركيز خاص على اليمن. كما يتحدث عن نشوء فكرة وحركة المجتمع المدني في الغرب في العصر الحديث، وعلاقته الشرطية بالدولة الحديثة والعقد الاجتماعي وفكرة الوطن والمواطنة وعن اختلاف الأوضاع لدينا حيث الدولة التسلطية التي أصبحنا نسميها استبدادية منذ صدور كتاب الكواكبي (طبائع الاستبداد) التي تبتلع المجال الخاص فتعيق بذلك امكانية نشوء مجتمع مدني، وكيف أن النشاط الاهلي لحركات الاسلام السياسي أو الزاوية أو الطريقة الصوفية أو حتى جماعة القضاة أو القبيلة لا تشكل مجتمعا مدنيا بل جزءا من مجتمع قديم. كما خصص واحد من المقالات لعلمين من أعلام التنوير الاسكتلندي، ويولي عناية خاصة (بآدم فيرجسون) المجهول تماما في التداول العربي. أما العناوين العريضة لفكرة (المجتمع المدني) كما يمكن أن نحاول تكوينها من المقالات"

لقد أدرك السقاف بنفاد بصيرته أن ذلك الارتباط العضوي بين جملة من الأنساق السياسية والاقتصادية والثقافية والاجتماعية التي تؤمن البيئة المواتية لنمو وتبلور المجتمع المدني ومنها استقلال المجال السياسي بقواعد لعبته الخاصة إذ تقوم

حيـاة النـاس الاجتماعيـة وتتشـكل الجماعـات والمجتمعـات البشريـة وتنمـو وتسـتمر وتسـتقر وتزدهـر في سـياق اجتماعـي تاريخـي ثقـافي علائقـي تفاعـلي يتكـون مـن أربعـة انسـاق أساسـية؛ فاعـل، فعـل، علاقـة ، بنيـة،) ومـا ينجـم عنهـا مـن مظاهـر وظواهـر وأشـكال ورمـوز وقيـم وتمثـلات يعـاد صياغتهـا وبناؤهـا باسـتمرار في خضـم عمليـة ممارسـة الفاعلـون الاجتماعيـون لحياتهـم المتعينـة ماديـا ومعنويـا واقعيـا وافتراضيـا بمختلـف صيـغ وصـور وأنمـاط تمظهراتهـا العلائقيـة ؛ بـين أنـا _ أنـت ، ذات _ أخـر _ نحـن _ هـم وغـير ذلـك مـن اشـكال العلاقـات الاجتماعيـة المتغـيرة باسـتمرار والـتي لا تـدوم عـلى حـال مـن الأحـوال وتجلياتهـا المختلفـة والـتي بدونهـا يصعـب الحديـث عـن الظاهـرة الاجتماعيـة بوصفهـا ظاهـرة قابلـة للرؤيـة والدراسـة والفهـم. والإنسـان يشـترك مـع غـيره مـن النـاس في كثـير مـن الأفعـال. ويشـترك معهـم بـكل شيء ويختلـف عنـه بكثـير مـن الأشـياء. الحالـة الأولى هـي موضـوع العلـوم الاجتماعيـة والثقافيـة والحالـة الثانيـة هـي موضـوع علـم الأحيـاء والعلـوم المتاخمـة والحالـة الثالثـة هو موضـوع علم النفـس والعلـوم النفسـية وكل فعـل يتضمن فاعلـين اجتماعية، ويسـمى الفعـل اجتماعيًا حينمـا يحـدث بـين فاعلـين أو أكـثر هـي: ميكروسوسـيولوجية وماكروسوسـيولوجية صغيرة وكبـيرة. وكل فعـل اجتماعـي يتضمـن علاقـة اجتماعيـة، وحينمـا تتكـرر تلـك العلاقـة تتشـكل في بنيـة أو أطـار أو مؤسسـية. وحينمـا تـزاوج آدام وحـواء لأول مـرة تكونـت الأسرة النوويـة وبتكـرار الـتزاوج بـين الفاعلـين والفاعـلات الاجتماعيـات عـبر ألآلـف السـنين واسـتمرارها تكونـت البـنى الاجتماعيـة؛ بنيـة الأسرة والقرابـة والعشـيرة والقبيلـة والقوميـة والأمـة والإنسـانية الأمميـة اليـوم. والتعليـم فعـل تحـول إلى علاقـة بـين الطالـب والمعلـم وبتكـرار تلـك العلاقـة تحولـت إلى مؤسسـة؛ الروضـة والمدرسـة والجامعـة وكل مؤسسـات التعليـم والتربيـة الـتي لا يمكـن لهـا أن تسـتمر وتـدوم إلا باسـتمرار الفاعلـين والعلاقـة. والديـن مؤسسـة تكونـت عـبر فعـل العبـادة بـكل اشـكالها وأنماطهـا.

خـذ أي ظاهـرة أجتماعيـة وانظـر اليهـا مـن زاويـة نظـر منهجيـة تكامليـة سـتجدها لا تخـرج عـن ذلـك السـياق العـام. وبمـا أن المجتمـع حالـة متغـيرة ومتحولـة مـن حـال إلى حـال ولا تـدوم في نقطـة متجمـدة فقـد ميـز علمـاء الاجتمـاع وأولهـم (أوغسـت كونـت) بـين حالتـين للظاهـرة الاجتماعيـة؛ الحالـة الديناميكيـة الحركيـة والحالـة الاسـتاتيكية الثابتـة نسـبيًا. وهكـذا تشـكلت بنيـة القرابـة الأولى العائلـة وتولـدت عنهـا اشـكال الائتـلاف الاجتماعـي الأخـرى مـن العشـيرة إلى الدولـة بوصفهـا مؤسسـات اجتماعيـة تعيـد بنـاء نفسـها باسـتمرار في سـياق علاقـات الفاعلـين الاجتماعيـين التبادليـة وفي سـياق ذلك تتكون

الهويات الاجتماعية والثقافية بوصفها استراتيجيات صراع تنافسين بين الفاعلين ولا هويات بدون مؤسسات أو قبلها أو بعدها.

وفي البلاد العربية التقليدية التي لم تشهد القطيعة الابستمولوجية من الاسطورة إلى التاريخ ولا النقلة الحضارية من التقليد إلى الحداثة ومن القبيلة إلى الشعب ومن الرعية إلى المواطنة لازالت دوائر الهوية ومرجعيتها الدائرية تكبل الناس بقيودها الاعتباطية المهلهلة؛ فتجد المرء مكبلا بسلسلة من المرجعيات والهويات والأطر الاجتماعية والثقافية والدينية الدائرية التقليدية؛ عائلة ، فخذ، عشيرة، قبيلة، قرية، منطقة، إقليم ، جهة، طائفة، مذهب، شلة، حزب ، عقيدة، دين، قومية، ايديولوجيا .. الخ. فما الذي يفسر شيوع تلك الهويات الأصولية التي أخذت تشيع في المجتمعات العربية الإسلامية اليوم على نحو خطير ومثير للحيرة والفزع؟ حروب دينية طائفية عشائرية جهوية سياسية مستعرة في كل مكان (شيعية، سنيه مسيحية، عربية كردية، في العراق وسوريا. ومسيحية، شيعية، سنية، درزية، في لبنان. وزيديه، حوثية، اثنا عشرية، سنية، سلفية، عشائرية، جهوية في اليمن، ولغوية أثنية عربية، أمازيغية بربرية إسلامية في الجزائر، ومسيحية إسلامية، جهوية في السودان، وعشائرية طائفية مناطقية في ليبيا.. الخ) يحتدم كل هذا في فضاء ثقافي نفسي مشحون بعنف مادي ورمزي، وهستيريا عصابية جماعية عدائية شديدة التحريض والانفجار. والسؤال الملح هنا والآن هو ما الذي جعل هذا التنوع الهوياتي في المجتمع العربي الإسلامي يتحول إلى شر مستطير، بينما هو في مجتمعات كثيرة أخرى مصدر قوة ودليل صحة وعافية كما هو الحال في الهند والصين وروسيا وأمريكا واستراليا وغيرها من الدول التي تضم طيفا واسعا من الهويات (ديانات، أقليات، أعراق، إثنيات، لغات، طوائف، ملل، نحل، ومذاهب) وما لا يعد ولا يحصى من الجماعات الثقافية المتنوعة؟ والجواب هو غياب الدولة والمجتمع المدني إذ أن الفكرة الأساسية في مقاربة المجتمع المدني هي تلك التي تنطلق من النظر إلى المجتمع ككل بوصفه عدداً من المجالات, متناغمة مع قوى واحتياجات الذات الإنسانية الفردية, قوة الحب والعلاقات الحميمية, في المجال الخاص, مجال الأسرة, مؤسسة القرابة التقليدية الأولى, والقوة العاقلة والعلاقات الضرورية للحياة الاجتماعية المشتركة, المجال العام, مجال السياسة والسلطة, والقوة الغريزية المتعطشة إلى الإشباع المادي, المجال الاقتصادي, وعلاقات السوق حيث المنافسة والربح والاحتكار, وقوى الموهبة والاهتمام, حيث يجد الإفراد فرص التعبير عن

مقدراتهـم وتطلعاتهـم ومواهبهـم واهتماماتهـم الحـرة, مجـال العلاقـات المهنيـة والحرفيـة الإبداعيـة وغـير الإبداعيـة, المجـال المـدني, حيـث تختفـي علاقـات القرابـة الحميميـة, وعلاقـات السياسـة التسـلطية, وعلاقـات السـوق التنافسـية الربحيـة, هنـا يمكـن لنـا التعـرف عـن المجتمـع المـدني في الرحـم الحـي لتخصيبـه, ولكـن هـل يمكـن للمجتمـع المـدني أن يخصـب وينمـو ويولـد ويزدهـر مـن ذاتـه ولذاتـه وبـدون قـوى وشروط فاعلـة؟ وبالنظـر إلى المسـار التاريـخ للمجتمـع المـدني المفهـوم والسـياق، يمكـن لنـا الجـواب عـلى هـذا السـؤال بالنفـي، ليـس بمقـدور المجتمـع المـدني أن يولـد وينمـو ويزدهـر بـدون وجـود قـوة تحميـه أو تبيـح لـه فرصـة الوجـود الفاعـل والديمومـة, وهـذا هـو مـا يقولـه لنـا (جـون أهرنـبرغ) في كتابـه المهـم, المجتمـع المـدني: التاريـخ النقـدي للفكـرة, الـذي تتبـع صـيرورة المفهـوم منـذ أفلاطـون وحـتى هابرمانـس.

في الحقيقـة لـم يظهـر المجتمـع المـدني بشـكله الأنضـج إلا بعـد اسـتقلال المجـال السـياسي عـن المجـال الديـني وهـذا هـو أهـم منجـزات العلمانيـة الحديثـة في العهـد الليـبرالي إذ رأت النظريـات الليبراليـة أن المجتمـع المـدني يسـتلزم نظامـاً قانونيـاً يدافـع عـن حقـوق الملكيـة الخاصـة والروابـط المهنيـة ... فمـا يجعـل مـن مجتمـع مـا مجتمعاً ((مدنيـاً)) هـو أنـه الموضـع الـذي ينظـم فيـه النـاس أنفسـهم بحريـة في جماعـات وروابـط أصغـر أو أكـبر في مسـتويات متنوعـة بغيـة الضغـط عـلى الهيئات الرسـمية لسـلطة الدولة مـن أجـل تبـني سياسـات منسـجمة مـع مصالحهـا"_ يقصـد تلـك الجماعـات المدنيـة ويبـين رتشـارد سـينيت في كتابـه المهـم(سـقوط الإنسـان العـام) الفـروق الدقيقـة بـين المجـال العمومـي ومجـال الحيـاة العامـة (المجتمـع المـدني) والمجـال الشـخصي فالمجتمـع المـدني هـو مجتمـع الغربـاء إذ أن المجتمـع الحميمـي يجعـل الحيـاة المدنيـة أمـراً مسـتحيلاً. فالنـاس لا يسـتطيعون تطويـر علاقاتهـم مـع الآخريـن إذا عدوهـا غـير مهمـة لكونهـا علاقـات لا شـخصية. والمجتمـع الحميـم عـلى عكـس تأكيـدات أصحابـه هـو مجتمـع فـظ؛ لان الحيـاة المدنيـة (هـي النشـاط الـذي يحمـي النـاس مـن بعضهـم بعضـاً, ويتيـح لهـم مـع ذلـك أن يتمتعـوا برفقـة الآخـر) فالعيـش مـع النـاس لا يسـتلزم (معرفتهـم) ولا يسـتلزم التأكـد مـن أنهـم (يعرفونـك) ... والحيـاة المدنيـة تنوجـد عندمـا لا يجعـل المـرء مـن نفسـه عـبء عـلى الآخريـن" وبالخلاصـة يمكـن لنـا التأكيـد عـلى أن المجتمـع المـدني بوصفـه مجـالاً للحيـاة العامـة المسـتقلة عـن مجـالات الحيـاة الأخـرى، مجـال السياسـية ومجـال القرابـة ومجـال الاقتصـاد، ومجـال الديـن لا يمكـن لـه أن ينمـو ويزدهـر ألا في ظـل وجـود دولـة المؤسسـات المنظمـة بالدسـتور والقانـون.

إن تشديد المفكر الراحل أبوبكر السقاف على حق المواطن وحريته ظل دينه وديدنه إذ لم يتوقف عن خوض معركته الكبرى دفاعًا عن الحريات وعن حقوق الإنسان، وهو القائل: "إن غابت الكرامة احتجب الوجود الإنساني" وقد انضوت في هذه المعركة معارك كثيرة متفرقة خاضها بجدارة وجسارة، و"يصعب على فرد واحد أن يخوضها"، حسب صديقه ورفيقه عبدالله حسن العالم. كتب منصور هائل:" عقب الإعلان عن جمهورية 22 مايو 1990، كان على رأس مجموعة من أهم الحقوقيين والناشطين الذين تنادوا إلى تكوين لجنة وطنية للدفاع عن حقوق الإنسان والحريات، وقد ردت السلطات على تلك المبادرة باستنفار أجهزتها القمعية، ووأد المبادرة في المهد، مستهدفة أبوبكر وغيره من الحقوقيين والأكاديميين المناهضين لسياساتها.

وفيما كان يحرص على الحضور والمشاركة الميدانية في الفعاليات التضامنية مع ضحايا القمع، وحتى السفر إلى مناطق بعيدة من أجل ذلك، والوقوف في صدارة المناصرين والمنتصرين للقضية الجنوبية وحق شعب الجنوب في استرداد كرامته ودولته، ومؤازرة الزيدية والإسماعيلية في محنتيهما، وضحايا البطش والتغييب في جهات اليمن كلها، فقد واصل مشوار الاستزادة المعرفية والتأسيس الفكري على العقل النقدي. وتضمنت كتاباته توثيقًا دقيقًا لسجل الانتهاكات وجرائم القتل والتعذيب، جنبًا إلى جنب مع عمله على تبديد الأساطير والمفاهيم المغلوطة عن اليمن ومسار تطوره، فضلًا عن تعرية قوى مذهبية وطائفية وقبلية حاولت -ولاتزال- تسخير الإطار الجديد نسبيًا للدولة لاستمرارية القديم في شكل "سلطنة" جديدة، وبالأحرى الجمهورية التي اختطفها ورثة الإمامة: قبيلة الانتقام من الإمام.

وكما تصدى للحالمين باستعادة الإمامة بنسخة منقحة: "الإمامة في القرن 20 مشروعًا مستحيلًا"، وهي "أقرب إلى نوعٍ من المستحاثات الباليونتلوجية منها إلى تكوين اجتماعي تاريخي متخلف"، فقد تصدى للنافخين في روح "الديناصور الملون": القبيلة باعتبارها بداية التاريخ ونهايته.. وقال: "إن بيئة مجتمع الإمامة مواتية لكل أنواع التشرذم بارتكازها على دعامة النسب، إلى جانب اعتمادها على المؤسسة القبلية التي طالما كانت من أهم أركان الإمامة، وشكلت أساسها الاجتماعي والثقافي الذي تفسخت منه كل الشروخ الاجتماعية لتتحول إلى مليشيات على نحو ما نشهد اليوم" (ينظر، منصور هائل، في البدء كان السقاف بوتريه متجدد، صحيفة النداء، 5 نوفمبر 2022)

ربما كان السقاف هو الوحيد الذي يدرك أهمية وقيمة الوحدة اليمنية بوصفها فرصة لا تعوض أبدا إذا ما تم التمهيد السليم لها وتحقيقها في بيئة مدنية متعافية وتأمين شروط بقاءها وازهارها لكن سارت العربة بغير ما كان يروم ويرى فكتب لاهوت الوحدة أرومة طاغوتها" هو مقال للسقاف نُشر في صحيفة التجمع بتاريخ 12/11/2007, وأعيد نشره في كتاب "دفاعاً عن الحرية والإنسان" إعداد: منصور هايل عن منتدى الجاوي الثقافي, في صفحة 140 ,وهو جدير بالقراءة والتأمل الصبور والأمين , أعني الكتاب عامة ومقال "لاهوت ..." خاصة , إذ هو حصيلة نقاشات وحوارات عميقة خاضها السقاف بشأن الوحدة ولاهوتها السياسي ,منذ خريف 1988م استهلها ب12 حلقة من سلسلة طويلة من الكتابات في صحيفة صوت العمال الجنوبية .

ولم يكن هذا المقال الأخير المهم والخطير للسقاف إلا ثمرة مخاض عسير وتجربة عملية قوية وخبرة كافية في اختبار الفكرة وتجسدها في الواقع الحياتي الملموس للناس، أقصد فكرة الوحدة الرهيبة التي أكدت كل ما كان قد حذر منه ونبه إليه الأستاذ أبوبكر قبل عام 90م ,وكأنه كان يقرأ النتائج التي انتهت إليها من بعيد، يا له من نافد البصر والبصيرة كما كان الشاعر البصير الكبير عبد الله البردوني..!

لم ينصت اليهما أحد للأسف الشديد.

واتذكر أني عام ١٩٩٢ ذهبت إلى جامعة صنعاء لغرض متابعة تعييني معيدا في كلية الآداب بناءًا على رسالة من رئيس جامعة عدن حينها محمد العمودي إلى رئيس جامعة صنعاء عبدالعزيز المقالح دعكم منها. في صباح ذلك اليوم ذهبت إلى كلية الجامعة وشاهدت جموع محتشدة بجانب قاعة جمال عبدالناصر معظمهم بالزي اليمني التقليدي وبعضهم يحملون أسلحة نارية. سألت أحدهم ماذا يوجد هنا؟ فأجابني مناظرة فكرية بين الشيخ عبدالمجيد الزنداني والدكتور أبوبكر السقاف. شكرته وتوجهت مباشرة إلى القاعة. كانت مزدحمة بذوي الرؤوس المعممة ولم الحظ الطلاب. أخذت مكان في الخط الثاني في زاوية قريبة للمنصة التي كانت خالية بعد عشر دقائق من الانتظار الممل في قاعة تعج بالضجيج القبلي والهياج الاحتفالي. دخل الأستاذ الدكتور أبوبكر السقاف بحقيبة منفردًا لا يرافقه أحد فنهضت لاستقباله وعرفته بنفسي. رحب بي وجلس في حالة من الذهول والدهشة من نوعية الحضور. بعد ثلاث دقائق اكتظت البوابة العريضة بسيل من المسلحين

الرسميين والقبليين برفقة الشيخ الزنداني نهض معظم الذين كان في القاعة مرددين الشعار الأثير (الله أكبر) مع قمقمات غير مفهومة. شق موكب الزنداني طريقة مباشرة إلى المنصة في مشهد احتفالي غوغائي من التصفيق الحماسي. اجلسوا الشيخ على المقعد الأول في المنصة. كان مبتسما كعادته ابتسامة الواثق من نفسه وربه. فحضر شخص اخر هو زنداني كان عضوا في هيئة التدريس في الجامعة لم اعد اتذكر اسمه ربما هو (منصور الزنداني) وعلمت أنه كان رئيسا لنقابة هيئة التدريس في الجامعة حينها. أخذ المكرفون وافتتح الجلسة بمقدمة طويلة من القرآن الكريم والأحاديث النبوية والترحيب بالشيخ الجليل وقال بلهجة ساخرة أين الفيلسوف أبوبكر السقاف؟! رد السقاف بصوت خفيض أنا هنا. قال: تعال إلى المنصة نبدأ المناظر الفكرية! رد السقاف أي مناظرة فكرية في ثكنة عسكرية؟! لن أصعد المنصة قبل أن تختفي تلك المظاهر المسلحة ليس خوفًا منها ولكن احترامًا للمؤسسة الأكاديمية وللفكر ذاته. أتدرون ماذا كان رد الشيخ الزنداني؟! قال بلكنة ساخرة تفتقد إلى أي خلق فكري. هؤلاء جند الله لا تخاف منهم أصعد يا سقاف! نهض الدكتور أبوبكر بحقيبة المعلقة على كتفه فانصرف بهدوء من القاعة. فضجت بالتصفيق البليد بانتصار الشيخ على الفيلسوف. انتظرت أنا لأرى ما الذي سوف يحدث بعد إنسحاب الدكتور أبوبكر من القاعة، فكانت محاضرة دعوية تحريضية ضد الفكر والفلسفة والمفكرين الأحرار ردد خلالها الشيخ الكثير من الترهات والخزعبلات الذي لم ينزل الله بها من سلطان. في قاعة تعج بتلاميذ الشيخ فقط. وأنا استمع اليه شعرت بحالة من الخوف والقرف والغثيان وأيقنت أن البلاد ذاهبة في ستين داهية.

أتخيل أن أبوبكر السقاف يرافقني كطيف يحيط بي لكن من المؤلم والمحزن أن يدرك المرء، بعد فوات الأوان أنه ليس بإمكانه أن ينهل من النبع مرتين! فحين يغيض النبع ـ مرة وإلى الأبد ـ دون أن نغرف منه؛ لا تتكشف الأسئلة الحارقة عن غياب سهولة الارتواء من النبع؛ بل عن غياب الجدوى التي تضمر فقراً وذهولا عن الانتباه لعابر هائل مر بنا (كلما اتسعت الرؤيا ضاقت العبارة) لقد اتسعت الرؤية لدية ربما حاصرته تلك التأويلات، في هذه العوالم الخرساء، وزمان النكوص (لكم تخذل المرء سيماؤه، ولكم يجهل الناس ما يعرفونه).

فكر السقاف ((من اجل وطن حر وشعب سعيد))

د. أحمد عبدالله الصعدي (*)

لا يحتاج المهتم بفكر أبي بكر السقاف الى الكثير من التحميص والتدقيق في كتاباته، وهي كثيرة ومتنوعة، كي يتيقن من أن قضية الانسان كانت هي القضية المركزية التي تفرعت عنها جل مشاغله الفكرية والسياسية (1)، ولا نقصد بالإنسان في هذا السياق مفهوماً مجرداً، خارج شروط الزمان والمكان، بل الانسان الذي يكبله الاستبداد، وينتهك حقوقه الطغيان، وتقتله أو تشرده الحروب الامبريالية أو الأهلية في مناطق كثيرة من العالم، وبالخصوص المواطن اليمني في اليمن " السعيد بحكامه" على حد تعبير السقاف غير مرة.

الأساس المعرفي والأخلاقي لرؤية السقاف للإنسان والمواطن:

إن رؤية السقاف للإنسان، قيمته وحقوقه ـ على وجه العموم ـ وللمواطن اليمني ـ على وجه الخصوص ـ تقوم على قاعدتين صلبتين هما: القاعدة المعرفية والقاعدة الأخلاقية. تتكون الأولى، المعرفية، من استيعابه المعمق للإسلام، القرآن الكريم والقيم التي تسمو بالإنسان وتحث على صون نفسه وكرامته، وللتراث الحضاري الإسلامي، ومن معرفته الواسعة بفلسفة وثقافة الهند والصين، والفلسفة الأوروبية منذ بواكيرها الأولى إلى أحدث اتجاهاتها وأفكارها الرئيسية، وهو ما ينعكس في كتاباته. وتتكون القاعدة الثانية، الأخلاقية، من قناعاته الراسخة بقدسية الحياة الإنسانية، وبكرامة الانسان والمواطن بوصفها القيمة التي تفقد بدونها القيم الأخرى قيمتها، بما في ذلك قيمة الحياة.

ومن هذا البعد القيمي الأصيل في الرؤية (السقافية) للإنسان يلزم أمران جوهريان، الأول: نقصد به المساواة الأخلاقية التي تعني أن كرامة أي انسان مساوية لكرامة أي انسان آخر، بدون أية زيادة أو نقصان، مهما كانت بين الناس من فروق واقعية أو متخيلة، وأن عدم تحقق مثال المساواة الأخلاقية في الواقع المعاش لا يقلل من شأنه ولا يضفي عليه طابعاً طوباوياً تحت تأثير اليأس والاستسلام لقوة

الوقائع، بل يجعله هدفاً أخلاقياً سامياً للأفراد والجماعات، ومحفزا للفكر النظري والممارسة العملية.

والامر الثاني: هو أن اعتبار كرامة الانسان قيمة القيم يعني اعتبارها معياراً أساسياً للحكم على أي نظام سياسي أو اقتصادي في أي بلد، وعلى ما يسمى ب "النظام العالمي"، فالتقدم وفقاً لهذا المعيار لا يقاس بالآلات والأبراج بل بمكانة الانسان وبصون كرامته.

كيف تجلت هذه الرؤية الفلسفية الأخلاقية في بعض كتابات السقاف:

يشدد السقاف على قدسية حياة الانسان وسمو كرامته وحرمة حقوقه، فهو يؤكد في مقالة بعنوان (من الرقابة الى القتل) عام 2008 أن ((لكل نفس قدسيتها التي تؤكدها الفلسفات الشرقية السابقة على الأديان والأديان كافة. ولعل تعريف القرآن الكريم لهذه القدسية ذروة هذه القداسة لأنه ساوى بين قتل نفس واحدة بغير حق وقتل الناس جميعاً))(2). وفي ((تحية إلى إخواني الانفصاليين المتقاعدين العسكريين والمدنيين في جنوب ما بعد 7/7 " عام 2007 يشير السقاف إلى أن الدولة ليست كياناً أسطورياً محاطاً بالأسرار، بل هي صنيعة الانسان من أجل خدمة الانسان فحسب، فما يصنع الدولة ... وهي صنع انساني، إنما هو المدنية الثقافية التي ترسي أسس السياسة، فتكون الدولة ضرورية ولازمة بقدر ما توظف لخدمة المدنية الثقافية))(3). هكذا يرى السقاف وظيفة الدولة، وهكذا يجعل حاجة المواطنين إليها، وخدمتها لهم، مبرراً وحيداً لوجودها الضروري، والسياسة رعاية الشأن العام، شأن المواطنين كافة، وحياتهم المشتركة المدنية الثقافية، أي التمدن السياسي الثقافي. وفي المركز من هذا المتحد السياسي الثقافي تقع كرامة الانسان. يقول السقاف مخاطباً المتقاعدين العسكريين والمدنيين الذين خرجوا من دوائر التذمر السلبية الى فضاء الفعل النضالي السلمي ((لقد خرجتم تدافعون عن الكرامة الانسانية، وهي أساس كل متحد انساني وكل تجمع، فإذا لم تُضمن، فقدت هذه الكيانات علة وجودها، ويصبح أفولها مسألة وقت))(4)

كان الدفاع عن الكرامة الإنسانية عصب المذهب الإنساني، الذي مثل المحتوى الأخلاقي والفكري لعصر النهضة الأوروبية، أما السقاف فلا يقف عند التشديد على صون الكرامة الإنسانية بل يتخذها اساساً لكل شكل من أشكال الاجتماع الإنساني

وكل الدولـة، ويعدهـا غايـة التقـدم في كل مجالاتـه العلميـة والاقتصاديـة والسياسـية ومعيـاره الأهـم. إن هـذه الفكـرة (السـقافية) عـن الكرامـة الإنسـانية باعتبارهـا غايـة أسـمى مـن وراء كل مـا يصنعـه الانسـان، كونهـا معيـاراً دقيقـاً للحكـم عـلى أخلاقيتـه وجـدواه، تعيـد إلى الأذهـان إحـدى مسـلمات الامـر القطعـي عنـد الفيلسـوف الألمـاني إيمـا نويـل كانـت (1724 ـ 1802) الـتي تقـول بصيغـة الأمـر: عامـل الإنسـانية في شـخصك وفي شـخص كل إنسـان سـواك باعتبارهـا غايـة وليسـت وسـيلة.

الدفاع عن المواطنة كفاح يومي:

الديمقراطيـة في نظـر السـقاف ((لا معـنى لهـا بـدون حقـوق الانسـان))(5)، كمـا ((لايمكـن الحديـث عـن المواطنـة خـارج دائـرة الحقـوق والواجبـات))(6)، والدفـاع عـن المواطنـة وعـن الحريـة والكرامـة وعـن حقـوق الانسـان والديمقراطيـة هـو كفـاح يومـي تضامـني إذ ((لاشيء مثـل التضامـن يدحـر الظالـم ويعلـن تمسـكنا بالكرامـة. والحريـة دائمـاً هـي حريـة الآخـر: القريـب والبعيـد والجـار، مـن نتفـق أو نختلـف معـه))(7). لـم يفـرق السـقاف بـين حقـوق وكرامـة مواطـن يمـني وآخـر تحـت ايـة ذريعـة، لذلـك لـم يمنعـه دفاعـه اليومـي عـن المواطنـين في الجنـوب الذيـن سـلبت حقوقهـم وأذلـت كرامتهـم بعـد 7/7/ 1994م، بمـا في ذلـك اعترافـه بمطلبهـم بحـق تقريـر المصـير مـن التضامـن مـع كل مـن تنتهـك حقوقـه وتمـس كرامتـه في ايـة محافظـة يمنيـة، إذ بنفـس الحمـاس والإخـلاص دعـا الى تحريـك (قافلـة تضامـن مـع أهلنـا في لـواء إب) عـام 2007 للوقـوف مـع أهـالي منطقـة (الجعاشـن) بمديريـة ذي السـفال، ولـم يكتـف بدعـوة الآخريـن الى التحـرك العمـلي بـل اختتـم مقالتـه تحـت العنـوان السـالف الذكـر بالقـول ((ويشرفـني أن أكـون عضـواً في هـذه القافلـة)) (8). لقـد رأى السـقاف في تهجـير أفـراد سـبعين أسرة مـن منطقـة رعـاش بمديريـة ذي السـفال الى منطقـة حـرض بمديريـة العديـن، مـن قبـل شـيخ المنطقـة وأتباعـه، وملاحقتهـم إلى أماكـن نزوحهـم، ونهـب واغتصـاب ممتلكاتهـم ((اعتـداءاً عـلى كل مقومـات المتحـد الاجتماعـي وعـلى مفهـوم المواطنـة وقبـل ذلـك وبعـده عـلى الحريـة والكرامـة الإنسـانية))(9)، ووضـع مافعلـه الشـيخ في إطـاره التاريخـي ـ الاجتماعـي وهـو حتمـاً إطـار تجـاوزه الزمـن بقـرون إلا في اليمـن، حيـث يقـول السـقاف((إن المشـهد بواقعيتـه السـوريالية يعـود بنـا الى نظـام القنانـة الـذي عرفتـه أوروبـا، حيـث كان الاقطاعـي حاكمـاً يسـتقل بمنطقتـه وتربطـه

علاقـات الجبايـة والالـتزام بالضرائـب بسـلطة المركـز))(10).

إن قائمـة القضايـا والاسـماء الـتي كتـب عنهـا السـقاف مدافعـاً ومنـاصراً تشـمل كل جغرافيـا اليمـن، وجميـع الفئـات الاجتماعيـة والانتمـاءات السياسـية، لا بـل لـم تغـب عنـه قضايـا حريـة الـرأي وحقـوق الانسـان في بلـدان عربيـة كسـوريا والسـعودية، وأجنبيـة كروسـيا.

المثال السياسي والاجتماعي الذي تطلع اليه السقاف:

في ختـام تحيتـه المتقاعديـن العسـكريين والمدنيـين في الجنـوب، ـ الـتي سـبق الإشـارة إليهـا ـ قـدم السـقاف مـا رأى تقديمـه مـن النصائـح لترشـيد العمـل النضـالي والكفـاح السـياسي وإكسـابه حيويـة وفاعليـة، كمـا حـدد المثـال السـياسي والاجتماعـي الـذي يصبـو إليـه، لذلـك رغبـت في أن اختتـم هـذه السـطور بمـا اختتـم بـه السـقاف تحيتـه المذكـورة. يقـول السـقاف مخاطبـاً المتقاعديـن الجنوبيـين العسـكريين والمدنيـين:

((وبالنسـبة لي فقـد عـدت الى التفكيـر في قضيـة تشـغلني منـذ 7/7/1994م ألا وهـي أن البـلاد بحاجـة الى حـزب جديـد، لا يرفـض مـا قبلـه بـل يسـتفيد منـه، ولا يكـون دون مسـتوى قضايـا الواقـع الـذي يمـور بالمشـكلات الجسـام والمصيريـة، ولا يتجاوزهـا في جمـوح دون كيخـوتي، بـل يحـاول الإمسـاك بتلابيـب الواقـع بواسـطة وعـي مطابـق لـه، وحاجتنـا الى التحـرر مـن كل القيـود الكابحـة والتحريـر الـذاتي بالشـجاعة والصـدق، أمـور لـم تعـد تحتمـل التأجيـل، مـن أجـل وطـن حـر وشـعب سـعيد، ولكـم مـني تحيـة تقديـر وإعجـاب وتضامـن 27/5/2007م))(11).

الهوامش :

(1) يقـول عبـد البـاري طاهـر عـن المكانـة الـتي احتلتهـا قضيـة الانسـان وحريتـه وكرامتـه لـدى أبي بكـر السـقاف مايـلي: قـال لي رفيـق دربـه الأسـتاذ الجليـل والمناضـل عبـد اللـه حسـن العالـم ((إن مفتـاح شـخصية أبي بكـر السـقاف احـترام الآدميـة والدفـاع عـن الكرامـة الإنسـانية)). انظـر الكتـاب التكريمـي لعبـد البـاري طاهـر بمناسـبة اختيـاره ضمـن قائمـة أهـم مائـة شـخصية تدافـع عـن الحريـة في العالـم بعنـوان: عبـد البـاري طاهـر صـوت الحريـة وقلمهـا، إعـداد/ علـوان الجيـلاني، هشـام محمـد، محمد العـزاني، إشراف د. عـزي شريـم (بـدون عـام ومـكان الإصـدار) ص152.

(2) السقاف، د. أبو بكر، دفاعاً عن الحرية والانسان، إعداد منصور هايل، منتدى الجاوي الثقافي(1)، صنعاء، الطبعة الأولى، 2011، ص468.

(3) المصدر السابق، ص251.

(4) المصدر السابق، ص252.

(5) المصدر السابق، ص253.

(6) المصدر السابق، ص254.

(7) فلنتضامن مع محمد صادق العدني واصلاحيي الجزيرة العربية // المصدر السابق ص474

(8) قافلة تضامن مع أهلنا في لواء إب. المصدر السابق، ص459.

(9) المصدر السابق، ص455.

(10) المصدر السابق، ص454.

(11) المصدر السابق، ص254.

(*) رئيس قسم الفلسفة ونائب العميد للشئون الاكاديمية والدراسات العليا والبحث العلمي سابقا كلية الاداب والعلوم الإنسانية-جامعة صنعاء.

أبوبكر السقاف في جدل الفلسفة، والواقع

أ. قادري أحمد حيدر
كاتب وباحث

أستطيع القول إن الفلسفة كمشروع ورؤية ومنطق تفكير، بل وكقضية حياة، هي مَعَانٍ حاضرة وفاعلة في عقل وتفكير وسلوك د. أبوبكر السقاف، أقواله العابرة (الشفاهية)، تنطق فلسفة، دروسه الجامعية في قاعة الدرس مشبعة بالرؤى الفلسفية العميقة، الحالمة، كتاباته تحديداً خلال السبعينيات والثمانينيات، وهي المرحلة التي غلب فيهما التنظير الفلسفي والكلامي عليه: في الفلسفة اليونانية والإسلامية، والفلسفة الحديثة والمعاصرة، وصولاً للتخصص الإبداعي، في الفلسفة الشرقية، ولذلك اختير ليكون عضواً في أكثر من موقع وجمعية فلسفية عالمية وعربية، عضواً فاعلاً فيها.

كُنتُ في فعالية فكرية في موسكو (الاتحاد السوفيتي)، وسمعت كيف يتردد اسمه من البعض، حين عرفوا أننا من اليمن، ومرة ثانية، وبالمصادفة كنت في القاهرة في فعالية فكرية وثقافية، وكان حاضراً فيها، الصديق توفيق الصالحي، والذي كان في حينها يستكمل دراسته الجامعية لنيل درجة الدكتوراه في الفلسفة، وسمعت من أحد أساتذة الفلسفة إشادة به، ويومها أبلغني الأستاذ والفيلسوف والمفكر والمناضل/محمود أمين العالم، بأهمية وضرورة أن يكون د.أبوبكر السقاف مشاركاً في أحد أعداد "كتاب قضايا فكرية"، الكتاب الدوري التخصصي الذي يصدر تحت إشرافه المباشر، وألحَّ الأستاذ/ محمود العالم عليَّ في إيصال هذه الرغبة والطلب إلى د.أبوبكر السقاف، وأبلغته بذلك، ولم يفِ أو يلبي أبوبكر تنفيذ ذلك الطلب وتلك الرغبة، بالكتابة في العدد/ الكتاب، لأسباب خاصة به، فلم يكن د. أبوبكر السقاف – مع الأسف – مبادراً لأن يكون حاضراً للمشاركة في هذه الفعالية، ولا مهتماً بحضور اسمه على صفحات المجلات، وهو الذي غادرنا ولم يأخذ ما يستحقه من الألقاب العلمية (الأكاديمية)، وهو الذي ترقى وترفع، بل ودرس على أبجديات تعليمه معظم أساتذة قسم الفلسفة والاجتماع في جامعة صنعاء، وصار بعض تلامذته النجباء، وحتى غير النجباء، أساتذة (بروفيسورات)، كألقاب ودرجات علمية، دون أن يكون لديهم، أو لبعضهم على الأقل، تحصيل فلسفي وعلمي حتى بمقدار 10% مما يمتلكه د.أبوبكر السقاف، من قدرات وإمكانيات، ومؤهلات فكرية وعلمية، تجعله في موقع ومركز "أستاذ الأساتذة" (أستاذ كرسي)، في معظم أقسام

الفلسفة في العالم العربي، وهو الذي كان يطلب ويستدعى أستاذاً زائراً في العديد من جامعات العالم، وكان يرفض أن يكتب قبل اسمه لقب (دكتور)، وينشر موضوعاته باسم أبوبكر السقاف، دون لقب "الدال". لأنه حقيقة أرفع وأكبر وأسمى من جميع الألقاب، والدرجات التي يجاهد البعض بالحق، وبالباطل أكثر، للحصول عليها كدرجة وظيفية مالية، أو للتباهي الإعلامي أو كمكانة اجتماعية شكلية.

يكفي القول إن رسالته للماجستير واطروحة الدكتوراه لم تطبعا حتى الآن، بل ولا نعلم أين هما، فضلاً عن بعض مخطوطاته الفلسفية العامة، وفي الفلسفة الشرقية تحديداً، الذي كان يُدرِّسها، وله طلاب نجباء في هذا الحقل العلمي الفلسفي.

ومن هنا أطالب أسرته ومن تبقى منهم، وأصدقاءه وتلامذته الأوفياء، وجميع المشتغلين بالفلسفة، والفكر، وحتى السلطات الرسمية، بالتعاون لمطالبة الأجهزة الأمنية باستعادة ما تم نهبه ومصادرته من أعماله الفكرية المخطوطة.

د.أبوبكر السقاف شخصية استثنائية، و"إشكالية" في نفس الوقت يصعب أن نجد من يماثله، أو يشابهه في مقاومته للطغاة، وفي عدم حب الظهور، وفي الإعلان عن اسمه كما هي عادتنا مع البعض.

هو بالفعل شخصية إبداعية حياتية واقعية مقاومة. ظهر عليه تغليبه للفلسفة السياسية، أو الفكر السياسي تحديداً منذ النصف الثاني من تسعينيات القرن الماضي، حتى رحيله، أي إدخاله المعنى والمفهوم الفلسفي الخاص والعام، إلى دائرة الشواغل السياسية، وهو ما يقوله كتابه "دفاعاً عن الحرية"، خلافا لكتابيه الأولين اللذين سنجد الفكري والفلسفي العام غالبا فيهما، حيث رأينا - بعد ذلك - اهتمامه بالمعطى السياسي والاجتماعي والاقتصادي الواقعي للناس، بقدر اهتمامه الكبير بقضايا الحريات، والحقوق الخاصة والعامة المتصلة بحياة الناس، وخاصة بعد أن تحولت حرب 1994م إلى كارثة سياسية ووطنية على الصعد كافة.. من حينها تغلب نسبياً عليه الهم السياسي والاجتماعي والاقتصادي، بروحية ولغة الفيلسوف، حتى وهو يكتب في الشأن السياسي العادي والعام (الفكر اليومي) تقرأ بين السطور روح الفكرة الفلسفية، حيث منحى الخطاب الفلسفي يطغى على معظم كتاباته، فهو أول من نحت مصطلح "القضية الجنوبية"، من خلال صحيفة "الأيام"، وغيرها، وهو أول من تحدث بوضوح دون مواربة عن "احتلال الجنوب"، ومن أوائل من هندس تقديم قراءة سياسية مقاومة للاستبداد السياسي والديني والعسكري. واليوم نسمع بعض طلبة المدارس (الجامعة)، في بعض أقسام الفلسفة، من حفظة فهارس عناوين كتب الفلسفة، يتحدثون من أن أبوبكر السقاف ليس لديه إسهام فلسفي جِدَّيٌ يعتد به، مع أنه يتنفس فلسفة. كما

قال بعضهم، في مرحلة سابقة من أن البروفيسور/عبده علي عثمان أحد أهم مؤسسي جامعة صنعاء، وقسم الاجتماع فيها، من أنه ليس لديه درجة دكتوراه، وهو ما يتميزون به عنه، ولمثل هؤلاء أقول يكفيكم فخراً وشرفاً، أنكم تتلمذتم على أيديهما وتلقيتم أبجديات الدرس الفلسفي، والاجتماعي على أيديهما، ومن أن أبوبكر السقاف هو من علمكم مبادئ الفلسفة، ومن أن ترقيات كثير منكم - ومن غيركم - إلى الدرجات العلمية (الأكاديمية) العليا، كانت تحت إشرافه.

إن هؤلاء يذكرونني بالطفل الذي يحمله والده على كتفيه ليمشي به في المكان، ليُدرِّبَهُ على رؤية العالم من حوله، فيتصورون أنفسهم أنهم أكبر من والدهم أو معلمهم وأطول قامة ممن حملهم على كتفيه، إنها ثقافة النجومية الإعلامية والإعلانية، حين تغلب على المعنى العميق للفكر، وللفلسفة وللثقافة في الحياة، إنه زمن العفن السائد.

إن أبوبكر السقاف يذكرني بالصوفي الثائر الحلاج، ويذكرني أكثر بالصوفي المقاوم على كل الجبهات (ابن سبعين)، الذي وجه سهام نقده لواقع انهيار الدولة والإمارات الإسلامية في الأندلس، من خلال نقده للسلطان/ السلاطين، ولوعاظ السلاطين، الذين أعماهم الطمع بمال السلطان، حتى أنهم لم يروا ويشاهدوا حقيقة انهيار عروش الحكم من تحتهم في الأندلس، وتركز كل نقدهم على ابن سبعين، وهو نفس النقد السلبي والإرهاب والقمع الذي وُجه ومُورسَ مع وضد د.أبوبكر السقاف، والحصيلة هو ما نعيشه من حالة تفكك وانهيار لما تبقى من السلطة والدولة.

2-- د.أبوبكر السقاف شخصية إبداعية على أكثر من صعيد، والأهم أنه ربط الإبداع بالمقاومة، بمثل ما وحد بين السياسي والفلسفي، ولد وهو يحمل جينات الفلسفة والمقاومة معاً في أعماقه، ويذكرك بأبطال التراجيدية النبلاء في التاريخ، كان دائماً في موقف "كاسيوس" كما في مسرحية شكسبير "يوليوس قيصر"، وليس "دون كيخوتة"، كان مقاوماً للطاغية والمستبد في اليمن، وحيثما كان ووجد.

كان ناقداً حاداً، وصارماً لواقع الانحطاط، ويعري صورة "فقيه السلطان"، وتنابلته، في صورة "انطونيوس"، في ذات المسرحية. الفارق أن د.أبوبكر السقاف كان يقاوم بدمه ولحمه الحي في جحيم الإرهاب والقتل المباشر، و"كاسيوس" شكسبير شخصية مسرحية فنية متخيلة. وبهذا المعنى كان د.أبوبكر السقاف التجسيد الواقعي لمعنى المقاومة على الأرض، وليس في نص مسرحي، مثل البعض في حياتنا اليوم، الذين يتلونون كالحرباء، ولذلك كان د.أبوبكر السقاف ينمي ويطور في معطيات الحاضر، ويدفع بنا إلى المستقبل.

اندحر الطغاة، وسيندحر من تبقى منهم، ومعهم تنابلتهم، وسيبقى اسم د.أبوبكر السقاف، خالداً في سماء حرية الفكر والفعل والقول، ولذلك نجد أنفسنا مدفوعين

وبقوة لاستعادته وأمثاله ليكون سفرهم، وتاريخهم الذاتي عوناً لنا فيما نواجهه اليوم من مصاعب وتحديات.

والمفارقة النبيلة والجميلة، أن هذه الرموز والنماذج: أبوبكر السقاف ورفاقه، نتذكرهم في كل الحالات، في الحزن، وفي الفرح، ذلك أنهم كانوا رموزاً في مقاومة الاستبداد، وضد تعميم الحزن والموت في حياة الناس، وهم كذلك صناع لحظات الفرح في حياتنا، لتقليص مساحة حضور الحزن لصالح تمدد مساحة الفرح.

عاش د. أبوبكر السقاف مقموعاً، ومحاصراً، ومضروباً ومنهوباً، بعد أن طال النهب في حياته حتى إنتاجه الفلسفي والفكري، بعد عملية الاعتداء الوحشية عليه جسدياً، تعبيراً عن مدى كراهية نظام القبيلة والعسكر "العفاشي" للفلسفة وللفكر وللإبداع العقلي، في صورة رموز التنوير في بلادنا، ولذلك قال شيخ القبيلة / والحرب، في كل الأحوال، عبدالله بن حسين الأحمر، "من كتب لُبج".

كان رهان د. أبوبكر السقاف الاستراتيجي على المستقبل، فقد كان محكوماً بالأمل الواعي، الأمل المفكر فيه في كل لحظة، أمل حاضر في رؤاه وكتاباته، كما هو حاضر في سيرة حياته اليومية، بالعمل الدؤوب صوب ذلك الأمل/ المستقبل، كان يقول حكمته ويمشي صوبها، ويندفع بكل قواه صوب تحقيق ذلك الأمل/ المستقبل رابطاً الأمل بالعمل، لأنه محكوم بإرادة فعل الحرية، إرادة فعل التغيير.

كان صورة مثالية ونموذجية لـ"كاسيوس العربي المعاصر"، على خطى أقرانه في الفعل الثوري التاريخي: عمر الجاوي، يوسف الشحاري، الشهيد/ د.حسين مروة، الشهيد/ د.مهدي عامل، الشهيد، فيصل عبداللطيف الشعبي، الشهيد/ عبدالفتاح إسماعيل، الشهيد/ فرج الله الحلو، الشهيد/ شهدي عطية ... إلخ.

لم يمت د. أبوبكر السقاف بصورة طبيعية، فآثار التعذيب الكهربائي البشع على جسده عَجَّل وسرَّع بانهيار جسده، وبوفاته، رحيله فعل شهادة، واستشهاداً بكل ما تحمله الكلمة من معنى.

د.أبوبكر السقاف، نموذج حي لمحنة المثقف العربي في زمن الفساد والاستبداد، والانتهازية السياسية، نجد صورتنا المثالية المنشودة في سرديته البطلة، وفي مقاومته الأسطورية، هو بحق ذاتية/ إنسانية "إشكالية"، في الواقع السياسي العربي المعاصر، نضاله ورحيله الفاجع صورة تعبيرية عن أزمة الواقع، والفكر، وأزمة الذات في مناخات القمع والاستبداد. أزمة العقل النقدي في واقع الانحطاط، ولذلك لا تروج وتنتشر في مثل هذه المناخات سوى كتابات أصحاب الحناجر "النباحية" وكتابات "وعاظ السلاطين".

كان د. أبوبكر السقاف في كل سرديته الحياتية على يقين إبداعي ثوري تاريخي بأن جدلية

التطـور والتقـدم الاجتماعـي لـن تقـف عنـد هـذا الحـد، ومـن أن المسـتقبل آت، ومـن أن الجديـد والأكـثر جـدة قـادم، إنـه أسـتاذ الجـدل المـادي، الفلسـفي الاجتماعـي التاريخـي، الـذي لـم يكـن يأبـه "للحتميـة الميكانيكيـة"، كان يـدرك أن "العفاشـية" و"الأحمريـة" و "الزنداني ـة" لحظـات عابـرة في صـيرورة الفكـر والواقـع والتاريـخ. هكـذا كان يقـول ويكتـب، ولذلـك كان "يلبـج"، ويسـتمر في الكتابـة وهـو في قمـة التعـب الجسـدي مـن "اللَّبـج".

مـن يحمـل كل هـذه الطاقـة مـن العنـاد، لفـرض منطـق المغايـرة للسـائد، ومـن كان يـصر عـلى الاسـتمرار في القـول المعانـد، ومـن أن الأرض والنـاس تـدور، ومـن أنهـم محكومـون بالتقـدم عـلى قاعـدة الأمـل والعمـل، لا يمكنـه أن ينكـسر ويرفـع الرايـة البيضـاء، للاسـتبداد، ولذلـك دهسـت الكتابـة الجدليـة الإبداعيـة صـورة نمـاذج شكسـبير الخنوعيـة في مسرحيتـه "يوليـوس قيـصر" ونمـاذج شـيخ القبيلـة في صـورة عبداللـه الأحمـر ونمـاذج الإرهـاب، والتكفير الديـني، في صـورة عبدالمجيـد الزنـداني. وبقـي اسـم البطـل الأسـطوري "الكاسـيوسي"، أبوبكـر السـقاف صامـداً، وشـامخاً في سـماء الكتابـة النقديـة والديمقراطيـة الإبداعيـة.

لقـد اجتمعـت في د. أبوبكـر السـقاف فكرتـان، وقضيتـان، وحقيقتـان خالدتـان حكمتـا وتحكمتـا بمنطـق تفكـيره، وسـلوكه العمـلي، وهمـا: ثنائيـة الأمـل والعمـل، وثنائيـة "الجـدل المـادي/ الفلسـفي، والجـدل الاجتماعـي التاريخـي"، في صـورة وصيغـة "التفـاؤل التاريخـي"، تفـاؤل متوحـد بالعمـل الـدؤوب لجعـل الأمـل حقيقـة ملموسـة ولذلـك انتـصرت إرادتـه مـن أول لحظـة عـلى عنـف ووحشـية إرادة "اللَّبـج"، انتـصرت إرادة الفكـرة، عـلى تشـاؤم الواقـع وانحطاطـه، وفقـا للتعبـير الهيجـلي.

كان، وبقـي، وظـل، ومـازال، وسـيظل، د.أبوبكـر السـقاف تعبـيراً عـن إرادة الحريـة وإرادة التغيـير، وتجسـيداً عميقـاً لـدور إرادة الشـعب في التغيـير، وبقـي "شـيخ اللَّبـج" وأعوانـه عنوانـاً بائسـاً عـلى خـط الـزوال والأفـول في التاريـخ، لـن يذكـر التاريـخ، شـيخ اللَّبـج وشـيخ التكفـير الديـني، بمثـل عـدم ذكـره، عـلي عبداللـه صالـح، زعيـم الفسـاد العـام، إلا وهـم مصحوبـون بالـذم والقـدح.

لقـد انتـصرت إرادة الكلمـة الحـرة، وسـقطت قـوة فعـل "اللبـج" في تحديـد مسـار الواقـع والتاريـخ، بقـي د.أبوبكـر السـقاف عنوانـاً لرمزيـة التحـرر والتقـدم والديمقراطيـة، وشـيخ القبيلـة ورئيسـه، صـورة قاتمـة لأسـوأ صفحـات التاريـخ الملطخـة بالـدم والقتـل؛ فمـن الصعـب أن تنتـصر إرادة "الحتميـة الميكانيكيـة"، "حتميـة القتـل"، عـلى إرادة جدليـة صـوت المدنيـة والحيـاة، والحضـارة، جدليـة صـوت الشـعب في مواجهـة سـوط المسـتبد، فالشـعوب هـي مـن تصنـع التاريـخ، ولكـن عـبر رموزهـا المقاومـة والمنظمـة لإرادة ذلـك الفعـل في التاريـخ، ود.أبوبكـر السـقاف مـن أبـرز وأهـم هـذه النمـاذج في حياتنـا اليمنيـة

المعـاصرة.

لذلـك كان، وتحـدد دور د. أبوبكـر السـقاف في تنميـة عقـل الشـعب وتحفـيزه عـلى التفكـير والحـوار، والسـؤال، والنقـد، وانحـصر دور شـيخ القبيلـة ورئيسـه في العمـل لإبقـاء المجتمـع في حالـة مـن غيبوبـة الوعـي، ومـن "الجهالـة المسـلحة". ولذلـك كان الشـيخ عبدالله الأحمـر يحـرص أشـد الحـرص عـلى عـدم دخـول المدرسـة والكتـاب، والجامعـة، والطـرق والصحـة والتلفزيـون إلى منطقتـه، سـوى أشـكال التحديـث الـتي فرضـت نفسـها بمنطـق ثـورة 26 سـبتمبر 1962م، وثـورة ١٤ اكتوبـر، ١٩٦٣م، عـلى مجتمـع الإمامـة، والقبيلـة. ومـن هنـا العداء الدفـين للمفكـر والفيلسـوف د. أبوبكـر السـقاف وسـعيهم لإلغـاء قسـم الفلسـفة مـن كليـة الآداب، وهـي تطلعـات رجعيـة مـا تـزال قائمـة حـتى اللحظـة. كان "شـيخ اللَّبـج" مقتنعـاً أن التعليـم مفسـدة لأبنـاء منطقتـه، لأن الشـعب الجاهـل أسـلس قيـادة مـن الشـعب العـارف، مـع أن أولاده درسـوا في جامعـات العالـم الحديثـة، وراكمـوا مليـارات الريـالات وملايـين الـدولارات مـن أمـوال الشـعب/ النفـط، والغـاز، أمـا أبنـاء القبيلـة فـ"أرزاقهـم عـلى أسـنة رماحهـم"، حسـب تعبـير ابـن خلـدون.

إن شـيخ اللبـج، وشـيخ التكفـير الديـني "عبدالمجيـد الزنـداني" وعفـاش هـم التعبـير العميق عـن أزمـة الواقـع والفكـر، أزمـة اسـتمرار حضـور بنيـة "الدولـة العميقـة" حـتى اليوم.

د. أبوبكـر السـقاف هـو حامـل مشـعل النـور، "البروميثيـوسي"، ولهـذا هـو، والدولـة العميقـة، وقواهـا السياسـية والاجتماعيـة، طرفـان في جدليـة متناقضـة لا يلتقيـان.

كان د.أبوبكـر السـقاف – وأمثالـه - وهـو يقـرأ ويكتـب في الراهـن، والتاريخـي، إنمـا كان يكتـب ويرسـم صـورة الشـعب البسـيط، صـورة الحقائـق المغيبـة في جبة الاسـتبداد السـياسي والديـني والعسـكري، ولذلـك تجسـدت هيئتـه وصورتـه كمثـال وتمثـال واقعـي لمعـنى وفكـرة الثـورة والتغيـير.

لك المجد والخلود في الأعالي أيها العلم الشامخ في سماء حياتنا.

ولا نامت أعين الطغاة والقتلة.

ظاهرة الاغتراب في الشعر اليمني

الشعراء الشباب
عباس ناصر مسعود و عبدالله الأحمدي (أنموذجا)[1]

د.عباس حسن صالح
استاذ الأدب العربي المساعد
جامعة عدن

أمَّا قبل ...

هـذا الموضـوع وإن كان أدبيـا خالصـا إلا إنـه يحمـل رسـالة هامـة إلى ذوي الشـأن والقائمـين عـلى أمـر اليمـن مفادهـا: أن قـد بلـغ السـيل الـزُّبى؛ فقـد ضـاق الوطـن بأهلـه، وصـار أكـثر ضيقـا وغُربـة بالشـعراء والأدبـاء والمثقفـين، ليـس ذلـك فحسـب بـل إن الوطـن قـد ضـاق بنفسـه فأصبـح يبحـث وطـن ... مـا جعلـني أبـدأ بهـذه المقدمـة القاسـية هـو تلـك الصـور الشـعرية المؤلمـة الـتي جسـدت الاغـتراب في أعمـق معانيـه عنـد الشـاعرين عبـاس والأحمدي.

وبعد ...

فـإن النصـوص الشـعرية الـتي سـنتناولها في هـذه الدراسـة قـد فاقـت (قـس بن سـاعدة)(2) فصاحـة في التعبـير عـن مضمونهـا الـذي يُمثـل معانـاة شـعب جسـدها الشـاعران في أوضـح صـورة؛ فهـي لا تحتـاج إلى (ترجمـان)، لذلـك فـإن كل مـا سـنقوم في دراسـتنا المتواضعـة هـو تبصـير القـارئ الكريـم بمواطـن الجمـال فيهـا مـن خـلال الوقـوف عـلى الموضوعـات الآتيـة:

أولاً: مفهوم الاغتراب.
ثانياً: البنية اللغوية في شعر الاغتراب.
ثالثاً: الصورة الشعرية.

أولاً: مفهوم الاغتراب:

1) الاغتراب لغة:

جـاء في لسـان العـرب: الغَـرْبُ: هـو الذهـاب والتنحـي وقـد غـرب عنـا، يغـرب، غربـا، وأغـرب وغرَّبـه وأغربـه: نحَّـاه، والاغـتراب والتغـرُّب والغربـة: الـنزوح عـن الوطـن والاغـتراب. (3)

2) الاغتراب اصطلاحاً:

تُشير كثير من الدراسات إلى إشكالية هذا المصطلح، ومع ذلك فإننا نرى أن هناك فرقا كبيرا بين الغربة والاغتراب وذلك لما تتضمنه الغربة من معنى ومفاهيم العزلة، والثانية من معنى الانفصال المعنوي الذاتي فالغربة ترادف معنى العزلة أي أنها تعني انفصال الإنسان عن مجتمعه وأسرته أو وطنه أو عالمه، أما الاغتراب فإنه أكثر ما يتجلى في الانفصال المعنوي الذاتي، فقد يكون الإنسان بين أهله و أفراد مجتمعه ولكن اعتزاله يتزايد حده كلما أحس بعدم الانتماء فينجر إلى التمرد والعصيان.(4)

ومن أهم أنماط الاغتراب التي يعانيها المبدع العربي الاغتراب السياسي الذي ينجم عادة عن (إحساس الشاعر بالضياع والقهر بسبب الاستبداد السياسي، وفقدان الأمن والأمل، وهو يعني رفض الشاعر لواقع مجتمعه ... من خلال تجسيد مشاعره، وأثر تلك القضايا في نفسه، فالشاعر مرآة المجتمع حين يُصوّر إحساسه ومشاعره تجاه ما يمرُّ به من أحداث، ولا بُدَّ للسياسة من أن تهزُّ مشاعره، وتشغل مخيلته وتثير شجونه).(5)

وفي جميع الأحوال يمكننا القول إن الاغتراب نابع عن الإحساس الصادر عن ذات شاعرة مبدعة، حزينة، قلقة، تسعى إلى معانقة الحلم والرؤيا، والتحرر من أغلال الكبت النفسي والسياسي والثقافي والاجتماعي.

ولن نطيل في الحديث عن تطور المفهوم من جان جاك روسو وصولا إلى هيجل فيورباخ وجون لوك وكنت وماركس وغيرهم من المفكرين والفلاسفة فهذا ليس مجاله هنا، ولعل ما يهم القارئ هنا هو معرفة ما وصل إليه هؤلاء بعد تحديدهم للمفهوم من أنماط الاغتراب وهي:

الاغتراب الاجتماعي، الاغتراب السياسي، الاغتراب العاطفي، الاغتراب المكاني، الاغتراب الروحي.

ثانياً: البنية اللغوية:

من الأمور التي أكَّد عليها الإمام عبدالقاهر الجرجاني في نظرية النظم: أنَّه ليس هناك ألفاظ شعرية وألفاظ غير شعرية؛ وإنّما هناك ثِقل خاص تكتسبه المفردات في الشعر من خلال السياق الذي تُوضع فيه، فالسياق وحده هو الذي يمنح الألفاظ شاعريتها أو العكس، والشعر الجيد هو الذي يُكسب اللفظ قوة ونضجاً.(6)

وذلك ما أشار إليه (دي سوسير) لاحقا في حديثه عن عمل العناصر – أي الألفاظ - في البيئة اللغوية من أجل انتاج المعنى – أي مواضعها -، وليس على العناصر ذاتها.(7)

وقريب من ذلك ما نجد عند الناقد الإنجليزي (ريتشاردز) فيما يتعلق بقضية النظم، وعلاقة الألفاظ ببعضها، حيث يقول: ((... إن النغمة الواحدة في أية قطعة موسيقية لا تستمد شخصيتها ولا خاصيتها المميزة لها إلا من النغمات المجاورة لها. وإن اللون الذي نراه في أية لوحة فنية لا يكتسب صفته إلا من الألوان الأخرى التي صاحبته وظهرت معه. كذلك الحال في الألفاظ؛ فإن معنى أية لفظة لا يمكن أنَّ يتحدد إلا من علاقة هذه اللفظة بما يجاورها من ألفاظ)).(8)

والحديث عن البنية اللغوية بشكل عام لا يكتمل إلا بالوقوف تفصيلا على المعجم الشعري عند الشاعرين مسعود والأحمدي، وهو ما سنفصل فيه القول فيما يأتي.

المعجم الشعري:

تكتسب الألفاظ في المعجم الشعري قيمة أكبر ممَّا هي عليه في غيره من أنواع الخطاب؛ لذلك فإنَّ لكل شاعر لغة يتفرد بها عن غيره من الشعراء، وقد يكون ذلك التفرد على مستوى اللفظ أو التراكيب؛ فيتحدد المعجم الشعري من خلال مجموعة الألفاظ التي تبرز عند شاعر معين أو مجموعة من الشعراء حتى تغدو ملمحاً أسلوبياً يتصف به نتاجهم الشعري.

ومما ينبغي الإشارة إليه أنَّ تأسيس المعجم الشعري يتم وفقا لذوق الشاعر، ووفقا لتكوينه الثقافي، وقدرته على اختيار الألفاظ التي تناسب الحالة الشعورية التي يريد التعبير عنها.

وبالنظر إلى المعجم الشعري عند الشاعرين نستطيع القول إن الألفاظ الدالة على الاغتراب السياسي والنفسي قد أخذت حيزا كبيرا مقارنة بغيرها من ألفاظ المعجم الأخرى كالطبيعة وغيرها كما سنُبيّنُ لاحقا.

وذلك ما يدلُّ عليه ما نجد عند الشاعر (عباس ناصر) في هذا النص الموسوم بـ (الاغتراب في الوطن) وإذا تجاوزنا اللمحة الدلالية التي يحملها عنوان النص فإننا لا نستطيع أن نتجاوز الألفاظ الدالة على الاغتراب فنجدها تشع بين أبيات النص لتستوقف القارئ كي يتدبر ما تحمله من دلالات، ومن هذه الألفاظ: (شوقاً، نازفاً، العذاب، غبت، الخراب، أبكي، حزناً، نحيباً، انتحاب، أُنهكت، اغتراب، اشتياقا، الغياب)، وذلك ما يبينه قوله:

تحمـلُ الأَضـلاعُ شـوقاً نازفـاً يشـكو العـذابْ
لِحبيـبٍ غِبـتُ عنـهُ منـذُ أنْ حَـلَّ الخـرابْ
وأنـا أبكيـهِ حزنـاً مثلمـا تبـكي السـحابْ
كلَّمـا ازددتُ نحيبـاً فاقهـا القلـبُ انتحـابْ

والمؤلـم أن ذلـك الشـوق والبـكاء والنحيـب لـم يشـفع للشـاعر ولـم يُتـحْ لـه الطمأنينـة في وطنـه فقـد أنهكـه الاغـتراب، إضافـة إلى الجحـود الـذي يلقـاه مـن الوطـن فكلمـا زاد شـوقه للوطـن كلمـا تمـادى في الغيـاب؛ والجديـر بالذكـر هنـا أن الشـاعر لا يعـاني الاغـتراب المـكاني فهـو مسـتقر في وطنـه الـذي تنكـر لـه فيقـول:

سـاكنٌ فيـهِ.. ولكـن فيـهِ أُنهِكْـتُ اغـترابْ
كُلَّمـا زِدتُّ اشْـتِياقاً يتمـادَى في الغِيـابْ

وإضافـة إلى ألفـاظ الاغـتراب فقـد اتـكأ الشـاعر عـلى ألفـاظ الطبيعـة في تشـكيل مفهـوم الاغـتراب مثـل: (سـحاب، سـماء، تـراب، مـاء، هـواء)، حيـث يقـول:

تحمـل الأضـلاع قلبـا نازفـاً يشـكو العـذابْ
لحبيـبٍ غِبـتُ عنـهُ لسـماءٍ - وتـرابْ
ولمـاءٍ - وهـواءٍ ولعمـلاقٍ مُهـابْ

ومـع قلـة ألفـاظ الطبيعـة في النـص إلا إن الشـاعر قـد كان موفقـا في توظيفهـا للتعبـير عـن حبّـه لـكل مـا في الوطـن مـن أرض وسـماء وهـواء وتـراب. والجميـل أن الشـاعر يحمـل كل هـذا الحـب والوفـاء للوطـن مـع مـا يلقـاه مـن جحـود وتنكـر منـه والدليـل عـلى ذلـك أنـه وصفـه في ختـام الأبيـات بعمـلاق مهـاب.

وبـين معانـاة الاغـتراب واليـأس مـن عـودة الـروح للوطـن، يُمسـكُ الشـاعر الدكتـور (عبدالله الأحمـدي) بخيـوط واهيـة مـن الأمـل، يحلـق بهـا إنسـانه القديـم في سـماء القصيدة لعلـه يخفّـفُ وطـأة الاغـتراب الـتي يخفيهـا في نفسـه، ويبـوح بهـا النـص موضـوع الدراسـة صراحـة مـن عتبتـه الأولى، وهـي عنـوان النـص (جـذور عاريـة في قبضـة الليـل).

تجشـم الشـاعر عذابـات الفـرار مـن الـردى ليقـع في ظلمـات وخسـارات يصعـب تحملهـا لذلـك نجـده يتـكئ عـلى الرمـز الاسـطوري (سـيزيف)(9) ليبـين عـذاب الاغـتراب الـذي يعانيـه فهـو عـذاب (سـيزيفي) أبـدي لا ينتهـي وذلـك مـا جسـدته ألفـاظ الاغـتراب (السـوداوي) الـتي يعـجُّ بهـا النـص مثـل: (وليـلٍ، أسـودا، ليـلٌ، سـهرتهُ، مُسـهدا، الخسـارات، ليـلان، ليـلٌ، وليـلٌ، أدلجـتُ)، إضافـة إلى غيرهـا مـن ألفـاظ الاغـتراب مثـل: (عذابـات، الفـرار، الـردى،

وقعتُ، مُجهدا، الغريب، أثقال، الغريب، شقاءه، شقائي) كما يُبينها قوله:

بكلِّ عذابات الفرار من الردى ... وقعتُ على سطر القصيدةِ مُجهدا
بأثقالهِ حلَّ الغريب بداخلي ... فعشتُ بأثقال الغريب مُسهَّدا
وليلٍ عميقٍ ضمَّني في جفونه ... رأيت طريقي في خفاياه أسودا
ولو أنَّه ليلٌ وحيدٌ سهرتهُ ... لأبقيتُ قنديل الخسارات موقدا
ولكنَّه ليلان ليلٌ بداخلي ... وليلٌ إذا أدلجتُ أرغى وأزبدا
لقيتُ به (سيزيف) يروي شقاءه ... وفيه شقائي كاملاً قد تجسَّدا
ولم يلتفت عند السؤالِ فكلما ... تساءلتُ عن درب النجاة ... تنهَّدا

وفي الجزء الثاني من النص يعود الأحمدي ليؤكد معاناة الاغتراب والضياع معتمدا على ألفاظ الاغتراب التي شكلَّت قطب الرحى في النص، ومنها على سبيل المثال: (تسأل، ملكها، الضياع، دموعها، يقتاتُ، ننشد، عرشها، الخسارات، موصدا، ميراث، الضياع، يُسجن، أحنُّ لإنساني، سجين، بأقفاص، سلبت)، وغيرها التي تعاضدت مع التراث الذي استلهمه الشاعر في التعبير عن حالة الاغتراب التي يعيشها فها هي (بلقيس) رمز الوطن المفقود تنشد (عرشها) رمز للقوة والسلطة، ولكن دون جدوى.

وبعد أن صور الشاعر معاناة الوطن ينتقل ليُصور خسارة أبناء اليمن ومعاناتهم وهم ينشدون عودة فردوسهم المفقود؛ فلا يجدون سوى الضياع (يحجب سماء ميراثهم)، وحينما أغلقت كل أبواب الأمل، يَحنُّ الشاعر للماضي (لإنسانه القديم) بعد أن أصبح كطائر سجين، وأنَّى لطائر سجين أن يغرد ويعلو (ويهدي للصباح شدوه)؛ وفي خاتمة النص يعود الأحمدي إلى رشده ويقينه بأن ما سُلب منه لن يعود مجددا، فقد بات (على الأنقاض صفرا مجردا).

وعموما فقد أفاد الشاعر جيدا من ألفاظ الاغتراب فوظفها توظيفها بديعا سوى على مستوى الصورة الشعرية أم على المستوى الصوتي الموسيقي، - وذلك ما سنبينه فيما يلي من الدراسة - حيث يقول:

هناك أرى بلقيس تسأل عرشها ... وملكاً يناجيها وصرحا ممردا
يمانيةٌ يحسو الضياع دموعها ... ويقتاتُ منها عزمها إن توقَّدا
ونحن بنوها ننشد اليوم عرشها ... ونطرق باباً بالخسارات موصدا
ويحجبُ ميراث الضياع سماءنا ... ليسجن نجماً كان بالأمس مرشدا
أحنُّ لإنساني القديم كطائر ... سجينٍ بأقفاص البقاء مؤبدا
وقد كان يهدي للصباحات شدوه ... ويعلو ويعلو واثقاً كلَّما شدا
سُلبتُ سكوني فارتعدتُ تساؤلاً ... وبِتُّ على الأنقاض صفرا مجردا
نُزعتُ يقيني فالتفت مودعاً ... لأن جذوري لن تعودَ مُجددا

رأينا فيما تقدم كيف اختتم الأحمدي قصيدته (جذور عارية) بقوله:

سُـلبت سـكوني فارتعـدتُ تسـاؤلاً ... وبِـتُّ عـلى الأنقـاض صفـرا مجـردا
نُزعت يقيـني فالتفـت مودعـاً ... لأن جـذوري لـن تعـودَ مُجـددا

والبيتـان يشـيران صراحـة إلى فقـدان الـذات الشـاعرة وجودهـا وفقـدان الوطـن في اللحظـة ذاتهـا؛ فقـد بلـغ الاغـتراب بالأحمـدي أن رأى وجـوده لا شيء فهـو (صفـر مجـردا)، ومـا ذلـك إلاَّ لعِلْمِـه يقينـاً أنَّ الوطـن (جـذوري) لـن يعـود مجـددا ....

وذلـك مـا ذهـب إليـه الشـاعر (عبـاس نـاصر) في قصيـدة (وطـن يبحـث عـن وطـن) حيـث نجـده يُخاطـب الوطـن بقولـه:

وَأَنَـا ... وأَنْـتَ الْغَائِبِـينْ ... فِي أَرض أَرْهَقَهَـا الْحَـزَنْ
يَـا مُوطَـنِي الْبَـاكِي الْحَزِيـنْ ... أَمَـا زِلْـتَ تبْحَـثُ عَـنْ وَطَـنْ؟!

اعتمـد الشـاعر في هـذا النـص عـلى عـدد مـن ألفـاظ الاغـتراب مثـل: (يُعَذِّبُـنِي، اَلْحَنِين، يَطْوِيـنِي، الشَّـجَنْ، أَبْـكِي، جِرَاحَـات، خَيْبَـات، تَسْـتَكِين، سَـكَنْ، اَلْوَهَـنْ، الْغَائِبِـينْ، الْحَـزَنْ، الْبَـاكِي، الْحَزِيـن، تبْحَـثُ) الـتي عـبرت عـن قسـوة الألـم، وعمـق المأسـاة الـتي يعيشـها الشـاعر؛ فهـو يقـاسي (عـذاب الحنـين، ويبـكي الجـراح وخيبـات الزمـن) في وطـن يبحـث عـن هويـة أبنائـه وانتمائهـم؛ فـلا يجـد شيء مـن ذلـك، فلـم يبـقَ مـن الهويـة الانتمـاء للوطـن سـوى (وشـم) دارس نتيجـة لمـا وصلـوا إليـه مـن الضعـف والوهـن - وهـل عنـد [وشـم] دارس مـن معـول - وهنـا يـدرك الوطـن أن مـن لـم يسـتطع الحفـاظ عـلى هويتـه وانتمائـه مـن الصعـب يُحافـظ عـلى شيء آخـر حـتى وإن كان وطـن، لذلـك يقـرر الوطـن أن يبحـث لنفسـه عـن وطـن، وبهـذه الصـورة المؤلمـة يُجسّـدُ الشـاعر صـورة الاغـتراب الـتي يعانيهـا الوطـن قبـل الشـاعر نفسـه؛ فالشـاعر والوطـن كلاهمـا ينشـدان السـلام والأمـان والطمأنينـة في زمـن الكلمـة فيـه للبندقيـة، وهـو مـا يبينـه قـول الشـاعر:

وَأَنَـا يُعَذِّبُـنِي اَلْحَنِـينْ ... وَاليَـكَ يَطْوِيـنِي الشَّـجَنْ
أَبْـكِي جِرَاحَـات السِّـنِينْ ... وَأعـدّ خَيْبَـاتِ اَلزَّمَـنْ
مُنْـذُ رَأيتُـكَ تَسْـتَكِينْ ... وَأَنَـا أُفَتِّـشُ عَـنْ سَـكَنْ
وَأَنْـتَ تَبْحَـثُ فِي اَلْجَبِـينْ ... عَـنْ وَشْـمِ أخْفَـاهُ اَلْوَهَـنْ
وَأَنَـا ... وأَنْـتَ الْغَائِبِـينْ ... فِي أَرض أَرْهَقَهَـا الْحَـزَنْ
يَـا مُوطَـنِي الْبَـاكِي الْحَزِيـنْ ... أَمَـا زِلْـتَ تبْحَـثُ عَـنْ وَطَنْ؟!

حقـاً لقـد وجدنـا في أعمـاق الشـاعر الشـاب عبداللـه الأحمـدي (شـيخ حكيـم أنضجتـه

التجارب)، يدلُّ على ذلك أنه قد قطع الأمل من كل أطراف الصراع، وممن يقف خلفها من القوى الإقليمية والدولية، فهم جميعا يبحثون عن مصالحهم، ويسعون بعزم وإصرار لتحقيق مطامعهم، فليس فيهم من يريد الخير لهذا الوطن وأهله.

لذلك فلا عجب أن نجد الأحمدي في ختام هذا النص الذي وسمه بـ (سبعٌ على قارعة الحرب) يلجأ إلى الله مؤكدا إنه لم يبقَ لنا سوى أن يتداركنا الله برحمة من عنده، ويزيح عنَّا ما ابتُلينا به من عذابات هذه الحرب اللعينة، ويبدو أن الشاعر نظم النص حينما كان عمر (حرب اليمن) سبع سنوات أي في عام 2021م، وحقه اليوم أن يقول: وتسع سنين .... إلخ، ونسأل الله تعالى ألَّا يأتي علينا يوم ونجد الشاعر يقول: وخمسون عاماً والمؤمل غائبُ.

قسَّم الأحمدي النص إلى أربع لوحات شعرية تنوعت بين الذاتي والموضوعي والحلم والحقيقة، يُبيَّنُ في الأولى حال أبناء وطنه مُجسدا في الحال التي وصل إليها، حيث تقوست ظهور الانتظار، وتيبست الأغصان والمؤمل ما زال غائب، وسحاب الأمل كاذب لا يرجى فيه من خير، ومن هنا يُطلق الشاعر لحروفه العنان لِتُعلن ثورته على هذا الوضع المأساة؛ سيما وهو الذي كلَّما تنفس شعرا (يستفيق محارب).

ومما يُحسب للشاعر الأحمدي في هذا النص خاصة – وفي شعره عامة - قدرته على تطويع المفردات لتؤدي ما يرمي إليه من هندسة الصورة الشعرية، ومن ألفاظ معجم الاغتراب التي اعتمد عليها الشاعر في هذه الأبيات: (المؤمل غائب، كاذب، الانتظار، تقوست، ظمئتُ، التنائي، تيبستْ، جفَّتْ، يثور، تنفست، محارب)، هذا على مستوى المفردات، أمَّا على مستوى التركيب، فلا شك أن القارئ يستطيع الوقوف بسهولة على جمال التراكيب عند الأحمدي في مثل: (ظهور الانتظار، ماء الوصل، أخضرَّ كاتب، حرف يثور، تنفستُ شعرا) وغيرها كثير مما يزخر به النص، حيث يقول:

وسبعُ سنينٍ والمُؤَمَّلُ غائبُ ... وكلُّ سحابٍ في سمائِك كاذِبُ
وكلُّ ظُهورِ الانتظارِ تَقَوَّسَت ... ولم يبقَ في أصلابهنَّ رغَائِبُ
فكم ساعةٍ أمسى الرجاءُ بِبابِها ... تؤمِّلُهُ في كلِّ يومٍ سحائبُ
ظمئتُ وماءُ الوصلِ يُغري بِبعدهِ ... ولَولا التَنائِي ماتلذذَ شاربُ
تيبَّست الأغصانُ قبل أوانِها ... وجفَّت مياه الأرضِ فأخضرَّ كاتِبُ
ففي داخلي حرفٌ يثور فكلَّما ... تنفَّستُ شعراً يستفيق محاربُ
وفي داخلي أسفارُ عمرٍ تعتَّقتْ ... وَشَيْخٌ حكيم أنضجته التجاربُ

أشرنا فيما تقدم إلى تقسيم الشاعر للنص إلى أربع لوحات شعرية وقد تناولنا اللوحة

الأولى التي وسمناها بالذاتية، ولكنه ينتقل في هذه اللوحة الثانية (الموضوعية) إلى هموم الوطن وأبنائه، فها هي (الأرض السعيدة) تشكو الظلم الذي وقع عليها صارخة: (أن كفى)، فقد فاق الألم حدّ التحمل، فكيف لها أن تصبر على هذا الجور، وهي التي تستفيق في كل صبح مدامع، وأبنائها يمشون إلى القبور كتائب، وغيرها من الصور المؤلمة التي حفلتْ بها الأبيات، وبالنظر إلى ألفاظ الاغتراب لا بُدَّ لنا من الوقوف على ألفاظ: (تصيح، جفَّ، السوط، يموت، مصائب، مدامع، القبور، سُجنًّا، سجن، قُتلنا، جُلدنا، النوائب)، وذلك ما نجده في قول الشاعر:

تَصِيحُ بِنا الأرضُ السعيدةُ:أن كَفَى! فقد جفَّ ظهرُ الأرضِ والسوطُ ضاربُ
يموتُ على أغصانِها كلُّ عازفٍ وتحيا بها في كلِّ يومٍ مصائبُ
فَفِي كل صبحٍ تستفيقُ مدامعٌ وتمشي إلى ساح القبورِ كتائبُ
وفي كل ليلٍ قطرةٌ من شموعنا تقولُ بأنَّ النُورَ لا شكَّ ذائبُ
سجنّا بلا سجنٍ قتلنا بلا يدٍ جُلدنا بلا ظهرٍ فمن ذا نُحاسِبُ؟
نكابرُ رغم الجرح يا أرضُ فاصبري جبالٌ وُلدنا تشتكينا النوائبُ

مما لا شكَّ فيه أن ختام اللوحتين السابقتين قد استرعى انتباه القارئ بما يحمله من معاني القوة والعزة والأنفة التي عمد إليها الشاعر قصدا ليتحرر من أسر الاغتراب الذي يقاسيه هو والوطن معا، حيث ختم اللوحة الأولى بقوله:

ففي داخلي حرفٌ يثور فكلَّما تنفَّستُ شعراً يستفيق محاربُ
وفي داخلي أسفارُ عمرٍ تعتَّقتْ وَشَيْخٌ حكيم أنضجته التجاربُ

بينما ختم اللوحة الثانية بقوله:

نكابرُ رغم الجرح يا أرضُ فاصبري جبالٌ وُلدنا تشتكينا النوائبُ

وما يؤسف له أن ذلك لم يكن كافيا لتتحرر الذات الشاعرة من أغلال الاغتراب؛ فلجأت إلى عالم الأحلام لتُحقق ما لم تستطع تحقيقه في الحقيقة. فإذا بها (على شرفات الحالمين تراقب) هارب من الحرب يرق إلى (مأذنة العشاق)، وهنا تتحرر الذات الشاعرة (يفلت طائر)، ويجد الوطن (قارب) النجاة؛ فيتحرر الوطن من أهوال الحرب (غضبة الأمواج)، ويتعافى من ندوب التشظي والتمزق متجاوزا (بالحب) كل أشكال الصراع.

وفيما يتعلق بألفاظ الاغتراب التي وظفها الأحمدي في هذه الأبيات؛ فيمكننا الوقوف عليها في مثل: (الليل، البهيم، الحالمين، العشاق، شوق، هارب، لهب، يفلت، يبحر، الحب، صهرتْ)، حيث يقول:

وفي هَـدأةِ الليـلِ البهيـمِ رأيتُـني ... عـلى شرفـاتِ الحالمـينَ أراقِـب
بمأذنـةِ العشـاقِ يـرقَ بشـوقِهِ ... عليهـا مـن الحـرب اللعينـة هـاربُ
ومـن لهـبٍ في الغـاب يفلـت طائـرٌ ... وعـن غضبـة الأمـواج يبحـر قـاربُ
للحـبِّ أذنَّـا وقُمنـا بِفرضِنـا ... وقـد صُهـرت في الركعتَـينِ المذاهـبُ

لكنَّ الشاعر يستفيق من عالم الأحلام ليواجه صدمة الحقيقة؛ فالحرب الظالمة ما زالت تنهش في جسد الوطن والشاعر معا، وتعترف – أي الحرب - بكل جُرأة ووقاحة بأنها هي التي مزقت الوطن فقراً وجوعا (ملأت الأرض قحطاً)، وهي التي تُقطِّع في جسد الشاعر (تخمشني)، وهنا يُعلن الشاعر عجزه عن مواجهتها؛ فيلجأ إلى الله (عزَّ وجلَّ) فهو العدل الذي لا يقبل الظلم ويبيده (حبل نجاتنا) وهو القادر على قطع أيدي الظلم، فيقول:

أفقتُ على السبعِ السِنين ولم تَزَل ... تخمِّشني في راحَتيها المخالبُ
تقولُ: ملأتُ الأرضَ قحطاً فما الذي ... تؤمِّلهُ تلكَ العيون السواكبُ؟
وقد تَقتلُ الأقدارُ حَبلَ نجاتِنا ... وَتقْطع أيدي الظلمِ واللهُ غَالِبُ

وما ينبغي الإلتفات إليه في هذا النص حضور معجم الطبيعة بشكل لافت إلى جانب معجم الاغتراب، حيث اعتمد الشاعر على ألفاظ مثل: (سحاب، سماء، سحائب، تيبست الأغصان، جفَّتْ، مياه، أغصان، جبال، غاب، طائر، أمواج، بحر، قحط، إضافة إلى لفظ (الأرض) الذي تكرر في خمسة مواضع من النص).

لقد أسهمتْ ألفاظ معجم الطبيعة - بتعاضدها مع ألفاظ معجم الاغتراب - إسهاما واضحا في تشكيل كثير من الصور الشعرية، حيث اعتمد عليها الشاعر لتؤدي دلالات محددة، فجاءت متمكنة في مواضعها.

ثالثاً: الصورة الشعرية:

الصورة الشعرية سمة مهيمنة في الخطاب الشعري.(10)، لذلك لا يمكننا أن نتصور نصَّاً أدبياً خالياً من الصورة الأدبية، أو نحتفي ونهتم بقصيدة دون أن تَنبني على الصورة الشعرية، أو تأخذ من آليات التصوير بطرف.

وذلك ما وقف عليه البلاغيون منذ القدم، واعتنوا به في نقدهم ودراساتهم الجمالية للنصوص الأدبية، ومن ذلك ما نجد عند الإمام (عبدالقاهر الجرجاني) في تلك المحاججة التي أقامها مع أنصار اللفظ من جهة، وأنصار المعنى من جهةٍ أخرى، ورأى أن الفضل والمزية في النص الأدبي لا تقع في المعنى وحده ولا في اللفظ منفردا، وإنَّما المزية فيما ينشأ عن تآزرهما واتحادهما من تشكيلٍ للصورة.(11)، كما أشار (شكلوفسكي) إلى أهمية تأثير الصورة الشعرية؛ فوصفها بأنها (...

من أهم الأساليب المعتمدة لخلق أقوى تأثير ممكن).(12)

ونتيجة لهذه العلاقة المتماهية بين الصورة والنص الأدبي يمكننا القول: إنه لا يمكن أن تقوم دراسة أدبية دونما دراسة جادَّة للصورة الشعرية.

وما ينبغي التأكيد عليه هنا (... إن قوة الصورة الشعرية تكمن في إثارة عواطفنا واستجاباتنا؛ فلا تحتاج الصورة أن تكون جديدة لإحداث هذه الاستجابة فهناك كلمات أكل عليها الدهر وشرب كالقمر، والورد، والجبل، والغروب ... بمقدورها دائماً خلق هذه الاستجابة ... فالصورة يجب أن تكون متوافقة مع الحوار العاطفي وكذلك مع شكل القصيدة).(13)

وقد وجدنا هذا التوافق بين العاطفة وشكل القصيدة الذي تحدث عنه (سيسيل دي لويس) عند الشاعرين (عباس والأحمدي)؛ من خلال إبداعهما في تشكيل الصورة الشعرية، فجاءت الصورة عندهما قمة في الجمال والإثارة، وذلك ما سنبينه فيما يلي من خلال الوقوف على بعض نماذج الصورة الاستعارية والكنائية والتشبيهية التي لم يكن لها حضورا لافتا كسابقتيها.

1) الصورة الاستعارية:

انشغل كثير من أرباب البلاغة بتقسيمات الاستعارة وجاءوا بما لا يحصى من التقسيمات، ولكن الراجح لدينا ما ذهب إليه الإمام عبدالقاهر الجرجاني الذي حصرها في قسمين هما: التشخيص والتجسيد - بحسب المصطلح الحديث – وذلك بعد أن تحدث عن الاستعارة واصفا لها ومبيِّنا قيمتها الجمالية، حيث يقول: (... فإنّك لترى بها الجماد حيّاً ناطقاً، والأعجم فصيحاً، والأجسام الخُرسَ مُبينةً، والمعاني الخفيَّة باديةً جليّةً ... وإن شئت أرتك المعاني اللطيفة التي هي من خبايا العقل كأنّها قد جُسّمتْ حتّى رأتها العيون).(14)

1) الصورة الاستعارية التجسيدية:

جاءت الصورة الاستعارية التجسيدية في مقدمة الصور الاستعارية التي اعتمد عليها الشاعر عبدالله الأحمدي في النص الأول (جذور عارية في قبضة الليل)، - والتجسيد: يُراد به أن يُبرز الشاعر الماهيات والأفكار والعواطف في صورة محسوسة -، ومنه قول الأحمدي: (وليلٌ إذا أدلجتُ أرغى وأزبدا) فجسّد الليل في صورة جمل هائج قد (أرغى وأزبدا) من شدة الهيجان.

ومنه أيضا ما يلقانا عند الأحمدي وهو يُصوّر معاناة الوطن مستعينا بالرمز (بلقيس) و (الضياع يحسو دموعها) و (يقتاتُ عزمها إن توقَّدا) فجسّد الضياع في صورة وحشية (سادية) فهو يستمتع ويتلذذ بعذاب بلقيس.

ومثل ذلك الصور التجسيدية نجدها في مثل: (ويحجبُ ميراث الضياع سماءنا) وقوله: (نُزعتُ يقيني فالتفت مودعاً) (ميراث الضياع) و (نُزعتُ يقيني).

وفي قصيدة (سبعٌ على قارعة الحرب) وظّف الأحمدي الاستعارة التجسيدية بصورة متقنة؛ فجاءت على مسافات متقاربة حينا ومتباعدة حينا آخر في عدد من المواضع من النص، ومن ذلك قوله: (وكُلُّ ظُهورِ الانتظارِ تقوّستْ) فجسد الانتظار في صورة إنسان قد تقوس ظهره من وطأة مما حُمّل من المصاعب والأهوال، وذلك ما استدعى إعلان الثورة والرفض على ذلك الوضع، حيث تحول الحرف إلى ثائر ضد الظلم كما تُبين

الصـورة التجسـيدية في قولـه: (ففـي داخـلي حـرفٌ يثـور)، وأقسى مـن ذلـك أن نجـد الشـاعر يحيـل أمـره وأمـر الوطـن للـه والقـدر في قولـه: (وقـد تَفتـلُ الأقـدارُ حَبـلَ نجاتِنـا وَتقْطـع أيـدي الظلـمِ واللـهُ غَالِـبٌ) فجسّـد القـدر والظلـم في صـورة إنسـان فالقـدر يعمـل عـلى نسـج حبـل النجـاة، ويسـأل اللـه أن يقطـع أيـادي الظلـم الـتي يبطـش بهـا.

ومثـل ذلـك يمكننـا القـول في الاسـتعارات التجسـيدية الأخـرى في قولـه: (أمـسى الرجـاء ببابهـا)، (وتحيـا بهـا في كل يـوم مصائـب)، وقولـه عـلى لسـان الحـرب: (مـلأت الأرض قحطـا) وغيرهـا مـن الصـور الأخـرى.

وإذا مـا انتقلنـا إلى قصيـدة (الاغـتراب في الوطـن) للشـاعر عبـاس نـاصر فـإن الصـورة الاسـتعارية التجسـيدية في قولـه: (تحمـلُ الأَضـلاعُ شـوقاً ***** نازفـاً يشـكو العـذابْ) تسـتوقفنا للنظـر إلى الشـوق الـذي يحملـه الشـاعر للوطـن، حيـث جسّـد الشـوق في ثلاثـة مواضـع مـن البيـت مـن خـلال الألفـاظ (تحمـل/ نازفـا/ يشـكو) فـاذا بالشـوق للوطـن إنسـان جريـح تحملـه الأضـلاع، وهـو ينـزف دمـاً ويشـكو العـذاب.

ومثـل ذلـك يمكننـا القـول عـن الاسـتعارات التجسـيدية في قصيـدة (وطـن يبحـث عـن وطـن) في حديثـه عـن الوطـن: وهـو (يتمـادَى في الغِيـابْ) ومـا يلقـى مـن عنـاء في حـب الوطـن مثـل: (يَطْوِيـنِي الشَّـجَنْ) وَ (جِرَاحَـات السِّـنِينْ) و (خَيْبَـاتِ اَلزَّمَـنْ).

٢) الصورة الاستعارية التشخيصية:

ويـلي الصـورة التجسـيدية مـن حيـث الحضـور مـن أشـكال الصـورة الصـورة التشـخيصية - الـتي يسـبغ فيهـا الشـاعر الحيـاة الإنسـانية عـلى مـا لا حيـاة لـه مـن الجمـاد - ومنهـا مـا نجـد عنـد الشـاعر الأحمـدي في قولـه: (ليسـجن نجمـا كان بالأمـس مرشـدا) حيـث أفـاد الشـاعر مـن التشـخيص الـذي أتـاح لـه أن يُحـوّل النجـم - وهـو يريـد الوطـن - إلى كائـن مسـجون لا حـول لـه ولا قـوة.

ومثلهـا قولـه: (رأيـت دمـا في الأرض يبـكي هوانـه) والتشـخيص هنـا في قولـه (دمـا يبـكي هوانـه) وهـي صـورة غايـة في الألـم تـدل عـلى هـوان الـدم اليمـني حـتى أنـه صـار يبـكي للحـال الـتي وصـل إليهـا. ومثلهـا الاسـتعارات التشـخيصية في قولـه (تصيـح بنـا الأرض)، (وعـن غضبـة الأمـواج يبحـر قـارب) وغيرهـا مـن الصـور.

ومـن الصـور الاسـتعارة التشـخيصية الـتي وردت في (قصيـدة وطـن يبحـث عـن وطـن) للشـاعر عبـاس نـاصر هـذه الصـورة الـتي شـخص فيهـا الوطـن في صـورة إنسـان بـاكٍ حزينٍ حائـرٍ يبحـث لنفسـه عـن وطـن في قولـه: (فِي أَرض أَرْهَقَهَـا الْحَـزَنْ)، (يـا مُوطَـنِي الْبَـاكِي الْحَزِيـنْ *** أَمَـا زِلْـتَ تبْحَـثُ عَـنْ وَطَـنْ؟!).

2) الصورة الكنائية:

تمـيز الشـاعر الدكتـور عبداللـه الأحمـدي بأسـلوبٍ آسرٍ في توظيـف الصـورة الكنائيـة، ومنهـا هـذه الصـورة الـتي اسـتوقفتني كثـيرا وأظـنُّ أننـا قلمـا نجدهـا عنـد الشـعراء الشـباب، بـل عنـد بعـض الشـعراء الكبـار وهـي قولـه:

سـجنًّا بـلا سـجنٍ قتلنـا بـلا يـدٍ *** جُلدنـا بـلا ظهـرٍ فمـن ذا نُحاسِـبُ؟

حشـد الشـاعر في هـذا البيـت أربـع صـور كنائيـة في قمـة الجمـال التعبـيري فيهـا مـن

الـدلالات مـا لا يقـف عليهـا إلا إنسـان أقـل مـا يمكـن أن يقـال عنـه إنـه كتلـة مـن المشـاعر المفعمـة بحـب الوطـن وأهلـه ففـي الأولى (سـجنا بـلا سـجن) كنايـة عـن تحـوّل الوطـن إلى سـجن كبـير، وفي الثانيـة (قتلنـا بـلا يـدٍ) كـنى عـن قتـل أبنـاء اليمـن بـلا جـرم ارتكبـوه، وفي الثالثـة (جلدنـا بـلا ظهـر) كنايـة عمـا يعانيـه أبنـاء الوطـن مـن الظلـم. واختتـم هـذه الصـور المؤلمـة بالكنايـة عـن قلـة ذات اليـد وضعـف الحيلـة بقولـه: (فمـن ذا نحاسـب) في كنايـة عـن ظلـم وجـبروت المعتـدي فمـن يسـتطيع محاسـبته.

ومما استوقفنا جبراً في هـذا البيـت الموسـيقا الـتي أحدثهـا فـن (الموازنـة)، حيـث جـاء البيـت موزعـا عـلى أربـع وحـدات موسـيقية متسـاوية إيقاعيـا، وذلـك عـلى النحـو الآتي: الأولى: سـجنًا بـلا سـجنٍ = فعولـن مفاعيلـن، والوحـدة الثانية: قتلنـا بـلا يـدٍ = فعولـن مفاعلـن، والثالثـة: جُلدنـا بـلا ظهـرٍ = فعولـن مفاعيلـن، والرابعـة: فمـن ذا نُحاسِـبُ؟ = فعولـن مفاعلـن، فأكسـبته الموازنـة جمـالا موسـيقيا إلى جانـب الجمـال التصويـر الكنـائي.

ومـن الصـور الكنائيـة عنـد الأحمـدي قولـه: (أحـنُّ لإنسـاني القديـم)، (سُـلبتُ سـكوني)، (وكلُّ سـحابٍ في سـمائِك كاذِبُ)، (وجفَّـت ميـاه الأرضِ)، وهـي كنايـات عـن فقـدان الأمـن والطمأنينـة، وعـدم والوفـاء، ومثـل هـذه الأمور لـم تكـن خافيـة عـن الأحمـدي وهـو الـذي وفي داخلـه (أسـفارُ عمـرٍ تعتَّقـتْ)، (وَشَـيْخٌ حكيـم أنضجتـه التجـاربُ)، وغيرهـا ذلـك مـن الصـور.

الخلاصة:

أولاً: أظهـرت الدراسـة قـدرة الشـاعرين عـلى توظيـف ألفـاظ معجـم الاغـتراب في التعبـير عـن الحالـة الوجدانيـة الـتي يعيشـانها، إضافـة إلى قدرتهمـا المدهشـة عـلى توظيـف ألفـاظ الاغـتراب في تشـكيل الصـورة الشـعرية.

ثانيـاً: أظهـرت الدراسـة امـتزاج أكـثر مـن نـوع مـن أنـواع الاغـتراب في القصيـدة الواحـدة عنـد الشـاعرين حيـث مزجـا بـين الاغـتراب السـياسي والاغـتراب النفسـي والـذاتي.

ثالثـاً: تَبـيَّن لنـا مـن خـلال النصـوص موضـوع الدراسـة الترابـط بـين أجـزاء القصيـدة عنـد الشـاعرين (عبـاس والأحمـدي) عـلى الرغـم مـن التصـدع النفـسي والتشـتت الوجـداني الـذي يُعانيـان منـه، فجـاءت النصـوص متماسـكة البنـاء، حافـظ الشـاعران فيهـا عـلى البنـاء الفـني مـن حيـث تركيـب الصـورة والعاطفـة والانفعال.

رابعـاً: اتضـح لنـا مـن خـلال النصـوص موضـوع الدراسـة سـيطرة الألفـاظ والتعبـيرات الدالـة عـلى ذات المتكلـم مـن الضمائـر لا سـيما (يـاء المتكلـم) و (تـاء المتكلـم) في مثـل: (داخلي، ضمّـني جـذوري، يقيـني، سـكوني، موطـني، يُعذبـني، يطويـني، أُنهكـتُ، زِدتُ وقعـتُ، أبقيـتُ، لقيـتُ، سُـلبت، ارتعـدتُ، نزعـتُ)، وذلـك مـا يجعـل ذات الشـاعر حـاضرة بوضـوح في شـعر الاغـتراب.

خامسـاً: أفصحـت الدراسـة عـن شـاعرين أحدهمـا نسـتطيع أن نطلـق عليـه فيلسـوف القصيـدة الوطنيـة وهـو الشـاعر (عبـاس نـاصر)، والثـاني أي (عبدالله الأحمـدي) نسـتطيع أن نقـول لـه: لقـد أحدثـت رعشـة في الشـعر الوطـني، مثلمـا قـال (فيكتـور هوجـو) للشـاعر بودلـير: لقـد أحدثـت رعشـة في الشـعر الفرنسـي.

الهوامش:

1) عباس ناصر مسعود، مواليد أبين 1970م، من رواد الشعر الوطني وشاعر الثورة الجنوبية، حاصل على بكالريوس في القانون/ جامعة حلب، ماجستير في علم الاجتماع الجنائي.

عبدالله سعيد الأحمدي، مواليد شبوة 1985م، حاصل على ماجستير في الإدارة والإشراف التربوي، جامعة عدن، وحاليا يُحضر دكتوراه في الإدارة والتخطيط / جامعة الأزهر – القاهرة.

2) قس بن ساعدة الإيادي، من حكماء العرب وشعرائهم، ومن أهم خطبائهم اشتهر بالفصاحة حتى صار يُضرب به المثل فيها.

3) لسان العرب، ابن منظور، 1/639.

4) الغربة والاغتراب والشعر، عبده بدوي، ص9.

5) الاغتراب في الشعر العربي في القرن السابع، الفلاحي، ص164.

6) يُنظر: دلائل الإعجاز، للإمام/ عبدالقاهر الجرجاني، تح/ محمود محمد شاكر، ص88 وما بعدها.

7) علم اللغة العام، فردينان دي سوسير، ترجمة/ يوئيل يوسف عزيز، ص39.

8) فلسفة البلاغة، آ.أ. ريتشاردز، ترجمة/ سعيد الغانمي، ص53.

9) سيزيف: رمز العذاب الأبدي في الأدب الإغريقي، ومنه انتقل إلى الآداب الأخرى ومنها الأدب العربي. اشتهر في الميثولوجيا الإغريقية بالمكر، لذلك غضب عليه كبير الآلهة زيوس؛ فكان عقابه أن يحمل صخرة من أسفل الجبل إلى أعلاه، وكلما وصل بها إلى قمة الجبل تدحرجت إلى أسفل الوادي؛ فيعود بحملها إلى القمة مرة أخرى، ويظل على هذه الحال إلى الأبد.

10) الصورة الشعرية في الخطاب البلاغي والنقدي، تأليف/ الولي محمد، ص33.

11) دلائل الإعجاز، ص254.

12) نقد النقد، تأليف/ تزيفتان تودروف، ترجمة/ سامي سويدان، ص32.

13) الصورة الشعرية، سيسيل دي لويس، ترجمة/أحمد نصيف الجنابي، ص44 وما بعدها.

14) أسرار البلاغة، للإمام/ عبدالقاهر الجرجاني، تح/ محمود محمد شاكر، ص43.

"الليل والنار"

وضاح اليمن الحريري
مهندس، وأديب، وناشط مدني

على حدود القلب شرنقة تذوب وهي تقاتل
الحب والفزع بابان ينفتحان
لمصير العابرين
الكذب والروح يستلقيان على ضفة نهر معطل
التراجيديا في تمازج الألوان أو تباعدها
لا تفرق
النقاط والغيم
أنت
الفرحة والحقيقة لا يلتقيان
وأنت
شيء من الغير مكحل ومبتل
الوردة وحدها في الصيف تشعر بالأنا
أمَّا النجوم فلا تخجل من توازنها الغريب بفعل الجاذبية
يا أخي
لماذا استرق الجان السمع وكتبوا تقريرا مزيفا
لماذا شردوا أناملك بين السكاكين
لماذا أقصوك من آخر السطر وقلبوا الورقة
الأعداد والابتسامات
الضرب والرقص
العبادة لا تعني أن تثني ركبتيك دائما
فأحيانا يشظيك الكلام
وأنت حبيبتي فقط
حين أجدك مؤقتا بين عقارب ساعتي
والوقت يمرُّ بإفكه المعتاد.

مِرْآة
(البحيرة الساذجة قُبَالةَ(1) الصيغة الأنثوية لنرسيس(2))

آدم الحُسَامي
صحفي وكاتب أدبي

كم كنتُ أحمقاً حين قلت لكِ
ـــ مدعياً حكمة العشق ومستعرضاً قدرة الفن على الانقلاب الفاتن إزاء المأثورات:
أنا مِرآتك!.
والأحمق من ذلك أنني شرّعت في الاستغفار:
سامحني يا رسول الله، لاستعارتي حديثك الشريف (المؤمن مرآة أخيه) إلى قولي:
العاشق مرآة عشيقه!
كم كنتُ أحمقاً وكم كانت الكلمة التي لم ألق لها بالاً وبالاً
ولعنةً صيّرتْني مرآة بمعناها الحقيقي:
سطحاً لا يعبّر عن وجوده إلا قبالة الآخر.
ولأن الحب بعين واحدة؛
صرتِ أنتِ الآخر الذي وجد هنديّهُ الأحمر
وبدلاً من تحطيمي كأي مُباد شجاع؛
قبلتُ دورَ المِرآة،
أعجبك تسطّحي العاطفي،
صرتِ:
ـــ تدقّقين فيّ كلما أردتِ التعرف على ملامح
ـــ تغضبين في وجهي كلما أخفقتِ، بحجة محاسبة الذات
ـــ توجهين كل ما تحبين إخبارك به عبري
ـــ تخرجينني من حقيبة اليد لتتأكدي من تماسك جداريّتيّ التفاح المتشبثة بوجنتيك
ـــ تغمرينني كوجه طفل بالختم الأحمر لشفاهك كلما استعرتُ تقنية الـ hd وبدوتِ أكثر نقاءً
...
ـــ تتزينين بالساعات أمامي كي تنبهري بك...؛
تعشقينك من خلالي!
حتى أنا تماهيت في دور المرآة المتنقلة؛
كنتُ :
ـــ أواكب تحركاتك المختالة في المدينة؛
أحشر جسدي الفاقد سماكته وراء زجاج السيارات لأقطع تأملاتك بك،
وداخل الفاترينات كي تُعجَبي بماركتك الربانية بدلاً من الفستان الذي لا يساوي شيئاً أمام نرجسيتك...
ـــ أعاتب ـــ كرسام انطباعي ـــ الشمسَ والقمر والمصابيح في أوقات تخاذلها لأنها

تركتني داكناً بك
ـــ أتحدّب حين تكونين حزينة كي أمط
شفتيك صانعاً منهما ابتسامة غرائبية
ـــ أتقعر حزناً حين تهتكين ضحكاً ماجناً
كي أحافظ على وقارك بوجومٍ بدائي
ـــ عندما تخطئين، لا أتوانى عن القيام
بواجبي
فأُجلّي لك خطأك بكل صراحة وبكل
صفاء تستطيعه مرآة ما
حينها
كنت تتهمينني بأنني مرآة ماسخة
كيف أكون مرآة ماسخة؟ وأنا
(سطح افتراضي يقارب العدم؛ إذ أوجدُ
بوجودك وأختفي باختفائك)
أتذكرين؟
حين استعدتُ فكرةً قديمةً عن المرايا من
العصور الوسطى:
(غرفة العجائب)
تلك المليئة بالمرايا المنعكسة
التي يصير فيها الجندي جيشاً
الكتاب مكتبةً
الخروف قطيعاً
الطائر سرباً
الشجرة غابة
والمتظاهر الوحيد المخذول مليونيّةً!
أتذكرين؟
ما الذي جعل هذه الفكرة الترفيهية
تشعرك بالخوف من هذا العالم
إذ شعرتِ بالخطر وأردتِ الاستعانة
بـ(الكثرة تغلب الشجاعة)
فحطمتني لآلاف الأجزاء
لتصبحي آلاف النساء؟!
لكنها كانت لحظة خلاصي:
علمتُ أن جميع صورك منعكسةٌ مني
أنا المرآة الأولى
قررتُ أن أكون أنا، لا مرآة أحد
وفي لحظة فارقة كتلك التي صرخ فيها
أرخميدس: وجدتها؛
صرختُ: وجدتُني
بالرغم من تحوّلي إلى آلافٍ مني،
فسيفساء تختزل ولا تصوّر
...
أما أنت فرجعت إلى كهف أُحاديّتك خائفةً
تبحثين عنكِ في الآلاف الذين حولتِني
إياهم
فيّ أنا
ذي الأنا التي صيّرتْها حماقةٌ فنية ... نحن

الهوامش:

1) قُبالة: يُقالُ: هو قُبالتك أي تجاهك. يُنظر: لسان العرب، 11/540.

2) نرسيس: أو نركسيس أو نرجس في الأساطير الأغريقية شخص جميل رأى انعكاس صورته في البحيرة فعشقها ولم يبارح البحيرة حتى مات، ومن هذه الأسطورة جاء معنى النرجسية أي الإعجاب بالنفس.

"هذيان"

هاني الفحام
اليمن

كَانَت تُعَذِّبْنِي الْجَرِيدَة
كَانَت تُعَذِّبْنِي الْقَصَائِد وَالْمَقَالَات
الْفَرِيدَة
كَانَت تُحْدِق بِي العناوين الصَّغِيرَة
والْأَسامي
وقصائد الْأَضْحَاب تخجلني
وتسرقني الْكَلَام
الْيَوْم تَصْطَدِم الْمَعَانِي بِالْمَعَانِي
وتفر آيَات التَّعَجُّبُ مِنْ دَوِيّ الْأَسْئِلَة
الْيَوْم تندمج اللُّغَات مَع اللُّغَاتِ وَلَيْسَ
إِلَّا الْبَسْمَلَة
....
كَانَت بأخيلتي تُسَافِر كَالْمَدِينَة حِين
هاجمها الْجَرَاد
وَسِرْت نوارسها تُغْنِي فَوْق شَطّ تصدعي
حَتَّى الْغَرَق
وَبُنِيَت أَخيلة تَجِيء وَلَا تَجِيء
سَافَرْت كالطوفان عَبَّر تشردي
سَافَرْت كَالْأَشْيَاء أَعْرِفُهَا وَتَعْرِفنِي
وَلَا مَعْنَى لقاموس الْكَلَام
...
فِي الصَّفْحَةِ الأُولى
تجزأَنِي الْحُرُوف
ثَلْج
وأسئلة
وَنَار
وبيارق تَمْتَدُّ مِنْ وَجَعِي
إِلَى أَقْصَى السُّطُور
...
وَأَمْرُ كالطوفان
مُرْتَحَلًا يُسَافِرُ فِي مسامات الْجَرِيدَة
وَأَرَى الْفَوَاصِل تنزوي
وتضج مِن فَوْضَى الْمَقَام
فَتَقُول لِي:
هَذِي اِنْحِنَاءاتُ الْقَصِيدَة
والتفاتها إِلَيْك

هَذِي أَسَامِي الْأَصْدِقَاء
وَذَلِك (المانشيت) دُرْبَة الْمُحَرَّرِ أَنْ
يُضِيءَ
هَذِي الْحُرُوف الذابلات
بِلَا مُدَامٌ
فَلَا تَخَف
...
فِي صَفْحَةِ الْمَوْتَى
أَوْزِعْنِي تَعَازِي حَارَّة للأَقربين
وَأَنَا أَمُوتَ مِنْ الْبُكَاءِ وَلَا أَمُوت
وَفَوَاصِل أُخْرَى تَقُول:
تَرتِيلُك الذَّاوي
هُرُوب الفاصلات
وَتُقَابَل الْأَشْيَاءُ فِي معكوسها

لَكَأَن حرفك مَلَّ مِن ألقابه
...
آمَنْت بِالْمَوْت البطيء
آمَنْت بالصحف الْقَدِيمَة
وَالْجَدِيدَة
آمَنْت بالرنات تَأْبِيَنِي
بِلَا رُقِم
وَلَا أَدْنَ مُجِيبٌ
آمَنْت بِالزَّمَن البلاستيكي
بشرائح الموبايل
بذواكر الحَاسُوب
بالكيبورد
والماوس اللَّعِين
آمَنْت باللا شيء فِي هَذَا الْخَرَاب

"العدم"

د، عبد العزيز الدغيشي
شاعر واكاديمي

أيها العدم
نحن بعض موجودات لك ضائعة
بعض ملامح من كيانك مهملة
لمجال أو آخر مما هو لك ربما أو منك
أو معان مهزوزة
مهدورة أو مفقودة أو غير محسوبة
أو غير ذات شأن
بعض موجودات لك شُوهِتْ فيها
حتى نعمة العدم
نحن ضيوف ثقال دم
لديكم يا حضرة العدم
"نحن" هذه ، في حالتنا ، هذه
تفتقر للمعنى والنغم ، مجوفة من
القيم
أنت تعلم أيها العدم أن الـ"نحنُ"
هي لدى غيرنا الضميرُ الأهم
أهم من الأنا والأنت والهُو والهِيَ
ومن الأنتم والهُنّ والهُم ومن أي هَم
في كل حين
وفي كل زمن ، لدى من ترقَّى وتقدَّم
وتطور من الأمم
لكن الـ " نحن " خاصتنا نتوءات فراغ
بعض موجودات لك أو منك
تسيئ إليك ولا تستبقي فيك قيمةً
تحترم
نحن وجود ثقيل بينكم يا حضرة العدم
حسبُنا ما لكيانك من مزايا أهم
حين يكون الوجود بؤسا وظلما
وقبحا وزيفا وخداعا
وقهرا واستغلالا
وجريمة ومآسٍ وسأم
تُراك أين أضعتنا وذهبت تطوف؟
لعلنا تسربنا إلى الوجود وانت تشوف
نعاني الحروب والخسوف والكسوف
واللعنات تطاردنا ألوف الألوف
أحوالنا تزكم الأنوف

وغيرها مما لا يستحق منك
الالتفات أو الوقوف
لعلنا أحسن حالا حين تشمَّلنا بعباءتك
وتنزع منا صفات ليست لنا
كأن نُسَمَّى ونُعَيَّنَ ونُحَدَّدَ ونُنسبَ
ونُضافَ
فنحن فيما قبل السالب نعيش
ونقتات ونتلقّى (الكفوف)
تُراق دمانا ونُصلى حمم
فالاحساس فاقد ، والوعي صفر
والقائمون على الأمر
فارغون ، يَفْرُغُون أو يُفَرَّغون
أول بأول من القيم

لم نتشكَّل بعد أو نُوَصَّفْ
أو نُصَنَّفْ (بالليسية) أو بغيرها
من مجسات العدم
لما يصلح لوصف حالنا
الوصف المطابق
لوجود ما دون الصفر ، (مخلوف)
لعلك لن تقسوَ علينا مجددا
لعلك فيما ترى
وبعد كل الذي قيل ويقال
تعطف وتلطف وتنزع عنا الخوف
نحن منك وإليك أيها العدم

---

4 سبتمر 2013م.

"نصوص من سنوات الحرب الممتدة"

محمد إبراهيم على اللّه
شاعر يمني

(1)
أتثاءب بنصف فم
أدخر نصفه الآخر
لرثاء ضحايا الحرب
ثَمَّةَ رسائل تردني من مجهولين
أنا أحدهم
أتجاهل أغلبها
وأرد باقتضاب على بعض منها
لم أعتد البكاء بعين واحدة
مع هذا
أسترق النظر
بيدي التي ترتعش لأي شيء
فيما ترقص قدمي الوحيدة
على إيقاع الرصاص
في محاولة يائسة
لتخطي الجثث، والنوم دون كوابيس
--هكذا أرتدي (بنطال) الخوف
وقميص الوحدة
وأيضاً ---
ملابسي الداخلية من الجوع
في انتظار أن ينهي الوطن أحزانه

أدرك جيداً أن هذا لن يحدث
لكنني أنتظر
انتظر أيضاً أن يدعوني أحدهم
لاحتساء (الويسكي) على نفقته الخاصة
استطيع بعدها غسل فمي
قبل العودة إلى المنزل.
.....
(2)
أتأمل السماء كالبحارة القدامى
واضعاً كفي بمحاذاة جبهتي
كمقدمة القبعات
أحب نجم (السماك) الرامح في الليل
والشمس حين تبدو متثائبة في الشتاء -
--أحدق طويلاً في الغيوم
تلك المحتدمة في الأفق
وأحب المشي دائماً
برأس مرفوع
وعنق مشرئب
وأحب رشف الشاي
عقب وجبة الإفطار
وفي الأوقات التي ألفظ فيها (تكويرات

القات)
-- أحلامي مبتورة وناقصة
كأطراف الجنود في الجبهات
ومشاعري كسيرة ومحطمة
كالأمواج التي تتحول زبداً على السواحل
لدي دائماً ما أقوله
وما أكتبه
ولدي أيضاً ما أخفيه
أعرف جيداً ما يعنيه الكبت
وما يوحي به الإمساك عن الحديث
مع هذا --- أحاول دحرجة الكلمات
كما يفعل (سيزيف) بصخرته
والتذرع بدمل دام في شفتي السفلى
لإخفاء فمي -

.....

(3)

سأعود إن شاءت لي الكمات
أنا رهن كُرَاسي وأقلامي الثلاثة والسرير
النصف مكتظ بأغطيتي وبالهذيان
بالحمى بأشعاري الحزينة
باحتقان مشاعري -
عندي من القمصان أربعة --
و (بنطالين) لم ألبسهما منذ الخريف
و (صندل) جلدي مثقوب
وست وسائد --- تحتي وخلفي --
واثنتين تضم خاصرتي --
وواحدة على فخذي
وأخرى (شنطة) لدفاتري

-- سأموت بعد دقائق
أو بعد أمتار من السنوات ليس يهمني _
ستنوح أمي ---
سوف تبكي زوجتي
وأنا سأرقب حائر
من منهما ستظل تبكيني
ليوم أخر__!!؟
مَنْ مِنْ رفاقي سوف يحضر مأتمي؟
من سوف يمضي حول نعشي
أحمر العينين مسكون بجرح غائر
-- أنا بينكم أبكي على فقدي
وأتلو سورة الفرقان في سري
وأدعو لي
بصوت أخضر النبرات --

.....

(4)

هو أيضاً يستطيع أن يكون عاشقاً
أن يهاتف عشيقاته بصوت هامس
أن يحصي النجوم في المساء
وأن يغني لعبدالوهاب
(من غير ليه) --
هو ايضاً سيلاحظ صغار التفاصيل
الأشياء المختبأة
التي لا يلاحظها أحد
-- بقع الرطوبة في السطح
بقايا السوائل المنوية على الملاءة
الذبابة العالقة في فخاخ العناكب
فردتي الحذاء المختلفتين --

في قدمي أحدهم
الزغب الذي ينمو بسرية في الإبط
هو أيضاً سيقرأ لـ (بابلو نرويدا)
سيتقمص مسوخ (لوركا)
سيضيع في متاهات (اكتافيو باث)
هو أيضاً سيعاني من سوء الفهم
سوء الفهم الذي تصنعه العتمة
من الأصدقاء الحمقى
من السير خلف الجثامين --
وخلف الأرداف

هو أيضاً بإمكانه أن يصبح كائناً آخر
----ربما أنت!!
.....
(5)
أما زلت تبحث عنك-؟؟
فلتكف إذاً---
ليس إلا شظاياك طافيةً فوق حبر

القصيدة،
ليس إلا سطورك مكتوبةً --
في وصايا الجفاف --
--- بين قوسين أنت -
فانس ما شئت نسيانه --
وتذكر فقط -؛
كيف غازلك الخوف --
كيف عرى لك الجوع أنيابه -؟
أما زلت تبحث عنك -؟؟
أنت لست هنا -
فلتخمن إلى أين يمضي بك الوهم --؟
للبلاد (السعيدة)!!!
--البلاد التي أرضعتك جثامينها --!!
للوطن الجيب!!
أم لاختراق المسافات ---
------ تلك التي تفصل الموت عنك؟
.....

(أبشرك يا سالم الحال سالم)

رائعة الشاعر الشبواني
محمد عوض باكر *

أبشّرك يا سالم الحال سالم ... بفضل ربــي والنوايا السليمة
العــمر فسحة والليالي غـنايم ... والعافية يا ســالم أكبر غنيمــة(1)
والنصر حـلم الـكُل والكُل حالم ... والياس في كـل المواقف هزيمة
أهــل المكارم يزرعون المكارم ... وأهل الشتايم يحصدون الشتيمة
والعدل ما يأتي على يد ظالم ... وكل ظالم له نهاية وخيمة
ولا غنى دايم ولا فقر دايم ... والعز عنوان الحياة الكريمة
والمعرفة سلطان والعقل حاكم ... والصبر ميزان العقول الحكيمة
والناس يا ابن الناس جاهل وعالم ... هذا يهد اسمه وهذا يقيمه
في ناس يتفهَّم وهو غير فاهم ... وناس فاهم .. بس مثل البهيمة
تلقاه في الدنيا عليها يزاحم ... ولايميِّز صاحبه من غريمه
وناس في وجهك يقيم الولايم ... وفي غيابك ينتفك بالنمية(2)
وناس في الظاهر مُصلِّي وصايم ... ولباطنه ما غير ربي عليمه(3)
وناس لو حامت عليه الحوايم ... بأسه شديد وهمِّته والعزيمة
يصون وجهه من سواد اللوايم ... ولا يفرِّط في صداقة حميمة
وهكذا يا بوك حال الأوادم ... الآدمي ما هو بجسمه وديمه(4)
في ناس دايم في حياته مساهم ... وناس يا سالم حياته جريمة
شتان ما بين الجبل والتهايم ... وفرق بين المثمرة والعقيمة
يــــا رب لحيـــة تنحـلق بـــالـــ ... ورب لـــحيــــــة مـــــا
ـــدراهـم ... تقـــــدر بـقـيـمـــــــة

الهوامش:

(1) الألفاظ: غـنايم، الشـتايم، ولايـم، صايـم ومـا شـابهها في النـص أصلهـا بالهمز:

غنائـم، شـتائم، ولائـم ... إلـخ، وتسـهيل الهمـزة معـروف في محكيـة شـبوة وأبـين وبعـض المحافظـات اليمنيـة.

(2) ينتفـك: ينتـفُ: فصيحـة وتعـني إزالـة الشـعر. (لسـان العـرب، 9/323). ولكنهـا ممـا يُسـتعمل مجـازا في كثـير مـن المحكيـات اليمنيـة ويُـراد بـه مـن يُلصـق المعايـب بالآخريـن زوراً بهتانـاً.

(3) ولباطنه ربي عليمه، المعنى: والله عليم بما يخفيه في نفسه.

(4) ديمـه: أصلهـا (ديـمر) والهـاء ضمـير، وتعـني في محكيـتي شـبوة وابـين (جلـد الإنسـان أو الحيـوان). ومعـنى شـطر البيـت: إن الرجولـة لا تُقـاس بجسـم الإنسـان أو لـون بشرتـه، وإنمـا بأفعالـه وخِلالـه.

.....

(*) هـذه القصيـدة كتبهـا الشـاعر الشـبواني عـام 1950م، ولحنهـا وغناها الموسـيقار اليمـني، أحمـد فتحـي عـام2019 تقريبـا وعـلى أثـر ذلـك أُثـير إشـكال حـول ملكيـة هـذه القصيـدة، وقـد حسـمت وزارة الثقافـة اليمنيـة الأمـر _ ممثلـة "بقطـاع المصنفـات والملكيـة الفكريـة" بمنـح شـهادة تسـجيل لحقـوق الملكيـة الفكريـة _ الأدبيـة والماليـة، لأسرة الشـاعر محمـد عـوض باكـر.

"استعارة رأس"

قصة قصيرة

عبد الجليل تاج الختم "عبده تاج"
قاص يمني

عندما سقط رأسي في الشارع، لم أكن على أيَّة حال سألتقطه، غير أنَّ الناس كانوا يصرخون: "رأسك.. رأسك"، فقلتُ من غير المناسب أن أترك رأسي أمام الناس. مَدَدت يدَيَّ، وبرفق أخذته. ركَّبته على رقبتي الأطول في العائلة، وعلى عُجالة استرسلتُ المشي إلى الشارع المجاور الذي سيمر منه الباص الذي سيقلني إلى حيث واعدتُّ ريحانة.

"بااااااب اليمن؟"، صِحتُ لسائق الباص فأومأ لي بالإيجاب، فصعدتُّ.

كان الباص يصدح بأغنية "عَلم سيري"، يمشي بتمهل مخافة أن يقع في إحدى حفر شوارع "شعوب" فيضطرب الباص وتسقط الرؤوس، غير أن السائق كان قد تحمّس مع إيقاع الأغنية الذي بدأ بالتسارع: "علم سيري علم سيري... ألا بسم الله الرحمن"، وأسرع قليلًا. صَرخ عليه أحد الركاب:

"هناك نساء في الباص"، فأبطأ السائق سرعته على الفور، فمن العيب أن يسقط رأس امرأة. غير أنَّ كل رؤوس النساء التي رأيتها تسقط تكون مُلثَّمة، ولا يمكن أن يُرى منها شيئا. بالرغم أني غير مكترث بهذا الأمر برُمَّته لا أنفك أصرخ في الباص إذا صادف وهناك نساء أن يبطئ لأني أشعر بعدم الارتياح أثناء اضطراب الباص وهو يَمرُّ فوق حُفرة كبيرة.

توقّف الباص فجأة أمام مُسِنٍّ وزوجته. صعد الشائب بجواري وذهبت العجوز صوب النساء. ماذا لو أتبادل بالرأس مع هذا الشيخ. فيّ فضول متعطش للتسلل إلى حياته التي لا أدري ماذا ستكون. يبدو سبعينيّاً في العمر وحياته لابد أن تكون مثيرة للاهتمام. شهيتي في استعارة الرؤوس جامحة ولا أقدر على كبحها.

قبل شهر وافقتُ بصعوبة لإعارة رأسي لابن عمي بشير الذي عاد من "شرعب" بلا رأس. ذلك المساء حرّك يديه على شكل كُرة طالبًا رأسي، فرفضتُ رفضًا

قاطعًا. أكره أن أقضي وقت المغرب الكئيب دون أفكار أو حديث، وكذلك النوم حتى إنّي استغنيت عن عادتي السيئة، وهي النوم بجسدي فقط، بينما رأسي أضعه في النافذة مع سمّاعة بلوتوث في أذنيه. نظرت نحوه وشعرت بالشفقة فليس هناك ما هو أكثر مللاً من أن تقضي طوال اليوم بمثل حالته.

ذكرياتنا مشتركة من الفترات المتوالية التي صار يستعير فيها الرأس. لقد ذهب بالأمس إلى المسجد يصلي المغرب. أعرف رأسي أنه يفعل ذلك بصعوبة، ولكنه أرغمه بقوة. بالطبع عاش صراعاً معه تماماً كما لو أنك تحمل أعضاءً متناقضة. ذهب أيضاً البقالة، اشترى من تلك السجائر الرديئة، جلس يتأمل في المارة ويدخّن باسترخاء. لا أسرار هذه المرة، ففي بعض الأحيان يكون جسده محتفظًا ببعض الذكرى المُشوِّقة التي يفرغها برأسي دون شعور.

ما يَشدُّني لاستراق شيء من ذاكرته هو تلك الذكرى الدافئة، تفاصيل يوم من أيام العيد على ما يبدو؛ على سقف رمادي وسط أفراد عائلة، هناك "لحم حنيذ" و"لحم ممروق" بأوانٍ فخارية وُضِعتْ في التنور، والتي تقدمها نساء كثيرات إلى السُّفرة، رائحة ألعاب نارية، أطفال يرتدون ملابس جديدة لها سطوة رائحة تسلبني كلما استنشقتها. رائحة اللحم الذي ينضج راقصاً على الفحم وهو موضوع في قصدير، ويدُ أمٍّ مُنقّشة بالحناء تلتقطُ أواني الطعام الفارغة من السُّفرة، لحظات ذكرى حميمية أراقبها من عينَيّ حاملها وهو يشعر أنه لن يكون سعيداً أكثر من ذلك اليوم.

لم أستطع مقاومة فضولي عن هذه الذكرى وسألته في أحد الأيام عن سرها إذ لم يعشْ يوماً في قرية كما بدت فيه اللحظات. هل يمكن أنْ يكون قد أعاره لشخص آخر.. لكنه ليجيب عن أسئلتي كان يحتاج إلى رأس فائض عن الحاجة.

استعدتُّ نَفْسي من شرودها بينما انتبهتُ أنَّ السائق انعطف يمينًا. "عيادة البيروني"، قرأتُ اللافتة مع هرولة الباص الخاطفة، هذا كل ما أعرفه في هذه الطريق المليئة بأسماء محلات يصعب حفظها. ظل الباص يسير بلا اكتراث لكل الأفكار التي تغلي في رأسي. أنزل العديد من الركاب الذين ظلوا يوقفونه في مسافات متباعدة عن بعضها. بعد الانفكاك من زحام الظهيرة وصل الباص إلى باب اليمن، ونزلتُ.

سقط رأسي للمرة الثانية، تدحرج إلى الأسفل وظللت أركض بعده كما لو أنه عُلبة فارغة تحرِّكها الريح. أوقفه أحد المارة وأعطاني إياه، كنتُ سأقول

لـه "شـكرًا"، إلا أنـني لـم أنتـهِ بعـد مـن تركيـب الـرأس.

أعـدتُّ تصليحـه وأخرجـتُ مِشـطًا مـع مـرآة مـن الحقيبـة، مشـطتُّ شـعره السـلس، نفضـتُ الغبـار عنـه، قلـت لـه: "رأس طيـب"، ومسـحتُ عليـه كمـا لـو أنـه كلـبي. مضيـت في الإسـفلت أمـشي حـتى انعطفـت يمينـاً تجـاه صنعـاء القديمـة لأنتظـر ريحانـة الـتي سـتأتي بعـد ربـع سـاعة.

الجـو حـار كجهنـم، اسـتظللتُ بشـجرة وارفـة. جلسـتُ أتأمـل المشـاة، وجـوه كئيبـة، جثـة كلـب متعفنـة يدوسـها النـاس دون مبـالاة، شـخص يضـع رأسـه عـلى مقعـد كأنـه (جاكـت) ويسـتريح، يتركـه ويمـضي لـشراء (الآيسـكريم). ليـس الجميـع عندهـم فضـول بشـأن الـرؤوس، فالـذي صرت أعرفـه في الآونـة الأخـيرة بعـد أن نشـبت الحـرب أنَّ النـاس يبتعـدون عـن الـرأس حـتى لكأنـه لُغـم، هربـاً مـن ذكـرى مؤلمـة يسـتهويهم الـرأس بتجريبهـا.

أتـت ريحانـة بقُبّعتهـا الجميلـة، ومضينـا نتسـكع في صنعـاء سُـكارى بلقـاء بعـد اشـتياق. قلـتُ لهـا: "الجـو حـار جـدًّا، دعينـا نقتفـي الأزقـة حيـث الظـل"، كانـت هـي تتصبـب عَرقـاً أيضـاً فوافقـتْ.

مشـينا ونحـن نتكلـم ولحـظُ عيوننـا يتمـنى لـو نختـلي مـن كل هـؤلاء النـاس فجـأة، ربمـا تحـت عربيـة بائـع المـوز، أو في حانـوت بيـع العقيـق، نـترك الجميـع خلفنـا ونظـل نُقبّـل بعضنـا ونسـمع الأغـاني فحسـب. تخيّلـت هـذا مـع رائحتهـا الـتي تتسـلل إليّ. تُعجبـني رائحـة ريحانـة.

ذهبنـا إلى فنـدق "بـرج السـلام" وهـو مـزارٌ للسـياح الذيـن انقطعـوا عـن صنعـاء. في أعـلاه مشـهد سـاحر لصنعـاء القديمـة والجديـدة أيضًـا. دخلـتُ:

"مرحبًـا، أريـد أن نطلـع سـطح هـذه العمـارة".

"هـل لديكـم بطائـق عائليـة"، أجـاب عامـل الاسـتقبال.

قلـت لـه: "لا"، وكذبـت عليـه: إنهـا أخـتي!

تبـدو ريحانـة كمـا لـو أنهـا أخـتي ببشرتها القمحيـة وعينيهـا الواسـعتين. إلا أنـه لـم يقتنـع سـوى بالبطائـق العائليـة. حاولنـا معـه بإلحـاح وبعـد جُهـد أمَرنـا بنـبرة فظّـةٍ أن ننـصرف.

شـعرتُ بالاسـتياء ثـم تابعنـا تَسكّعنا إلى "بـاب اليمـن" وسـط أعـين تحفنـا بريـبٍ، وأخـرى تحـاول إقناعنـا بـشراء ملابـس صنعانيـة للأطفـال، خواتـم مُزيَّفـة مـن الفضـة، وأشـياء لـم أفكـر يومـاً أن أشـتريها لأنهـا بـلا أهميـة. اقترحـتُ أن نمـضي صـوب بائـع شراب الزبيـب، فمـذاق شرابـه لا يُقـاوَم. لكنـه قـال إن كميـة الـشراب

نفـدت، واقـترح: هـل تريـدون شـعيراً؟ كذلـك شراب الشـعير أشـعر دائمـاً بأنـه بـلا أهميـة أيضـاً. عدنـا إلى وسـط صنعـاء القديمـة مـن المـكان الـذي ابتدأنـا منـه.

طُفنـا في أزقـة البيـوت. بينمـا كانـت ريحانـة تمـشي وتتطلـع لبيـت صنعـاني فريـد، قالـت متعجِّبـة: "مـا هـو الـشيء الجميـل في صنعـاء القديمـة .. وهـي مجـرد بيـوت عاديـة؟"، أجبتهـا بـأنَّ فكـرة البنـاء الهنـدسي قديمـة، وأنَّ هـذه الزخرفـة كانـت موجـودة في رأس أحدهـم منـذ قـرون بعيـدة وعاشـت إلى الآن. بـدا لي الأمـر أشـبه بالخلـود، وهـذا شيء يدعـو للدهشـة، لكنهـا لـم تندهـش. شـعرت بالجـوع مـع أنّي أكلـتُ قبـل خروجـي. طاقـتي بـدأت بالانخفـاض. يزعجـني هـذا الشـعور، أحـسُّ بأنـني سـأهوي عـلى الأرض. لا أدري، ربمـا لـم آكل كثـيراً في الغـداء، لكننـي أكلـت ولـم أجـد مـا يـبرر هـذا الجـوع والتـلاشي. يسـتطيع أحدهـم أن يجلـس ثمانيـة أسـابيع بـلا أكل حسـبما قـرأت مؤخـراً، أيْ شـهرين، يعـني يلزمـني وقـت كي تقـل طاقـتي أو ينخفـض السـكر أو أمـوت مثـلًا، لكنـني هـا أنـذا أشـعر بطاقـتي تخـور.

أخـبرتُ ريحانـة أن نسـتريح قليـلًا ونأخـذ سـاندويتش. فضّلـتْ هـي أن أذهـبَ فوافقـتُ. أخـذت ثلاثـة ساندويتشـات بيـض مسـلوق، وتحـت شـجرة جلسـنا نـأكل. أثنـاء الأكل سـألتني عـن السـعادة.

أجبتهـا: "أعتقـد أنـه ليـس مـن حقـي الحديـث عـن السـعادة لأني لـم أذقهـا بالمـرة".

ريحانـة لا تعلـم بالـذي أخفيـه عـن الجميـع، وهـو شـعوري بقلـق هائـل حـين أكـون في مجلـس أو في مـكان لا أشـعر فيـه بالراحـة، أتخيّـل ضربـات قلـبي تتسـارع وأنـه سـيغمى عـليّ. تسـاءلتُ مـن أيـن يـأتي هـذا؟

هـل هـو القولـون العصـبي الـذي بـت أعـاني منـه كثـيرًا، أم مـرض نفـسيٌّ لا أعرفـه. بحثـت في الإنترنـت لكـن لـم يفـدني بـشيء. داهمتـني هـذه الحالـة الآن وأنـا مـا زلـت جالسـاً مـع ريحانـة شـارد البـال. أحسسـت بخـوف يتدفـق داخـلي كسـيل خفيـف، شـعرتُ بِـدَوّي خافت داخـل أذنيّ. نهضـتُ، قلـت لريحانـة أشـعر بقلـق ولا يمكـن أن أسـتمر في الجلـوس. لكنهـا ظنّـت بـأني أتهـرَّب مـن الحديـث معهـا، ولـم تصدِّقـني. فلـم يكـن عـليّ إلا أنْ أخلـع لهـا رأسي لتتأكـد.

اليمن .. _ ديسمبر 2022م

.....

(*) فـازت في مسـابقة الربـادي، ونـشرت في مجلـة اليمـني الامريـكي. الإلكترونيـة.

حوطة لحج

حكايات مدينة سبقت زمنها

لحـج: معروفـة وهـو مخـلاف عظيـم مشـهور وهـو في الغـرب الشـمالي مـن أبـين وشـمال عـدن.

فقال السيد الحميري (ت173ه):

هـلَّا وقفـتَ عـلى الأجـراع مـن تُـبنِ ... ومـا وقـوف كبـير السـنِّ في الدِّمـنِ

لي مـنزلان بلحـجٍ مـنزلٌ وسـطٌ ... منهـا ولي مـنزلٌ للعـزِّ في عَـدَنِ

إعداد:
هشام عطيري
ومتعب عوض

إشراف/
د.عباس حسن صالح

■قصـر دار الحجـر بمدينـة الحوطـه

بينما صورها أحد الشعراء - ولعلَّه العالم الشاعر مصطفى بن علي الضمدي وهو من أعيان القرن الحادي عشر هجري - منتهى اليمن؛ فقال:

تقولُ عيسي وقد وافيتُ مرتحلاً ... لحجاً ولاحتْ لنا الأعلام من عَدَنِ
أمُنتَهى الأرض يا هذا تُريدُ بنا؟ ... فقلتُ: كلا، ولكن مُنتَهى اليَمنِ

■ جسر وادي الحسيني

والشعر في لحج وعنها منذ الجاهلية [وحتى العصر الحديث] أكثر من أن يُحصى، ومدينته [يُريد حاضرته] تسمى (الحوطة) وهي محل قارعة المحجة، ويُنسب مخلاف لحج إلى لحج بن وائل بن الغوث بن عريب بن زهير بن أيمن بن الهميسع بن حمير بن سبأ (الاكليل، ج2 5-)، وهو مخلاف كريم التربة ومن

أشهر منتجاته الموز والبطيخ الحبحب وهو من أجود ما تنتجه اصقاع اليمن وأدخلت إليه فواكه هندية وغيرها وهي في غاية الجودة والندرة والحلاوة وكان ذلك على يد سلاطينها العبدليين.

الرعارع وبني أيبة أو ميبة:

بعد أن شعر الطاهريون أن العثمانيين قد تغلغلوا في البلاد - بعد أن تقلص نفوذ الدولة الطاهرية - لدرجة أنهم اقتربوا من عاصمة الطاهريين (المقرانة) في مدينة رداع فما كان من الطاهريين إلا أن وجهوا قبيلة الهياثم التي كانت تستوطن أبين إلى لحج لحفظ الأمن فيها وحمايتها من العثمانيين، وبالفعل توجهت قبيلة الهياثم إلى لحج ووصلت إلى جوار مدينة الرعارع وأُبلغ نائب الطاهريين في مدينة الرعارع بالأمر وعند وصولهم إلى لحج طلبوا منه أن يزودهم بالغذاء والمؤونة، لكنه تخاذل ولم يصدق ذلك فهرب إلى مدينة عدن وعلى إثرها اجتاحت قبيلة الهياثم مدينة الرعارع ونهبوها بقيادة (مجرب بن حيدرة بن مسعود الهيثمي)، ولم يكتفوا بذلك بل توجهوا إلى مدينتي بني أيبة العليا والسفلى اللتان تقعان غرب مدينة الرعارع على الضفة الشرقية للوادي الكبير، فنهبوهما ودمروهما فما كان من سكان مدينة الرعارع، وسكان مدينة بني أيبة – التي حرف اسمها أخيرا الى (ميبة) - إلا إنهم هربوا إلى حوطتي (سفيان وبلجفار)، وتدهورت مدينة الرعارع، وكانت هذه بداية النهاية لها حيث تحولت العاصمة إلى (حوطة بلجفار)، ولم يعد لها ذكر بعد (القرن الحادي عشر الهجري)، ونقل منبر جامعها إلى الجامع الذي بناه (السيد عمر بن عبدالله المساوى) في مدينة الحوطة عام (1083 هجرية) وكان نهاية جامعها _ أي مدينة الرعارع _ يعني نهايتها كمدينة مستوطنة لتحلَّ محلها حاضرة جديدة هي مدينة (الحوطة)، التي نحن بصدد إقامة دراستنا عليها فيما يأتي من بحثنا المتواضع.

أولاً: الحوطة لغة:

جاء في لسان العرب، يُقالُ: حاطَه يَحُوطُه حَوْطاً وحِيطةً وحِياطةً: أي حفظه وتعهده. والاسم الحَيْطةُ والحِيطة: صانه وكلاه ورعاه. وفي حديث العباس: قلت يا رسول الله ما أَغْنَيتَ عن عمِّك، يعني أبا طالب، فإنه كان يَحُوطُك؟ والمراد أنه كان يحفظه ويصون ويذبُّ عنه. (لسان العرب 7/279).

ثانياً: تاريخ مدينة الحوطة - حوطة بلجفار:

ذكرنا فيما تقدم أن تاريخ مدينة الحوطة كعاصمة قد بدأ عند تدمير مدينة الرعارع في أواخر عهد الدولة الطاهرية، وعندما دخل العثمانيون مدينة عدن تحولت العاصمة الى حوطة بلجفار.

ومع ذلك فإن المؤرخ والشاعر (أحمد بن فضل القمندان) قد ذكر في كتابه هدية الزمن أن أول من اتخذ مدينة الحوطة عاصمة للحج هم (عمال الامام المتوكل والإمام المنصور، ويؤكد على ذلك بأن لهم دارين فيهما هما: (دار حمادي) و (دار عبدالله) المعروفان بموضعيهما الى الآن في مدينة الحوطة، ولمَّا استقر فيها فيما بعد الشيخ فضل بن علي العبدلي عام (1145 هجرية) أقرها عاصمة للحج وعاصمة لملكه، وقد نقل عائلته من قرية المجحفة إليها.

تقع حوطة لحج بين رافدي وادي تبن الشهير الذي يتفرع منه الواديان الكبير والصغير وتمتاز بمناخها المعتدل في فصل الشتاء والحار في فصل الصيف، إضافةً إلى تميّزها بنشاط زراعي يُعدُّ المصدر الرئيس لسكان المدينة وضواحيها.

وذكر الريحاني في (ملوك العرب) مشاهداته لبيوتها وقصورها وسكانها وسلاطينها وكان ذلك في عشرينيات القرن الماضي وتحديدا في العام ١٩٢٢م ومما ذكره الريحاني في وصف رحلته تلك وتحت عنوان فرعي هو : (التمدن الحديث في لحج) ما يلي: (كتبت بعد وصولي إلى عدن في طريقي إلى صنعاء كتابا إلى صاحب السمو السلطان عبد الكريم بن فضل أرغب اليه في التشرف بزيارته، وكتبت بوساطة قنصل أميركا إلى دار الاعتماد استأذن بذلك، فجاء في اليوم التالي جواب السلطان مُرحِّباً بي، ثم جاء بعد يومين من معاون المعتمد كتاب ضمنَّه أذن باسمي واسم رفيقي وأذن آخر باسم القنصل الذي شاء أن يرافقنا ... ركبنا من محطة عدن قطارا عسكريا، خطه ضيق، وعرباته قديمة، جيء به من الهند، وقاطراته أثر من الآثار في تأريخ البخار ... فرقصت بنا وهي ترجرج وتقرقع في أرض سبخة قريبة من البحر، ومرَّت بآكام من الملح مستخرج منه، ثم بواحة الشيخ عثمان بين صفوف من مقاهيها، ومنها إلى دار الأمير أي الحدود بين عدن ولحج، ثم صبر "بضم حرف الصاد"، فجلاجل، فنوبة الهراني، فالحوطة. وكلها ماعدا العاصمة ودار الأمير أسماء لأكواخ من القش واللبن وسط شيء من شجر الاثل وأميال من القفر الذي تهب فيه

ريـاح البادية تحمـل السـموم والمـوت مـن الربـع الخـالي. ويمتـد خـط الحديـد مـن الحوطـة إلى مـكان يبعـد ستة أميـال عنهـا يدعـى الخـداد). ويُمكننـا أن نَعـدُّ مـا دوَّن الريحـاني في مشـاهداته تلـك وثيقـة تاريخيـة هامـة _ إلى حـدٍّ مـا _ عـن لحـج في تلـك الحقبـة.

ثالثاً: حارات الحوطة:

تضـمُّ مدينـه الحوطـة عـدد مـن الحـارات الشـهيرة الـتي عـرف سـكانها ببسـاطتهم وترابطهـم الاخـوي الصـادق وتعاونهـم وتآزرهـم في الشـدة والرخـاء ممـا يجسـد لحمتهـم.

فالحوطـة وحاراتهـا كانـت ومازالـت مراكـز اسـتقرار وموطـن كـرم وامتـاز سـكانها بالأخـلاق الفاضلـة والصفـات الحميـدة؛ حـتى قيـل أن مـن أتى مـن خارجهـا زيـارة أو ضيفـا أو عابـرا اسـتهوته طبيعتهـا وطيبـة وبسـاطة أهلهـا وأقـام له داراً مفضـلا العيـش فيهـا، وهنـاك الكثـير مـن الكتابـات بـل والأغـاني اللحجيـة الـتي أكـدت عـلى هـذه الجوانـب، ومـن تلـك الحـارات والبيـوت التاريخيـة في الحوطـة: (دار الكـوى)، (دار القفـع)، (دار حمـادي)، (دار عبداللـه)، (حـارة الجفاريـة)، (ربـاط بـن علـوان)، (حـارة الصمصـام)، (حـارة وحيـدة)، (حـارة الكـرود)، (حـارة

■ الحلويـات اللحجيـة المشـهورة إحـدى محـلات بيـع الحلـوى بمدينـة الحوطـه

الصومال)، (حارة مساوى)، (حارة النخارة)، وغيرها من تلك الحارات التي جسدت التعايش؛ وبرز منها أعلام وأعمدة سياسية وثقافية وفنية واجتماعية صار يشار إليها بالبنان لمواقفها وعطائها اللامحدود، وأحاطتْ بمدينة الحوطة مناطق ذات ثقل كبير ممن شكل مواطنيها ورموزها الدينية والسياسية والثقافية والادبية علامة مضيئة في تقدم الحوطة بصفة خاصة ولحج بصفة عامة في كل المراحل والحقب من تاريخ هذه المحافظة.

ولم يكنْ سكّان تلك المناطق المجاورة للحوطة بمنأى عمَّا شهدته من ازدهار وتحول كبير، بل كانوا حاضرين ومشاركين في تحقيق تلك النهضة وذلك الانتعاش لتُخلَّدَ تلك المناطق وساكنيها وقبائلها في صفحات التاريخ، وذلك ما ورد تحديدا في كتابي (هدية الزمن في اخبار ملوك لحج وعدن) و (المصدر المفيد في غناء لحج الجديد) للأمير والشاعر (أحمد فضل القمندان) الذي استعرض من خلالهما الدور الفاعل والكبير للمناطق المجاورة للحوطة، وللحوطة بوصفها دار الحكم للسلطنة العبدلية والمركز النابض للحج.

ومن تلك المناطق المجاورة للحج، منطقة (المجحفة) والتي يسكنها قبائل (آل سلام)، ومنطقة (الحمراء) موطن (آل البان)، ومنطقة صبر التي يسكنها (آل عزب)، ومدينة (الوهط) التي يسكنها (آل السقاف) وقبال أخرى ومناطق: (القريشي والهجل والكدام وسفيان وطهرور والزيادي والحبيل والخداد) وغيرها من المناطق المجاورة للحوطة التي أرسى سكانها قواعد التعايش واتقنوا فن العيش ومدِّ جسور التواصل فارتبطت تلك المناطق وساكنيها بالحوطة ارتباط روحي.

رابعاً: أسواق ومهن وحرف:

اشتهرت مدينة الحوطة بحرف عديدة زاولها وامتهنها اللحجي وأتقن صنعتها، واتخذها سبيلاً لكسب الرزق الحلال، وماتزال بعض هذه الأعمال وحرف موجودة إلى يومنا هذا؛ فقد تناقلها الاجيال وحافظوا عليها بوصفها جزء لا يتجزأ من إرثهم المهني والتراثي، ومن أبرزها النجارة والعطارة والخياطة والحياكة وصناعة الحلويات اللحجية الشهيرة والتي تسمى في لحج (بالمضروب) إضافةً الى صناعة الذهب والفضة وحرف شعبية متنوعة كصناعة الخزف المعتمدة على سعف النخيل التي تُعدُّ جزءً من النسيج العام لسكان الحوطة وأريافها مثل: (السلقة والجعبة

■ بائع الفل يقوم بشك جوز الفل العرايسي

والمكنس والتفال) المصنوعة من سعف النخيل. كما يتزايد الطلب أيضاً على الصناعات الفخارية التي تؤدي دورها أيضا مثل: (الزير والكد والكوز) وغيره وتتجسد أهمية هذه الحرف كونها مصنوعة من الطبيعة وتمتاز بأشكال وأحجام وألوان مختلفة؛ فهي تمثل عدة الانسان اللحجي في مأكله وكل دورة

حياتـه منـذو ولادتـه وحـتى وفاتـه.

عرفت الحوطة بأسواق تاريخية شهيرة الـتي مـا تـزال بعـض اسـمائها متداولـة حـتّى يومنـا هـذا مثـل: (سـوق الجبالية)، (سـوق الذهـب)، (سـوق الحداديـين)، (سـوق الاغنـام)، (سـوق الاعـلاف)، (سـوق الوعـد) والعديـد مـن الاسـواق الـتي تعـرض كل المنتجـات المحليـة المختلفة كما هـو الحال في سوق الوعد الـذي يُعـدُّ سـوقا شـعبيا تعـرض فيـه كافة المنتجـات الخزفيـة وغيرهـا مـن المـواد المصنوعة محليا إضافة الى بيع الطيـور المختلفة والدجاج في هـذا السـوق الـذي يرتـاده السـكان لـشراء احتياجاتهـم أو ممارسـة البيـع والـشراء فيـه.

كما ترتبـط معظـم الأسـواق في الحوطـة بأيـام محـددة مـن حيـث التسـويق والبيـع والـشراء والإقبـال الكثيـف مـن الباعـة والمشـترين كسـوق الأغنـام الـذي يشـهد حضـورا كبـيرا مـن قبـل سـكان الحوطـة وأريـاف لحـج خـلال يومـي الأثنـين والخميـس مـن كل أسـبوع.

ومـن هـذه الأسـواق سـوق الجبالية الـذي يُعـدُّ مـن أقـدم الأسـواق في المدينة وكان يوفـر متطلبـات أبنـاء الحوطـة وتـبن مـن حبـوب ومـواد غذائيـة، وكان أغلـب الباعـة في هـذا السـوق مـن أبنـاء الشـمال مـن محافظـات إب، تعـز، ذمـار، إلاَّ إن فتـح شـوارع جديـدة في المدينـة قـد أدى الى اندثـار تدريجـي لهـذا السـوق الـذي لـم يتبـقَ منـه سـوى التسـمية.

سـوق الذهـب يعـد أيضـا أحد الأسـواق المشـهورة في المدينـة منـذ القـدم حيـث كان أشـهر بائـع للذهـب في تلـك الفـترة مـن أصـل يهـودي يدعـى (عصـدة) ولكنـه غـادر المدينـة في الأربعينـات، لتـأتي بعـده أسرة بـن محفـوظ مـن حضرمـوت وأسرة عمـران لتسـكن في مدينـة الحوطـة وتعمـل في مجـال بيـع وشراء الذهـب وتتـوارث هـذه المهنـة جيـل بعـد جيـل حـتى اليـوم.

خامساً: الإرث التاريخي:

1) قصر السلطان:

أبـرز معالـم مدينـة الحوطـة حاليـاً قصر(السـلطان عبدالكريـم بـن عـلي بـن عبداللـه العبـدلي) قـام ببنائـه عام(1347هجريـة)، يقـع إلى اليمـين مـن سـاحة السـوق ، الـذي ينتهـي إليـه الطريـق القـادم مـن مدخـل مدينـة الحوطـة باتجـاه عـدن ، وهـو عبـارة عـن قـصر كبـير بـني بهيئـة (حـرف L)، وأمامـه سـاحة كبـيرة تتوسـطها نافـورة، وقـد بُـنيَ عـلى طـراز يشـابه مبـانٍ الـشرق الأقـصى

، ويشابه - أيضا - قصر السلطان (عبدالكريم فضل) الذي بناه في كريتر عدن، كما يشابه قصر (القعيطي) في مدينة المكلا، ويتكون هذا القصر من (ثلاثة أدوار) وهو من أجمل مبانٍ مدينة الحوطة على الإطلاق، ودوره الثالث يشغل حالياً متحف مدينة الحوطة.

2) مسجد الدولة:

بُنيَ مسجد الدولة على يد السلطان (أحمد محسن فضل) وجدده أخوه (محمد بن محسن) عام (1292 هجرية) ويعتبر من أجمل المساجد في مدينة الحوطة، والتخطيط الهندسي والمعماري للمسجد متأثر بفنون العمارة الإسلامية في بلدان الشرق الأقصى، وقد دفن إلى جوار المسجد بانيه السلطان (أحمد محسن فضل)، كما دفن إلى جواره العديد من أمراء السلطنة، أشهرهم القمندان (أحمد بن فضل العبدلي)، ويقع هذا المسجد في قلب مدينة الحوطة، وتقع إلى جواره المنازل القديمة لعشائر السلاطين التي كانت تحكم السلطنة.

3) المسجد الجامع (عمر بن

■ مسجد الدولة في مدينة الحوطة إحدى معالم لحج

عبدالله المساوى):

يعتبر من أهم مساجد مدينة الحوطة، بناه (السيد عمر بن عبدالله المساوى) في عام (1083هجرية) ونقل منبره من جامع مدينة الرعارع، ثم جدده ووسعه (السلطان عبدالكريم فضل بن علي محسن العبدلي) عام (1348هجرية) حتى صار من أجمل وأفخم مساجد اليمن، يحتوي على قبة متميزة بزخارفها الخارجية والداخلية الجميلة يتكون من طابقين استغل الدور الأول كمحلات يُستخدم ريعها كوقف للجامع، أمَّا الجامع ففي الدور الثاني وقد زخرفت واجهته الخارجية بطراز الفنون الإسلامية التقليدية ، وله مدخلان: الأول في جداره الجنوبي والآخر في جداره الشرقي وقد تم ترميمه أخيرا عام (1970م) ترميماً كاملا.

4) حوطه سفيان - ضريح سفيان:

يقع ضريح (الشيخ سفيان بن عبدالله) في مدينة الحوطة، وتنسب إليه حوطة سفيان، ويوجد داخله قبره، تقام له زيارة سنوية في السابع عشر من ربيع الأول ، ومشهده جميل ويقال له اليمنى والحصرى، وكان (الشيخ سفيان بن عبدالله) عالماً متفقهاً مشتغلاً بالعلم، تتلمذ على يده فقيه عالم اسمه (الشيخ شهاب الدين أبو العباس أحمد بن إبراهيم المروني المغربي)، أمَّا تاريخ وفاته فهو غير معروف؛ وتذكر بعض المصادر أنه عاش في (القرن الثامن الهجري)، ولم تذكر تأريخ ميلاده ووفاته، ومازال يسكن من نسل (الشيخ سفيان) حتى الآن في (حوطة سفيان)، وقد تم هدم وتخريب ضريح (الشيخ سفيان) عام (1994م) ولم يبقَ منه سوى منارة المسجد.

سادساً: القمندان ثقافة وعنوان:

لا يأتي ذكر لحج إلاَّ ويُذكر معها الشاعر والأمير أحمد فضل بن علي بن محسن العبدلي (القمندان) الذي ولد في مدينة الحوطة عاصمة سلطنة لحج، وترعرع وعاش معظم حياته ودفن فيها، وكانت تربطه بمدينته علاقة حميمة، وتؤرخ ولادته الى عام 1302 في التقويم الهجري أي ما يوافق 1884م او 1885م في التقويم الميلادي وتوفي سنة 1362هـ ويوافق 1943م.

وقد تحدث الريحاني عن زيارته للشاعر في بداية العشرينيات في كتاب (ملوك العرب) وأبرز من خلال ذلك الملامح الشخصية للقمندان فقال: مكثتُ أيام في منزل الاديب أحمد فضل القمندان

بلحج وناقشته وتحدثنا كثيرا في شتى المجالات الفكرية والتاريخية والفنية فوجدته ذو فكر ثاقب واطلاع واسع وثقافة غزيرة لطيف المعشر وإنه ليس علما من أعلام اليمن فحسب وإنما هو علم من أعلام الجزيرة العربية) وأضفى عليه في ذلك الكتاب لقب شاعر لحج وفيلسوفها. (عياش الشاطري ، ص17) و (لطفي حسين منيعم ، ص23/24).

فالشاعر والأمير أحمد فضل (القمندان) أحد ابرز رموز لحج الادبية والفنية والثقافية، يشهدل له بذلك ما قام به من دور كبير في تطوير وتجديد الأغنية اللحجية بعد أن كانت عباره عن (طقطوقات) أي أبيات قصيرة تردد على ألسنة من سبقوه من الفنانين أمثال فضل ماطر باجبل، وابن درينة وغيرهم، فقد استفاد من التراث الشعبي الموجود وبنا عليه فنا جديدا راقيا في جُمله الموسيقية ومعانيه الشعرية.

فتغنى مُعبراً عن مشاعر وأحاسيس الناس ولامس دواخلهم واستحسنوها وانشرحوا لها وتراقصوا معها فازدهرت الاغنية اللحجية وذاع صيتها.

وتأكيداً لذلك الازدهار الفني الذي لمع من اهتمامه الكبير لارساء قواعد عهد فني أدبي وغنائي جديد لا بأس أن نستعرض ما جاء في ديوان (طاب السمر) غنائيات عبدُه عبد الكريم ، الذي ورد فيه مايلي: (تعاطى سلاطين العبادل الشعر واحسنوا نظمه واهتموا بالشعراء وأغدقوا عليهم الأعطيات وقربوا العلماء وأجزلوا لهم الثناء، واهتم للشعر والشعراء كثير من طبقات الرعية على وجه شبيه بما كان يفعله الرعايا الأمويون والعباسيون، والناس على دين ملوكهم، فإذا العامة يتغنون بالشعر ويحتفلون بالشاعر، يحيون بالشعر أفراحهم وليالي تسامرهم يحفظونه ويستشهدون به في مناسبات الحياة المختلفة، واذا كان العباسيون قد أسرفوا في شرب الخمر حتى غدت غرضاً شعرياً فنَّاً بذاته عندهم، فقد أسرف العبادلة في شرب الموسيقى والغناء، رققوا الشعر وخرجوا عن عموده التقليدي واستهواهم الموشح الأندلسي لتجدده وتنوعه وحريته فاتبعوه زمناً ثم تجاوزوه معنى وبناء، واستحدثوا في فن الغناء حتى غدت الاغنية اللحجية طرباً سلطانياً آسراً فأتمت اليمن عرسها وطلعت على الناس متوشحة بتواشيح (صنعاء) ودان (حضرموت) بإذنيها قرطاً بديعاً ترفل في ثوب ذي أذيال مجرجرة من غناء عبدلي يخطف الابصار ويأسر

القلـوب ويفـتن العقـول، وهكـذا دارت الـرؤوس وتمايلـت (ميحـة ومركـح) وتثنـت الاعطـاف وارتجـت الارداف وماحـت القلـوب الخاليـة مـن الهمـوم المتوجـة بالـورود والعقـول المتأججـة بنـيران الـولاء للسـلطان والحبيبـة).

ومـن واقـع مسـيرة القمنـدان العطـرة الـتي اختطهـا وجسـدها برونـق باهـي وسـحر لتبقـى إرثـاً ودليـلاً ارشـادياً للأجيـال في طابـعٍ لحجـيٍّ لـه خصوصيتـه واسـتقلاله، وذلـك مـا أكَّـده في معظـم قصائـده الغنائيـة ونذكـر منهـا قصيـدة (صـادت عيـون المهـا) حيـث يقـول:

هـل أعجبـك يـوم في شـعري غزيـر المعـاني
وذقت ترتيل آياتي وشاقك بياني
وهل تأملت يالحجي كتاب الأغاني
فلا أنا قط صنعاني ولا أصفهاني

فنحـن حينمـا نتحـدث عـن القمنـدان نتحـدث عـن رجـل عبقـري بـكل مـا تحملـه الكلمـة مـن معـنى، بـذل جهـدا لا يسـتهان بـه في سـبيل إرسـاء مداميـك فـن الغنـاء اللحجـي بوصفـه لـون مـن ألـوان الغنـاء اليمـني المتميـزة والحـاضرة ليـس عـلى مسـتوى اليمـن فحسـب، بـل تجـاوز ذلـك ليصـلَ إلى الجزيـرة والخليـج والعالـم العـربي؛ فـترك إرثـاً فنيـاً زاخـراً اتخـذه اللاحقـون أنموذجـا يُحتـذى؛ فسـاروا عـلى النهـج القمنـداني ذاتـه شـعراً وإيقاعـا.

وإلى جانـب ذلـك فقـد كان القمنـدان اجتماعيـاً في علاقاتـه يحـب الاختـلاط ومعايشـة بسـطاء النـاس، ويدعوهـم إلى منتـداه الأدبي والفـني ويقـدم لهـم كل جديـد في الفكـر والفـن ويسـتمع إلى آرائهـم وهمومهـم ويعمـل قـدر الإمـكان عـلى معالجتهـا وتذليلهـا لهـم. كمـا عُـرفَ عنـه مشـاركته للفلاحـين في أعمـال الأرض والزراعـة والجلـوس معهـم في أوقـات الفـراغ ومشـاركتهم الغنـاء والرقـص الجماعـي في مواسـم الحصـاد.

كمـا تجـلى اهتمـام القمنـدان في بـروز كثـير مـن الاعـلام الادبيـة والفنيـة وفي مقدمتهـم (الفنـان فضـل محمـد اللحجـي) الـذي حـضي بإهتمـام وتشـجيع الأمـير القمنـدان فـبرز كفنـان يمتـاز بصـوت جميـل وإلى جانـب ذلـك فقـد كان عازفـاً بارعـاً تغـنى بأفضـل وأعـذب الكلمـات والألحـان القمندانيـة. وذلـك مـا جعلـه يـلازم اسـتاذه ومربيـه القمنـدان الـذي أعجـب بأدائـه وطريقـة عزفـه وبـارك موهبتـه الفنيـة فحـاز اللحجـي شـهرة واسـعة بـين الجماهـير.

تغـنى الفنـان العمـلاق فضـل محمـد اللحجـي بالكثـير مـن قصائـد الأمـير أحمـد فضـل القمنـدان؛ بـل إنـه حلَّـق أبعـد مـن

ذلك من خلال موهبته التي يسرت له أن يبدع أجمل الألحان، فتمكن من إدخال الدان اللحجي بعبقرية وأصالة على الاغنية الصنعانية (وامغرد) فكان أبرز من أدّاها، وقدم الكثير من الألحان للعديد من الشعراء مؤسساً مدرسة فنية سار على خطاها كثير من الفنانين بعده.

ولا عجب في ذلك إذا علمنا أن فضل محمد اللحجي قد برز كموهبة فنية منذ صغره؛ حيث كان شديد الميل إلى الغناء والطرب؛ فبدأ الغناء والعزف على آلة السمسمية وهو في عمر لم يتجاوز السابعة، الى أن وصل علمه إلى القمندان الذي تبناه وأسهم في تنمية موهبته، كما تبنَّى إلى جانبه زميله (مسعد بن أحمد حسين) وواصل فضل محمد اللحجي مسيرته الفنية حتى بلغ سلم النجومية.

وتوالى العطاء الفني واستمرت لحج ساحة للفن والطرب بفضل أعمدتها ورموزها الأدبية والفنية ممن تأثروا بالمدرسة القمندانية وساروا بكل ثقة حاملين لواء الأغنية اللحجية التي ذاع صيتها على مستوى الداخل والخارج، فتغنوا بأفضل القصائد والألحان كما تميزوا بإصواتهم العذبة والجميلة التي ظلت خالدة في الوجدان تتعاطاها وتستمع لها الأجيال تلو الأجيال بحب وشغف. لذلك فقد أضحتْ لحج مفخرة الفن فما أن تذكر إلا ويذكر رموزها واعلامها وفنها الاصيل.

لا شك أن تلك المرحلة قد كانت مرحلة خصبة أسهم في تشكيلها أولئك النجوم الذين أضاءت إبداعاتهم سماء الكون، وممن عاصروا القمندان ونهلوا من فنه وأسهموا في بناء تلك النهضة الأدبية والفنية من خلال تقيدهم بضوابط ومحددات المدرسة القمندانية بوصفها إرث فني زاخر الشاعر (حسن أفندي) الذي اشترك مع القمندان في عدد من القصائد والألحان، إضافةً إلى الشاعر الشعبي (مسرور مبروك) والشاعر والملحن الأمير (عبده عبد الكريم ابن عم القمندان) والشعراء: (عبدالله هادي سبيت) و(صالح فقيه) و (أحمد صالح عيسى) و (صالح نصيب) و(محمود علي السلامي) والأمير (علي بن أحمد فضل الرصاص) وغيرهم من الوجوه الأدبية والفنية الذين أسهموا إلى جانب القمندان في تطوير وتجديد الأغنية اللحجية والنهوض بها.

وتتويجا لهذا الجهد فقد أسس القمندان فرقته الموسيقية التي تكونت من:

- فضل محمد اللحجي.
- مسعد أحمد حسين.

- فضل طفش.
- حسن طفش.
- أحمد صالح علي.
- هادي سعد سالم.

سابعاً: المسرح والندوات الموسيقية:

وبعد وفاة القمندان أسهم الفنان فضل محمد اللحجي في تأسيس المسرح والندوات الموسيقية في لحج، فتبنَّى وشجَّع كثير من المطربين والمواهب

■ صناعات من الخزف تشتهر بها ارياف الحوطه ويستخدمها المواطنين في حياتهم وتعد تحفة فنية لدى السياح

الفنية الشابة، حيث شهدت لحج حركة مسرحية في أربعينيات القرن الماضي؛ فتأسست فرقتان للتمثيل هما: فرقة العروبة للتمثيل، وفرقة القومية للتمثيل التي كان الفنان (فضل محمد اللحجي) أحد الأعضاء المؤسسين لها، وقد ضمَّت عددا من أبناء لحج فكان منهم المخرج والممثل والملحن والعازف والمغني، وغير ذلك.

وفيما يتعلق بالندوات الفنية فقد كان لفضل محمد اللحجي دوراً محوريا في تأسيسها، ومن أهمها:

1) الندوة الموسيقية اللحجية:

وتأسست عام 1955م وكان الأمير عبدُه عبد الكريم أحد الداعين لتأسيسها وضمت إليها الفنان صلاح ناصر كرد، والشاعر محمود علي السلامي، والفنان أحمد يوسف الزبيدي، وضارب الايقاع حسين محمد حسن ناجي وغيرهم.

2) ندوة الجنوب الموسيقية الأولى:

أسسها الشاعر الكبير عبدالله هادي سبيت مع مجموعة من الشعراء والفنانين والمغنين والعازفين، وتزامن تأسيسها مع نهوض حركات التحرر العربية التي جاءت بعد ثورة مصر في العام 1952م، ومنها ثورة المليون شهيد الجزائرية التي انطلق مارداها في العام 1954م فضمتْ هذه الندوة مجموعة كبيرة من الشعراء والفنانين والعازفين والمغنيين فاتخذت من إحياء الحفلات وسيلة لدعم ثورة الجزائر؛ وضمت كوكبة من الشعراء والفنانين والملحنين والعازفين، هم:

- عبدالله هادي سبيت، رئيساً وشاعراً وملحناً وعازفاً على العود.
- فضل محمد اللحجي، قائدا للندوة وملحناً وعازفاً على العود والكمان.
- محسن بن علي منصر، عازفاً على العود.
- محمد سعد الصنعاني، ملحناً وعازفاً على العود والكمان.
- محمود محمد جبلي، عازفاً على الكمان.
- علي سالم النجا،عازفاً على الكمان.
- سعد سرحان السرحاني، عازفاً على الكمان.
- فضل حويس (سينجار)، عازفاً على آلة الريكورد الخشبية.
- عبدالله عبدُه الطاهري، عازفاً على آلة الريكورد الخشبية.
- حسين حسن محمد ناجي، ضارباً للايقاع.
- علي مبروك، ضارباً للايقاع.

لقد كان للراحل الفنان فضل محمد اللحجي دوراً كبيراً في تطوير الاغنية اللحجية مع مجموعة من اصحاب المدارس اللحنية الجديدة ما بعد

مرحلة القمندان أمثال: عبدالله هادي سبيت، الأمير عبدُه عبد الكريم، الأمير محسن بن أحمد مهدي، محمد سعد الصنعاني، صلاح ناصر كرد، محمود السلامي، حسن عطا، سعودي أحمد صالح، فيصل علوي، عبدالله محمد حنش، عوض أحمد كريشه، أحمد سالم مهدي، فضل كريدي، هادي سعد شميلة وغيرهم.

وارست هذه النخبة القواعد والأصول الحديثة في البناء اللحني الجديد للأغنية في لحج الذي اعتمد على أصالة الألحان التي بُنيتْ على النغم السائد والمشهور من الدان اللحجي المتنوع في مقاماته الموسيقية مثل: دان يا طير كف النياح، ولحن يا مرحبا بالهاشمي، ودان الدمندم، وغيرها من الألحان المتنوعة التي تتميز بها لحج.

كما أن عمل هذه النخبة لم يقف عند ذلك، بل سعت للبحث عن المواهب الشابة وشجعتها وتبنتها فنياً وقدمت لها الألحان الجميلة والخالدة، فاستحقت بذلك أن تكون حاملة لواء التراث القمنداني الأصيل.

ثامناً: الوهط حاضرة لحج الثانية علمياً وثقافياً وفنياً:

حينما نتحدث عن (الوهط) ونستعرض تاريخها الثقافي والأدبي والفني وطابعها المتميز تستحضرنا منارتها العلمية الشامخة (المدرسة الجعفرية) التي كانت تضاهي المدرسة (المحسنية) في حوطة لحج في كثير من الجوانب؛ بل إن الوهط قد كانت من المدن التي واكبت السلطنة العبدلية وارتقت إلى مصافها في الفكر والثقافة والحياة الابداعية إجمالا؛ ومثلت إحدى الحواضر التي برز منها رجال فكر وقامات ثقافية وأدبية سامقة، وهي تأتي في المرتبة الثانية بعد عاصمة لحج الحوطة من حيث التعليم والواقع الثقافي والأدبي والفني الذي شهدته آنذاك وتحديدا في نهاية اربعينيات القرن الميلادي الماضي.

ولم يقتصر عطاء الوهط وأبنائها على المجال الفني أو الثقافي والأدبي فحسب؛ فقد أنجبتْ الوهط قامات يُشار لها بالبنان في مختلف المجالات، كالمفكر عمر الجاوي مؤسس اتحاد الأدباء والكتاب اليمنيين وله اصدارات سياسية وثقافية وأدبية كثيرة، والاستاذ محمد سالم حمود الزجر، والشاعر أحمد عمر اسكندر، والشاعر علي مهدي عبيد محلتي، ومحمد صالح حمدون، وعلي زين الخواجة، ومحمد زين الخواجة، ويوسف عبدالله مغرم،

وزين محمد أحمد الراجل، وعبود زين الخواجة، وعبد قشاش محمد، وعلوان زين جعفر، وعبدالله سعيد عولقي، وغيرهم كثير.

ازدهرت مدينة الوهط وظلت زاخرة بفضل أعلامها ورموزها الذين لا يمكن حصرهم ممن ذاع صيتهم واستطاعوا أن يرفعوا اسم مدينة (الوهط) ومحافظة لحج عامة، ومن أبرزهم الاديب الراحل أحمد السقاف الذي كانت إسهاماته كبيرة في نشوء وتور الحركة الثقافية والأدبية من خلال تأسيس الأندية والصحف والمجلات العربية، وتأسيس مكتب دولة الكويت بعدن عام 1969م.

وتتجلى الوهط بوصفها حاضرة متميزة، وحاضنة فريدة للفكر والابداع من خلال منتداها الثقافي والأدبي الذي يجمع بين جنباته عقول متنورة متفقهة في شتى العلوم الدينية والسياسية والاقتصادية والثقافية والأدبية ليستمر هذا المنتدى في عطاءه يخدم الاجيال ويهذب دواخلهم ويعزز مداركهم وهو طابع المدن الحضارية المحافظة على تاريخها وثقافتها وهويتها.

لذلك فلا عجب أن يستقبلك بها أبناء الوهط بتلك المحبة، فيلقاك صغيرهم قبل كبيرهم مرحبا ببساطة مهذبة فيها من اللياقة واللباقة ما يدلُّ على سموهم خِلْقةً وأخلاقاً.

دور الشباب في بناء السلام في اليمن (2)

ماجد الخليدي، يزيد الجداوي، كايت نيفينز

نشرنا في العدد الثاني الجزء الأول من هذه الدراسة ونواصل هنا نشر الجزء الثاني والأخير منها..

إسهامات الشباب نحو متطلبات السلام في اليمن

الاقتصاد

إن تحسين الوضع الاقتصادي أولوية اساسية بالنسبة للشباب في كل الأماكن في اليمن، وهو المجال الذي نشط فيه الشباب بشكل خاص. وفي مستهل الصراع في 2015/2014 ركز الكثير من الشباب عملهم مجدداً وبسرعة على تناول القضايا المباشرة كالاحتياجات الضرورية والمعيشية لمجتمعاتهم. وقد لعبوا دوراً كبيراً في الاستجابة الإنسانية في المواقع التي لا تصل إليها المنظمات الإنسانية. وشملت مهماتهم تقديم الطعام والماء والملابس وحتى توزيع الكهرباء ومساعدة النازحين داخلياً.

لقد استمرت الجهود الإنسانية في الكثير من المناطق. غير أن الشباب بعد مرور خمس سنوات أصبحوا أكثر ميلا نحو الحلول الاقتصادية ذات الأمد الأطول؛ ومن ذلك: خلق أو دعم المشاريع الصغيرة، وتوفير منح صغيرة للشباب من رواد الأعمال، وتدريب الشباب على مهارات مهنية معينة. في المكلا، مثلا، نظم الناشطون الشباب تدريبات مهنية لتخريج عمالة ذات مهارات كالكهربائيين والمزارعين والسباكين وعمال الصرف الصحي والحلاقين. وفي تعز قام الناشطون الشباب بتدريب شباب آخرين لإكسابهم مهارات أساسية في سوق العمل كالتسويق عبر الانترنت، و دعم الشباب لتنمية مهارتهم للعمل في التنمية الدولية، وتدريب النازحين الشباب في مجال صيانة الطاقة الشمسية.

في الكثير من المناطق سواء في الريف أو الحضر تنشط الشابات في المشاريع الصغيرة وريادة الأعمال، و إنْ كان ذلك لا يتعدّى مجالات محددة تتسم بالتعامل مع الزبونات النساء أو المنتجات المصنوعة منزلياً.[14] وتشمل هذه الأنشطة تأسيس أعمال في صناعة الخبز، والحلويات، و صالونات التجميل وتصفيف الشعر، وإنتاج وبيع العطور والبخور. وفي شهر مارس 2018م وكجزء من الاحتفال المحلي باليوم العالمي للمرأة في سيئون، أقامت المنظمات النسوية سوقا شعبيا كبيرا لعرض المنتجات التي تصنعها النساء في المنازل في المناطق المحيطة. وهدف هذا المعرض أيضاً إلى إظهار المواهب، و المهارات، والحرف، التي تجيدها نساء المنطقة. وتحدثت النساء في مدينة المكلا (المنطقة الحضرية الأكبر في حضرموت) عن استخدام النساء لوسائل التواصل الاجتماعي في بيع وتسويق منتجاتهن، مستشهدات بأسماء بعض النساء اللاتي يعتبرن "رائدات أعمال" في مجتمعاتهن.

السياسة

عبّر الشباب في أنحاء مختلفة من اليمن عن ضعف الثقة في الأحزاب والمجموعات السياسية؛ إذ أن الدولة، في نظرهم، ضعيفة والمجالس المحلية غير فعّالة. ومع ذلك،

14 يمكن الرجوع إلى مناقشة "فريق النساء" في هذا المسرّوع لهذه القضية ضمن الورقة التي كتبتها كل من Iman al-Gawfi, Bilkis Zabara and Stacey Philbrick Yadav (27.02.2020).

فما يزال هؤلاء الشباب مهتمين بالسياسة، بمعناها التقليدي، بشكل كلي وينظرون إلى مشاركة الشباب في صناعة القرار كأمر محوري لبناء يمن آمن يشمل الجميع.

إن المخاطر الأمنية وانعدام العملية السياسية التي يكون من شأنها الخضوع للمحاسبة كلاهما عاملان متضافران أسهما في التأثير السلبي على قدرة الشباب على التأثير في صناعة القرار. وهذا هو ما دفع الشباب إلى التركيز على مجتمعاتهم المحلية وعلى مجالات أخرى. وعندما ينخرط الشباب في عمليات صناعة القرار أو مع صناع القرار، فإن هذه المشاركة غالباً ما تكون محدودة التأثير وغالبا ما تكون في نطاق قضايا أو أحداث محدودة جداً وليس ضمن هيكل كلي يضطلع بصنع القرار. و قد أثار الشباب هذا الموضوع بشدة في أحد جلسات النقاش البؤرية في تعز، إذ طرح البعض منهم أن نشاط الشباب السياسي ينبغي أن يقتصر على مستوى محلي محدود (حي، أو قرية، أو مديرية) وقضايا محددة جداً (اجتماعية، أو معيشية، أو تعليمية). ويبررون هذا بالتقليل من خطر التعرض للأذى أو أي تلاعب محتمل من قبل الجماعات المسلحة أو الأحزاب السياسية. وعلى النقيض من ذلك، يُصر آخرون على أهمية المشاركة الشبابية على المستويين المحلي والوطني. وبالرغم من هذه المصاعب، فإن الأنشطة التي يقودها الشباب قد أسست لآليات تواصل وشراكات فعالة في العديد من المجالات والتي يمكن أن تمهد الطريق لشراكات طويلة الأمد وصناعة قرارات تستوعب الجميع في المجتمع.

وحتى انخراط الشباب ومشاركتهم في صناعة القرار في الأحزاب السياسية، فإنه يُعد أكثر تعقيداً ومليئا بالمصاعب. ويشعر الكثير من الشباب بالقلق من تلقي المجموعات الشبابية المنظمة لأحزاب سياسية أو قبلية للدعم؛ فهم يرون أن تلك الأحزاب السياسية تعمل على استغلالهم؛ إذ أنهم "لا يحظون، في واقع الأمر، بفرص حقيقية أو فعلية في صناعة القرار". في إب، حيث يفرض الحوثيون (أنصار الله) إجراءات مشددة على الانضمام إلى الأحزاب السياسية أو الانخراط في الأنشطة التي تقوم بها تلك الأحزاب، يخشى الشباب من أن يتم فهمهم كمعارضة سياسية ووصمهم بـ "الاصطفاف مع جماعات أصولية أو متطرفة". وكلا الطرفين الحكومة المعترف بها دوليا و الحوثيين يزعمان أن لدى كل منهما "حكومات ظل" من الشباب نشطة على الأرض وفي وسائل التواصل الاجتماعي. ومع ذلك، فحكومات الظل تلك تبدو أكثر انشغالاً بالمنافسة السياسية من الانشغال بالمشاركة في صناعة القرار.

وبالرغم من كل تلك المخاطر الأمنية وعدم وجود ممثلين واضحين للحكومة، فإن الشباب والشابات يواصلون استخدام الاحتجاجات والمظاهرات السلمية وحملات المناصرة العامة وكسب التأييد من أجل إحداث تغيير ايجابي في محافظاتهم. وعلى سبيل المثال يتظاهر أعضاء حركة "الشباب الغاضب" في سيئون ضد ارتفاع الأسعار والاختطافات والاغتيالات، كما أن الشابات قد خرجن إلى الشارع للمطالبة بتغيير السياسات والاحتجاج على الأسعار المرتفعة للمواد الأساسية وضعف البنية التحتية. وفي المكلا قام الشباب بحملات مناصرة وكسب تأييد تهدف إلى إعادة افتتاح المطار وخفض تكلفة الإيجارات في المدينة. والمثير للانتباه والمفاجأة أننا لاحظنا في نقاشات المجموعات البؤرية في حضرموت أن الشباب الناشطين الذين انتقدوا السلطات المحلية لا يعانون كثيرا من عسف السلطات التي انتقدوها. غير أن القيام بأفعال كتلك في محافظة إب يُعد أمرا محفوفا بالمخاطر. وعلى الرغم من أن المظاهرات العامة لازلت تحدث هناك بشكل طفيف، فإن استخدام وسائل التواصل الاجتماعي يتم بشكل متزايد (بالرغم من أن وسائل التواصل الاجتماعي كانت تُعتبر أمراً خطراً وبالأخص على النساء اللواتي يستخدمن أسماء غير حقيقية)، وأحد الأمثلة التي أعطيت لنا هو أن الشباب في إب تجاوبوا بشكل ناجح ضد اعتداء جنسي

حصل في حق طفلة؛ حيث قام الشباب بحملة إعلامية عبر وسائل التواصل الاجتماعي وقاموا بمسيرات لمسافات طويلة للضغط على السلطات للتسريع في محاكمة المشتبه به.

الثقافة والمجتمع

في الأماكن المختلفة التي شملها البحث أعرب المشاركون أنهم يشعرون أن الشباب يقومون بإسهامات مهمة وبارزة في بناء السلام في مجال الثقافة والمجتمع، وذلك من خلال الآتي: أ- لأنشطة التي تعزز التلاحم الاجتماعي وتبني جسور الثقة بين الناس وتعزز التعاون وتؤسس لأرضيات وتفاهمات مشتركة. ب- الأنشطة التي تُشرك الشباب بشكل سلمي وإنتاجي؛ أي التي تجعل من الشباب يتمرسون على السلام بدلاً عن الصراع. جـ- الأنشطة التي تستخدم الفن والثقافة لنشر قيم السلام. يقول أحد المشاركين في تعز "تساهم أنشطة الشباب الثقافية والاجتماعية في تخفيض التوترات بين الناس وتجعل الناس يشعرون بالأمل، وهذا، بدوره، يمهد الطريق لعملية بناء السلام". إن الأهداف المتعلقة بالتلاحم الاجتماعي وإشراك المجتمع والوعي والتعليم العام أمور جميعها متوطدة تقريباً في كل أنشطة الشباب التي تم مناقشتها في ورقة البحث.

إن الفنون والثقافة تعدان في رأي المشاركين في بحثنا أرضا خصبة لإشراك الشباب؛ هذا، مع العلم أن ثمة وجودا لقيود اجتماعية وحكومية في محافظة إب على وجه التحديد، وأن ثمة افتقارا للمؤسسات والفضاءات العامة في كل من إب وحضرموت ومحافظات أخرى.[15] وقد عبّر الشباب والشابات في حضرموت عن قلة الفضاءات العامة والمبادرات الثقافية التي من شأنها احتضان التعبير عن الذات باستخدام الفن لنقل رسائل السلام ونشر ثقافة التسامح والإنسانية عبر المنصات أو الرسم أو الحفلات الموسيقية أو معارض الصور والأفلام، وهذا ما شرحته لنا بالتحديد الشابات في المكلا. وفي تعز وحضرموت وعدن وصنعاء تنشط النساء في الدراما والرسم والغناء بينما في إب لوحظ أن النساء أقل نشاطاً في الفنون بسبب الأعراف الاجتماعية المحافظة فيما يتعلق بسلوك النساء. ومعظم الفنانين في المناطق التي يسيطر عليها الحوثيون لا يمكنهم حتى أن ينطقوا كلمة "سلام" في أعمالهم. قال أحد الفنانين الشباب إن الحوثيين يعتبرون كلمة سلام "خيانة". ومع ذلك لايزال الكثير من الفنانين ينشرون أعمالهم برسائل ضمنية لأجل السلام في وسائل التواصل الاجتماعي. ففي صنعاء، مثلاً، تقوم إحدى الفنانات بنشر لوحاتها الزيتية المتعلقة بالتعايش والوئام على فيس بوك،[16] ويتم تلقي تلك الصور بترحاب على نطاق واسع من قبل الشباب اليمنيين.

رأى الكثير من الشباب والشابات أن العمل الذي يقومون به يساهم بشكل مباشر في التماسك الاجتماعي ويوفر الدعم لأفراد المجتمع ذوي الاحتياجات العقلية والجسدية. وفي المكلا يقوم نادي المتطوعين باستضافة المنتديات والبرامج والنقاشات والأنشطة الهادفة لتحسين دور الشباب وإشراكهم في مجتمعاتهم. وتقوم النساء باستخدام التجمعات النسوية لرفع الوعي وتقديم المشورة في الشأن الأسري أو الصحي أو الديني. وفي إب هناك مبادرة شبابية تسمى (فريق هاجر البواسي) وكل أعضاء المبادرة من الإناث، ويقوم الفريق بتقديم الدعم النفسي للنازحين والأيتام وتزور عضوات الفريق مراكز النازحين وينظمن أنشطة ترفيهية للتخفيف من مشاعر الاكتئاب لدى النازحين.

15 اعتدنا على وجود المؤسسات والمراكز الثقافية، السينما المعاهد، وغيرها في كثير من المحافظات. وتواجدت أيضا بعض المؤسسات الخاصة في القليل من المحافظات، كمؤسسة السعيد في تعز. وتقريباً كل هذه المؤسسات مغلقة حالياً وبعضها كدور السينما تم إغلاقها مسبقاً قبل الحرب، باستثناء محافظة عدن حيث تم إعادة الافتتاح لعدة مراكز ثقافية منذ الصراع المسلح الذي حصل فيها عام 2015م.

16 انظر للعمل الفني هنا: https://www.facebook.com/ShathaAltowaiArt/posts/1266037753784285

الأمن والعدالة

يرى الكثير من الشباب الذين تحدثنا إليهم أن الأمن والعدالة يُعدان شرطين جوهريين لتحقيق السلام في اليمن. ووضع الناشطون في تعز الأمن والعدالة في قائمة أولوياتهم لمتطلبات السلام؛ هذا مع العلم أن لديهم مزيجا من الرؤى المتعلقة بإمكانيات الشباب في المساهمة في تحقيق العدالة والسلام في مجتمعاتهم. وقد كانت السلامة والتقليل من الجرائم الاجتماعية أهم المواضيع التي ناقشتها المجموعات البؤرية، بيد أن بعض النساء عمدن إلى تسليط الضوء، بصورة خاصة، على العدالة من خلال المحاكم والتدابير القانونية لحماية النساء.

في تعز وحضرموت كان هناك شعور أن الشباب قادرون على القيام بإسهامات صغيرة نحو الأمن والعدالة بالشراكة مع الأمن المحلي والشرطة وقوات خفر السواحل. الكثير من الأنشطة الشبابية تركز على رفع الوعي العام فيما يتعلق بالأمن الشخصي، وقضايا السلامة، ومشاريع تُعنى بالحد من إطلاق الأعيرة النارية في الأعراس، وتحسين إضاءة الشوارع في الأحياء غير الآمنة، والتثقيف بمخاطر إطلاق النار، والحد من الجرائم، وتحسين حركة المرور والسلامة. وقد قامت مجموعة من الشابات في تعز بالتنسيق مع المؤسسات الأمنية بهدف المساعدة في رفع التقارير حول عمليات السطو وسرقة الأراضي. وفي تعز أيضاً قامت بعض المبادرات الشبابية بالتقدم خطوة إلى الأمام عندما استضافت أعضاء من المجتمع وقوات الأمن على طاولة مستديرة من أجل النقاش. وقد لعبت تلك المبادرات دوراً في تقييم ومتابعة أداء الشرطة،[17] وقدمت التدريب لأفراد السرْطة فيما يتعلق بحقوق الانسان والقانون الدولي الإنساني، ومع ذلك أبدى عدد من الشباب في تعز مخاوفهم من العمل عن قرب مع قوات الأمن أو الجيش مستشهدين بمخاطر ممكنة. وفي حلقات النقاش البؤرية كان الشباب في مدينة إب منقسمين حول ما إذا كان ينبغي القيام بأية أنشطة تتعلق بالأمن والعدالة من حيث المبدأ؛ وذلك نظراً لحساسية هذا الموضوع لدى السلطات المتمثلة في الحوثيين (وخاصةً بعد استبدال مدير الأمن). هذا؛ و إنْ كانوا قد أشاروا إلى الحل الذي حصل في موضوع صراع الاستيلاء على الأراضي باعتباره مثالا فريدا للتعاون الفعال بين الشباب وإدارة الأمن.

وقد كان موضوع دور الشباب الذكور في توفير الأمن أحد أهم المواضيع التي ظهرت بصورة متواترة في كل المجموعات البؤرية. وقد اعتُبر ذلك أمراً إيجابياً عندما يكون من أجل دعم جماعة أو طرف تحظى أو يحظى بـ"الشرعية". فعلى سبيل المثال، قام الشباب بالمساعدة في تأمين وحراسة المكاتب الحكومية بعد انسحاب مقاتلي تنظيم القاعدة منها في المكلا. وفي سيئون وإب شكل الشباب مجموعات لحماية الأحياء وعلى وجه الخصوص في الفترة الليلية. وقال المشاركون الشباب في تعز إن الأحياء أصبحت أكثر أمنا بفعل مساهمات الشباب وأن عدد عقال الحارات الشباب آخذ في التزايد. ونوه المشاركون في سيئون إلى أن هناك تزايدا في عدد الشابات اللواتي يقدمن الخدمات في قطاعات مختلفة من قوات الأمن وأنه يتم رؤيتهن في الأحداث والتجمعات العامة. ولكن المشاركين رأوا أن الشباب المنظمين لسلطة الحوثين في إب يمثلون مشكلة شبيهة بالانضمام إلى العصابات الخارجة على القانون والتي تنتهك حقوق الإنسان ولا تحترم القانون.

١ لتعليم

يتحفز الشباب للعمل في مشاريع تعليمية أو مبادرات لاستعادة الحياة المدنية بعيداً عن القتال. وبسبب الحرب يفقد الكثير من الأطفال والشباب والشابات مراحل مهمة في تعليمهم

17 أحد مبادرات منظمة شباب بلا حدود لتوفير الاحتياجات الضرورية (صرف صحي، طاقة شمسية، الخ) كانت نتيجتها قيام السلطات بإعادة تفعيل قسم شرطة محلي، وتشجيع أفراد الشرطة على لبس الزي الرسمي، مجدداً.

وهذا مدخل أساسي مفقود لتمكين السكان من إعادة بناء بلدهم، والمساهمة في الاقتصاد، وتعزيز الأمن والعدالة والحكم الرشيد. كما أن الكثير من الصغارمن محافظات مختلفة في إرجاء البلد يفرون من مدارسهم للحاق بعصابات إجرامية أو ميلشيات مسلحة. و لذلك سيكون للجهود التي ستبذل في الحفاظ على نظام التعليم و إبقاء أولئك الطلاب في مدارسهم إسهام كبير في التقليل من العنف. يقول أحد المشاركين في تعز "يُعد الجهل و التعليم السيء من أهم الأسباب التي تدفع الشباب ليس نحو العنف فقط، بل أيضا نحو اختلاق المشاكل الاجتماعية و الأعمال الخارجة على القانون."

ويمكن أن نقارن بين النشاط الشبابي في التعليم بين محافظات يمنية مختلفة نظرا للتنوعات. ففي الريف والحضر في كل من تعز وحضرموت و إب تُعد مبادرات الشباب في التعليم متنوعة. فمن ذلك، على سبيل المثال، جمع المساعدات المالية لتوفير دعم مادي أو عيني لمساعدة الطلاب أو الجامعات، ويتمثل هذا الدعم في الحقائب المدرسية، والزي المدرسي، والكراسي المتحركة، و دفع التكاليف والرسوم، والمساعدة في ترميم المدارس التي تعرضت للضرر نتيجة للحرب. ومن ذلك أيضا تطوع الشباب للعمل كمعلمين وبالأخص في المدارس التي تركها المعلمون نتيجة للصراع. بالإضافة إلى إقامة البرامج لمحو الأمية لدى البالغين، و مساعدة الأطفال المعاقين والذين لديهم مشاكل صحية. وقد تحدث المشاركون في إب حول العمل مع جماعات من اليهود في اليمن لتوفير دعم مالي لمن تبقى من المعلمين؛ لأن الرواتب الحكومية لم تدفع للموظفين الحكوميين في المحافظات الخاضعة لسيطرة الحوثيين منذ العام 2016. وفي تعز نفذ تحالف منظمات المجتمع المدني الذي يقوده ناشطون شباب مشروعاً للمناصرة وكسب التأييد من أجل إخلاء المدارس في المدينة من الثكنات العسكرية. كما قدم رجال الأعمال و المنظمات الخيرية التعليمية في حضرموت مئات المنح للطلاب في حضرموت للدراسة في الخارج.

وقد رأينا أن المبادرات المتعلقة بالتعليم تُعتبر مجالا حيويا لنشاط الشابات بشكل خاص. فالنساء يتمتعن بحق الدخول إلى الفضاءات التعليمية بشكل أسهل. ففي سيئون شاركت الكثير من الشابات في مجالس الأمهات في المدارس. وهذه المجالس كانت بالأساس تركز على جمع التبرعات والتمويل من الآباء، ومنذ اندلاع الصراع أصبحت هذه المجالس نشطة بشكل متزايد وأصبحت الآن تساعد في حل مشاكل الطلاب، ويشمل ذلك الحديث مع الأسر التي تمنع بناتها من الذهاب إلى المدرسة لأجل الزواج. وفي ريف إب ذكرت النساء أنهن يقمن بمساعدة البنات اللواتي يرغبن في اللحاق بالتعليم الجامعي وإقناع الأسر بأهمية الحصول على التعليم الجامعي والسماح لهن بمواصلة التعليم العالي. وتتعهد الناشطات بالحفاظ عليهن واصطحابهن إلى الجامعة وإعادتهن. ووفقاً للمجموعة البؤرية للشابات المشاركات من ريف إب، فإن عدد الفتيات اللواتي يلتحقن بالجامعة آخذ في التزايد.

البيئة

مقارنة بمتطلبات السلام الأخرى، ورغم أن البيئة قضية ذات أهمية محورية، فإنها ليست أولوية بالنسبة للشباب. وهنالك لبس في تعريفها، فبينما البيئة في السياق الدولي غالباً ما تشير إلى صورة أوسع تتعلق بالبيئة وحماية النظام الاقتصادي وعدم الاستغلال للموارد الطبيعية والمجتمعات المحلية، فإن معظم الشباب الذين تحدثنا إليهم قد عبروا عن البيئة بمصطلحات تتعلق بالمتنزهات العامة والصحة كرفع مخلفات القمامة وغيرها.

معظم قضايا البيئة التي ذكرها الشباب المشاركون شملت تردي الخدمات العامة الناجمة عن ضعف أداء الدولة في تقديم الخدمات العامة ما أدى إلى تكدس القمامة، ومشاكل الصرف الصحي، والتوزيع غير العادل للمياه. وهذه القضايا لا تُعد قلقا صحيا في الأمدين القصير والطويل فحسب،

وإنما تتسبب أيضاً في إشعال صراعات محلية. معظم المبادرات الشبابية التي نشأت في حضرموت وإب و تعز تناولت هذه القضايا، وقد انبثق عن هذه المبادرات مجموعات شرعت في إصلاح أنظمة الصرف الصحي، وشبكات المياه، وتوفير المياه الصالحة للشرب، وتقديم براميل القمامة، وتنظيم حملات لتنظيف الشوارع.[18] وقد عاودت مؤسسة المياه وصندوق النظافة والتحسين العمل في تعز بعد إهمال دام ما يقارب أكثر من عامين. وقام الشباب في بداية الأمر بالدعم من خلال مشاريع المناصرة وكسب التأييد التي هدفت إلى استعادة هذه المؤسسات، و عمدوا – لاحقاً – إلى تقديم الدعم من أجل تحسين أداء تلك الهياكل، ونفذوا ورش عمل للتخطيط وتقييم الاحتياجات، و ابتكروا مبادرات مشتركة: ومن ذلك حملات النظافة، وإصلاح شبكات المياه...الخ. ونتيجة لتلك الأنشطة تم استعادة الخدمات العامة والتقليل من المخاطر الصحية والتوترات بين المجتمعات المحلية و بين الأفراد.

تعد البيئة الطبيعية مسألة جهد واهتمام في حضرموت أكثر منها في تعز وإب. وقد يرجع ذلك إلى وجود الكثير من المشاكل البيئية في ريف حضرموت وحضرها. وتتركز كثير من المبادرات الشبابية في حضرموت على حماية البيئة المحلية، والمساحات الخضراء كالمتنزهات، وتنظيف السواحل، وحملات التوعية المتعلقة بإعادة تدوير المخلفات وعدم رميها، ومبادرات مثل "ازرع شجرة" أو "حافظ على النبات". وقد قدمت إحدى المبادرات الشبابية برنامج تدريب لصناعة مخصبات عضوية من المخلفات المنزلية للإنتاج منزلياً. وفي عدن قامت إحدى المبادرات بزيارة المدارس وتوعية الطلاب حول التغير المناخي وأهمية حماية البيئة. ونتيجة لذلك نظمت عدد من المدارس كمدرسة المعالي في عدن رحلات لتنظيف السواحل قام بها الطلاب. كما أن القضايا البيئية العالمية يتم متابعتها وأخذها في الحسبان بالنسبة للشباب في حضرموت. ويُعد التلوث الذي تسببه شركات النفط الواقعة في حضرموت أحد أهم القضايا الحرجة وكذلك العدد المتزايد للعواصف الشديدة. وقد أسهمت هاتان المشكلتان في استحضار التهديد الذي يمثله التغير المناخي في أذهان العامة في حضرموت. وفي المكلا قدم مجموعة من المحامين الشباب قضية ضد إحدى شركات الشحن والتي كانت مسؤولة عن تسرب كمية كبيرة من النفط في العام 2013 والذي تسبب بضرر كبير على الحياة البحرية والمجتمع المحلي.

التعاون والصراع بين كل من جماعات الشباب والقطاعات الأخرى

الشباب الذين تحدثنا إليهم في هذا البحث كانوا منفتحين جداً على التعاون مع القطاعات والجماعات المدنية الأخرى، كفرصة للتعلم واكتساب المهارات وللإسهام في تقديم رؤى الشباب ومنظوراتهم إلى مجالات العمل الأخرى. وقد شكّلت المبادرات الشبابية نفسها جانبا مهما وملفتا لصورة جمالية عن المجتمع المدني منذ العام 2011 تحديداً. وللعلم فإن معظم موظفي كثير من المنظمات المدنية المحلية والوطنية وكذلك قطاعات مختلفة هم من أوساط الناشطين الشباب الذين بدأوا باكتساب مهاراتهم وخبراتهم أثناء الثورة مما جعلهم موردا جاهزا وذا أهمية للعمل في بناء السلام.

وأحد المخاوف المحتملة هو أن بعض الشابات، وبعض الجماعات الأخرى مثل النازحين داخليا، أو المهمشين الشباب غالباً ما يتم وصمهم بهوية واحدة (يُصنف إما كشاب أو امرأة بدلاً من النظر إليهم كحاملين لصفة الشبابية بالإضافة إلى صفة أخرى) ولا

18 قام ائتلاف الخير بتوزيع 300 برميل قمامة على الشوارع في المكلا.

يتم إيلاء أهمية تذكر لتقاطع وغنى خبراتهم.[19] وبنفس الطريقة تتجاهل المنظمات الشبابية التي تحصر دورها في موضوع الشباب، وهو أمر ذو أهمية بطبيعة الحال، الطاقات الكامنة للشباب في المساهمة بشكل فعال في قضايا أخرى مختلفة.

يعمل الشباب عن كثب مع القطاع الخاص منذ وقت سابق في العديد من المجالات وبالأخص في حضرموت حيث يتلقون الدعم من رجال الأعمال المغتربين والمحليين. ويشير بحثنا إلى أن الكثير من رواد الأعمال من هذه الفئة الشبابية، وخاصة الشابات، يؤسسون أو يؤسسن مشاريع صغيرة. غير أن أولئك الشباب يركزون على التمكين الاقتصادي – الذي يأتي في شكل دعم أو قروض من قبل الصندوق الاجتماعي – أكثر من دخولهم في شراكات مع القطاعات الخاصة الموجودة أو المنشأة حديثا.

وتجدر الإشارة إلى أن هناك فرصاً ومحاذير أيضاً مرتبطة بالعمل مع وسائل الإعلام المحلية ووسائل التواصل الاجتماعي. يُمكن لهذه المنصات أن تنقل صوت الشباب ومخاوفهم، غير أنها يمكن أن تكون منصات لنشر الكراهية، وخطاب الفرقة والتحرش والدعايات الاعلامية. وهنالك الكثير من الاهتمام لدى الناشطين الشباب لكسب المهارات كصحفيين معنين بقضايا المواطن والاهتمام ببرامج التدريب التي تقدم في مناطق مختلفة من البلد وتتناول مواضيع محددة ككتابة القصص الإنسانية. وفي كثير من المحافظات – بصورة ملحوظة في عدن و حضرموت وتعز – يحاول الشباب توجيه أجندة "حساسية الصراع" عن طريق العمل على مواجهة خطاب العنف والكراهية في وسائل الإعلام التقليدية و الحديثة. ويضطلع العديد من الشباب بتدريب الصحفيين على حساسيات الصراع وتنمية مهاراتهم بخصوص المبادئ التوجيهية الأخلاقية في وسائل التواصل الاجتماعي و كذلك حول استخدام اللغة. وإجمالاً يرى الشباب أن لديهم إمكانية كبيرة في هذا المجال.

تلبية احتياجات بناة السلام من الشباب

لدى الشباب الكثير من الاحتياجات التي لا يتم تلبيتها حالياً، بالتوازي مع نقص الفضاءات أو المساحات الرقمية والواقعية للتبادل بين الشباب وبالأخص في ظل الانقسامات السياسية والجغرافية. ويعاني الشباب من حاجة ماسة لفضاءات أو مساحات آمنة للتعبير عن آرائهم ومعتقداتهم. ويحتاج الشباب، وبالأخص الإناث من هذه الفئة، إلى الدعم للتحرك والتنقل بشكل آمن داخل البلد وحضور اللقاءات خارج اليمن.

وبشكل مثير للاهتمام أثار الكثير من الناشطين الشباب مسألة الحاجة للمزيد من المساحات الفنية والثقافية بما يشمل الأندية الشبابية، والمنتديات، والمكتبات، والأكاديميات الفنية، والسينما، والمسارح، والاستوديوهات الفنية والتسجيلية، وأندية الكتابة. ورأى الكثير من الشباب أن الاشتراك في الفن والثقافة أمر له أهمية كبيرة في الإسهام في خلق بيئة سياسية مُركبة ومتعددة. ومع ذلك يفتقر الكثير من الشباب خارج صنعاء وتعز لإمكانية الوصول لمثل هذه المساحات.

وهناك مجالات مهمة أخرى ذكرها الشباب ومنها الحاجة إلى دعم مالي أكبر للريادة في المجتمع ودعم الشركات الناشئة والتمويل المصغر ودعم المشاريع والمبادرات، وكذلك التدريب، على نطاق واسع، في مجال بناء القدرات والمهارات المطلوبة، ومنها على سبيل المثال: التوسط، وفض النزاع، والحوار،

19 حول محاذير تصنيف النساء بوصفهن "مقولة تحليلية" والتعامل خطابيا مع كافة المجالات بوصفها "ذكورية"، يمكن الرجوع إلى مناقشة "فريق النساء" في هذا المشروع لهذه القضية ضمن الورقة التي كتبتها كل من Iman al-Gawfi, Bilkis Zabara and Stacey Philbrick Yadav (27.02.2020).

والمشاركة السياسية، وصناعة القرار، والتخطيط، وحملات المناصرة وكسب التأييد، والتمويل، وبناء الشبكات، والتنظيم المؤسسي. وفي الوقت الذي تتوفر فيه لدى الشباب الأفكار الواضحة بخصوص ما يعتقدون أنه مفيد بالنسبة لهم، كان من الواضح أيضاً أن تلك الافكار هي ما يطرحه المانحون الدوليون. وكان هناك شعور لدى الشباب بالحاجة لدعم أكثر استدامة واستمرارية بعكس التدريب أو الحدث الذي يستمر ليوم واحد فقط. وفي سياق متصل يشعر الناشطون الشباب بخُذلان المجتمع الدولي لهم في هذا الموضوع.

يتنامى الشعور بشكل متزايد لدى الناشطين الشباب بالرغبة في المشاركة والحديث حول القضايا المتعلقة بالصحة العقلية، وهذا تطور إيجابي؛ لأنه يأتي في سياق أن المشاكل النفسية لم يتم تناولها حتى الآن لا على المستوى الرسمي أو غير الرسمي ولم تتلقَ الدعم أو الخدمات المطلوبة. وهنالك حاجة إلى دعم نفسي - يكون متلائما مع السياق الثقافي اليمني - يوجه لأولئك الذين مروا بتجارب قاسية (صدمات نفسية) ولأولئك الذين يعملون مع من تعرضوا للصدمات.

التوصيات

استنادا على الاسهامات الحالية التي يقوم بها الناشطون الشباب ذكوراً وإناثاً بخصوص متطلبات السلام الدائم في اليمن، وكذلك تقييمنا للتحديات التي يواجهونها، فإننا نوصي بالتالي:

إعطاء الأولوية لإدراج مبادرات الشباب المحلية ضمن تطوير البرامج والسياسيات الموجهة نحو السلام.

الشباب ليسوا المستفيدين من بناء سلام طويل الأمد فحسب، بل أيضا يقع عليهم التعويل في توظيف مهاراتهم، وتقديم الفهم المحلي الداخلي للوضع، وفي إيجاد طرق مبتكرة بشأن مبادرات السلام. ومن هنا، يتوجب على المانحين والمنظمات المدنية استيعاب الشباب والسماح لهم بالقيادة في الجوانب المختلفة من برامجهم ابتداء بالتصميم وانتهاء بالتنفيذ وأن يكون ذلك في كل القطاعات.

الاستثمار في المبادرات والشبكات الشبابية الموجودة من شأنه أن يوفر الفرص للمشاركة والتعلم وبناء التخصصات.

هناك الكثير من المبادرات الشبابية الصغيرة ذات القيمة في أنحاء متفرقة من اليمن، غير أنها في الغالب آنية وتعمل بشكل منعزل. ومن هنا، فإن من المهم مساعدة تلك المجموعات الشبابية الموجودة لتصبح أكثر استدامة ويكون من شأنها خلق الفرص لتبادل المعرفة والمهارات والدروس من خلال تجاربها المختلفة. كما ينبغي مساعدة الشباب على بناء التخصصات في مجالات متنوعة تتعلق ببناء سلام طويل الأمد. وفي هذا الصدد، ينبغي أن يوفر المجتمع الدولي ومنظمات المجتمع المدني وغير هؤلاء من المعنين بالشأن اليمني الدعم المادي والفني للمبادرات والشبكات الشبابية الموجودة من خلال برامج طويلة الأمد تأخذ في الاعتبار المشاركة مع الشباب عند صياغتها وتصميمها.

خلق المزيد من فرص الدخل للشباب والشابات بما في ذلك الدعم للمشاريع الصغيرة والناشئة والتمويل المصغر والقروض.

على الرغم من أن الكثير من الشباب يبرهنون على وجود طاقات إبداعية وابتكارية استثنائية لديهم، فإن هناك حدودا لهذه المرونة وذلك الإبداع. ومن هنا، فإن ثمة حاجة ملحة لخلق فرص للشباب والشابات لكسب أقواتهم، فاستثمار إبداعات الشباب وابتكاراتهم وتوفير الدعم والوسائل للشباب لخلق مشاريعهم الخاصة والناشئة سيفضي في النهاية إلى إعادة

توجيه مسار نشؤ الصراعات وتفاقمها، وفي الوقت نفسه سيكون من شأن ذلك التمهيد لتنمية دائمة في اليمن.

دعم تأسيس وتوسيع المساحات الثقافية والفنية وتوفير المزيد من المنح للفنانين الشباب.

تُعد الفضاءات أو المساحات الثقافية (السينما، والمسارح، والنوادي، والمراكز الثقافية) والأنشطة ذات أهمية كبيرة في ترسيخ اسهامات الشباب في مجال بناء السلام. ومؤسسات كتلك قد تكون بمثابة مساحات آمنة للشباب والشابات، ليس لمزاولة الأنشطة الفنية فحسب؛ وإنما أيضاً لتقديم اسهامات واضحة أو ضمنية لبناء السلام. إن التركيز على دعم المساحات أو الفضاءات الثقافية الآمنة الموجودة في محافظات يمنية مختلفة، و العمل على تأسيس مساحات وفضاءات جديدة، وتوسيع النشاط الثقافي والفني كلها أمور من شأنها الإسهام في تحسين إشراك الشباب بصورة عامة.

إشراك الشباب في وسائل الإعلام السائدة والتي تُعنى بالمواطن، وتدريبهم عليها، ودعم المبادرات التي يقودها الشباب والهادفة إلى تحسين ورفع الوعي حول حساسية النزاع في وسائل الإعلام المحلية ووسائل التواصل الاجتماعي.

يعتقد الكثير من الشباب أن تضمينهم واشتراكهم في وسائل إعلام مستقلة وغير منحازة ومهتمة بالمواطن يُعد أمراً لا غنى عنه في سبيل رأب الصدع الاجتماعي ونشر السلام والتعايش. ونحن، هنا، نوصي بإقامة برامج لتدريب ودعم الشباب لكسب المعرفة والمهارات التي تمكنهم من استخدام وسائل الإعلام لنشر المصالحة بدلاً عن العنف، والتعايش بدلاً عن الكراهية، والسلام بدلاً عن الحرب. وفي هذا السياق، ينبغي أن تُؤسس البرامج وتُدعم الأكاديميات العلمية ومنصات الإعلام المستقلة وغير المنحازة التي يقودها الشباب؛ وذلك من أجل نشر أصوات الشباب وأعمالهم الهادفة إلى تعزيز السلام والتنمية.

دعم الشباب الذين يتعرضون للخطر وتطوير نماذج نفسية مناسبة للثقافة المحلية من أجل دعم الناشطين الشباب.

ينبغي على المنظمات الإنسانية الدولية والمحلية البدء في تطوير نماذج لدعم الصحة العقلية ورفاهية الشباب بالشراكة مع منظمات المجتمع المدني والناشطين الشباب. وينبغي أن تقدم المنظمات الأكثر توسعاً الدعم النفسي لغير العاملين في طواقمها، وذلك باستخدام طرق غير رسمية وتشاركية، ومن خلال التعلم من العمل على الواقع. يحتاج الناشطون الذين يتعرضون للمخاطر للمزيد من التمويل (اعتمادات مالية)، ونعني بهم أولئك الذين يتم استهدافهم بسبب نشاطهم أو هويتهم. وكذلك ينبغي اتخاذ اجراءات للتعاون من قبل الشركاء والمهتمين الدوليين لتوفير عبور آمن إلى دول تمثل طرفا ثالثا في الصراع، إنْ دعت الحاجة إلى ذلك.

اصـدارات

نسـعى مـن خـلال هـذا البـاب "إصـدارات" لمجلـة الناصيـة متابعـة مسـتجدات النـشر في بلادنـا، وتوثيـق مـا نسـتطيع الوصـول إليـه _ ولـو في القـدر محـدود _، وتقديـم خدمـة للقـارئ والمؤلـف والنـاشر، إلا إن هنـاك صعوبات تواجهنـا تتعلـق بضعـف عمليـة التسـويق والترويـج للكتـاب ومسـتجدات النـشر، وهـي في الأصـل مشـكلة قديمـة نعـاني منهـا في اليمـن، وزادت الحـرب ومـا خلفتـه مـن أوضـاع مـن حدتهـا، إضافـة إلى أن مـا ينـشر ويـروج لـه بـين الحـين والآخـر في وسـائل التواصـل الإجتماعـي عـن الإصـدارات الجديـدة يصعـب متابعتـه مـن جهـة، ومـا ينـشر يقتـصر في الغالـب عـلى عنـوان الاصـدار واسـم المؤلـف، وعـدم تجـاوب مـن نتواصـل معهـم مـن المؤلفـين بتزويدنـا بالبيانـات اللازمـة عـن إصداراتهـم مـن جهـة أخـرى.

وفي هـذا العـدد سـنقتصر عـلى تقديـم عـرض موجـز لبعـض الإصـدارات الـتي تمكنـا الحصـول عليهـا، وهـي عـلى النحـو الآتي:

(1) عنـوان الكتـاب: السَّـهل في العقـود الإداريـة

_ المؤلـف/ الدكتـور يحـيى قاسـم سـهل(*).

_ الطبعة: الأولى 2023.

_ الحجم: 132 صفحة.

_ النـاشر: مكتبـة ومركـز الصـادق للطباعـة والنـشر والتوزيـع صنعـاء اليمـن.

يتألـف الكتـاب مـن سـبعة فصـول، إضافـة إلى الإهـداء والمقدمـة، والخاتمـة،

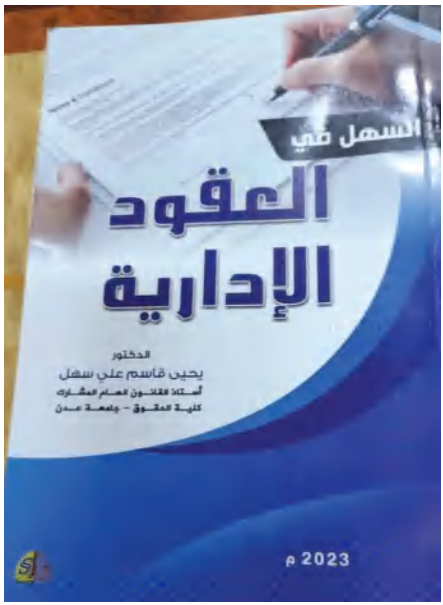

والمصـادر والمراجـع. وقـد تناولـت فصـول الكتـاب الموضوعـات الآتيـة:

التعريـف بالنظريـة العامـة للعقَـود الاداريـة.

_ النظام القانوني للعقَود الادارية.

_ إبرام العقود الادارية.

_ إجراءات إبرام العقود الادارية.

_ سـلطات الإدارة في مجـال العقـود الاداريـة.

_ التزامـات وحقـوق المتعاقـد مـع الإدارة.

_ نهاية العقود الادارية.

*****

(2) عنـوان الكتـاب: السـهل في القـرارات الاداريـة

_ المؤلف/ الدكتور يحي قاسم سهل.

_ الطبعة: الاولى، 2023.

_ الحجم: 126 صفحة.

_ الناشر: مكتبة ومركز الصادق، صنعاء.

ضُمِّـن الكتـاب إضافـة إلى الإهـداء والمقدمـة سـتة فصـول تنـاول فيهـا المؤلـف مـا يـأتي:

_ معيار القرار الإداري وتميّزه عن غيره.

_ أركان القرار الاداري.

_ أنواع القرارات الإدارية.

_ نفاذ وتنفيذ القرارات الادارية.

_ نهاية القرارات الادارية.

_ التعويض عن القرارات الادارية.

(*) (باحـث وأكاديمـي، يعمـل اسـتاذا للقانـون العـام ـــ كليـة الحقـوق ـــ جامعـة عـدن، أصـدر حـتى الآن 28 كتابـا تنوعـت بـين القانـون، والمجتمـع المـدني، والفنـون والموسـيقى، وغـير ذلـك).

*****

(3) عنـوان الكتـاب: نسـاء عـدن: تنويـر وتحريـر

_ المؤلف/ أ. سعاد عقلان العلس(*)

_ الطبعة: الأولى.

_ الحجم: 308 صفحات.

يحـوي الكتـاب مقدمـة بقلـم الدكتـور/ عبـد الحسـين شـعبان" أكاديمـي ومفكـر عـراقي". ثُـمَّ تعريـف تاريخـي وجغـرافي لمدينـة عـدن. منهجيـة البحـث. وملخـص، وتبـع ذلـك سـتة فصـول رئيسـة تناولـت فيهـا المؤلفـة الموضوعـات الآتيـة:

_ إرهاصات الحركة الوطنية والتحررية.

- بـدء الحـركات الوطنيـة في الظهـور

الميـداني.

_ بدء تكون الأحزاب السياسية.

_ رائدات التنوير في عدن.

_ القيـادات النسـوية في الحركـة الوطنيـة والتحرريـة.

_ مناضلات حرب التحرير

(*) (مناضلـة يمنيـة، تعيـش في ألمانيـا منـذ عام 1994)

*****

(4) عنـوان الكتـاب ربيـع الفرجـة: سـيميولوجيا المشـهد الاحتجاجـي في اليمـن (2011/2012)

_المؤلف/ أروى عبده عثمان(*).

_الطبعة: الأولى 2022

_الحجم: 432 صفحة.

_النـاشر: مؤسسـة أورقـة للدراسـات والترجمـة والنـشر.

اشـتمل الكتـاب إضافـة إلى المدخـل، والملحقـات خمسـة فصـول رئيسـة، حملـت العناويـن التاليـة:

_ الفصـل الأول: ربيـع الفرجة: المشـهد الاحتجاجـي في اليمن.

- الفصـل الثـاني: فرجويـات أشـكال التعبـير ودور القـوى الفاعلـة

_ الفصـل الثالـث: المشـهد البـصري الفرجـوي للإحتجاجـات في اليمـن.

_ الفصـل الرابـع: تشـكيلات الصـورة سـيميولوجياً.

_ الفصـل الخامـس: مـآلات الفرجـة المضاعفـة للاحتجاجـات وتشـظياتها.

(*) (باحثـة يمنيـة، تولـت وزارة الثقافـة، وسـفير مفـوض لليمـن في تونـس، تعيـش حالياً في ألمانيـا).

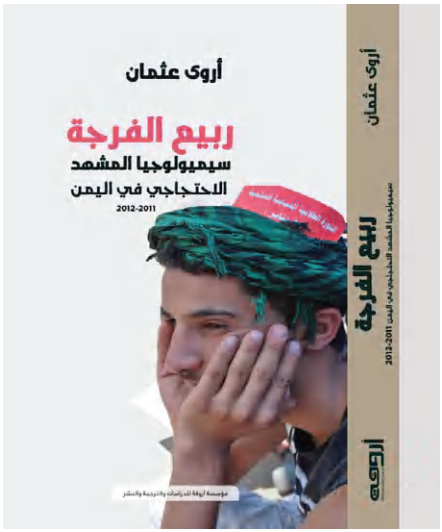

الناصية
مجلة "فكرية ثقافية

تهدف إلى الإسهام في نشر فكر وثقافة المواطنة والمدنية والديمقراطية وحقوق الإنسان، والتأصيل الفكري لقضايا المواطنة والدولة المدنية، وتشجيع الإبداع الأدبي بنشر الإبداعات الأدبية والثقافية للأدباء والمثقفين اليمنيين وغيرهم.

قواعد ومحددات النشر:

تنشر مجلة "الناصية" الدراسات والأبحاث والمقالات والموضوعات التي:

_ تتسم بالعمق والدقة والموضوعية وتضيف جديداً للمعرفة.

_ تتلاءم مع قضايا ومجالات اهتمام المجلة وتوجهاتها وسياستها العامة.

_ تتناول المجلة القضايا السياسية من منظور فكري، وليس بالأسلوب الصحفي المباشر.

حجم المواد والموضوعات التي تنشر في المجلة:

_ يشترط في البحث ألا يزيد حجمه عن "5000/6000" كلمة وألا يكون قد نُشر من قبل.

_ يشترط في الدراسة ألا يزيد حجمها عن "4000/5000" كلمة.

_ الموضوعات المترجمة "بحث، دراسة، تقارير،" عن لغات حية ينطبق عليها الشرطان المحددان أعلاه من حيث الحجم.

_ يشترط في المقال ألا يزيد حجمه عن "1500/2500" كلمة.

_ موضوعات عرض الكتب يشترط ألا يزيد حجمها عن "1500/2000" كلمة وألا يكون قد مضى على صدورها أكثر من عامين، ويُستثنى من ذلك الكتب التراثية، وذات الأهمية والقيمة المعرفية العالية والهامة.

*يحق لهيئة تحرير المجلة إجراء تعديل في حجم الدراسات والبحوث والموضوعات في حالات معينة وفقا لإمكانيات النشر.

* ترسل الدراسات والبحوث والموضوعات إلى المجلة عبر بريدها الالكتروني أو خدمة (الواتس أب) مطبوعة في قرص إلكتروني (pdf) أو ملف (word) مرفق به اسم وعنوان الكاتب وعمله ومؤهله العلمي.

*تحتفظ المجلة لنفسها بحق إجراء قدرا محدود من التعديلات في الموضوعات التي تصل إليها بما يتلاءم مع أسلوبها في النشر. بالتنسيق مع الكاتب وموافقته.

* الدراسات والبحوث والمقالات ... الخ، التي ترسل إلى المجلة لا تُعادُ إلى أصحابها سواء نشرت أم لم تنشر.

*الموضوعات التي نُشرتْ في المجلة يحق لكاتبها إعادة نشرها في كتاب فقط، مع الإشارة إلى المصدر الأصلي للنشر.

مؤسسة أمجد الثقافية والحقوقية

_عنواننا: اليمن. _المقر الرئيسي، عدن.
_هاتف: 02260082 /02260082
_جوال: 00967713807501
00967733171039
_البريد الإلكتروني. a.gadfchv@yahoo.com
ـــ رابط صفحة "مدونة" المؤسسة في الانترنت.
https://www.facebook.com/ مؤسسة-أمجد-الثقافية-والحقوقية100990208428465-/
_ الرئيس الدوري للمؤسسة/ أ. محمد عبد الرحمن.
هاتف + واتس: 00967777808724 / 00967777808724
واتس: 00967714367122 / 00967714367122
إيميل.abdm8626@gmail.com

•من نحن؟

_ مؤسسة أمجد الثقافية والحقوقية: هيئة مدنية_ أهلية_ نوعية_ ثقافية_ فكرية_ بحثية_ انسانية، غير حكومية، وغير ربحية، مستقلة وليست لها أية ارتباطات حزبية أو سياسية.

_ تعمل في مجال التنوير، والتنمية الثقافية، ومناصرة الحق في التعليم والثقافة، ونشر ثقافة المواطنة والمدنية وحقوق الإنسان.

_ تأسست بتاريخ 21/يونيو /2018م، وتم إشهارها وبدء ممارسة أنشطتها في 24/اغسطس/ 2020م

_ حاصل على تصريح التأسيس تحت رقم(297) بتاريخ 11/1/ 2021م صادر عن وزارة الشؤون الاجتماعية، وتصريح مزاولة النشاط صادر عن وزارة الثقافة.

•أهدافنا ومجالات عملنا:

تهدف المؤسسة للاسهام في:

1.تعزيز التنمية الثقافية الشاملة، والمشاركة المجتمعية في التنمية الثقافية.

2.نشر وتنمية ثقافة المواطنة والمدينة وحقوق الإنسان.

3.تنمية وتعزيز حقوق الإنسان الثقافية، وتعزيز أعمال وانشطة المناصرة للحق في التعليم، والحقوق والحريات الثقافية، وحرية الفكر والابداع.

•تركز المؤسسة عملها في القضايا التالية:

1.قضايا التنوير والثقافة المدنية.

2.قضايا الحق في التعليم والثقافة.

3.قضايا الثقافة العامة، وتنمية المواهب الإبداعية الأدبية والفنية.

بالإضافة إلى إصدار مجلتنا هذه- الناصية.

... {ينبغي أن ندرك أنه اذا لم يتم تناول قضايا الوطن في جرأة ووضوح فان الوعى الزائف سوف يستمر وفي مصاحبته أوهام تتيح للظلام أن يسود، و«للسلطنة» الجديدة أن تعمق جذورها، فضلا عن استمرار الواقع الكئيب الذي تتولد عنه تلك الاوهام وذلك الوعى الزائف.}

(*) من مقدمة كتابه"الجمهورية بين السلطنة والقبيلة في اليمن الشمالي" ط (١) ١٩٨٨.

"العقل العربي يحتاج إلى التحرر من العزلة" لوحة للفنان/ فؤاد حمدي